ARAB COMICS
عرب كوميكس
www.arabcomics.net

SERIE CONNAISSANCE GENERALE

EDITION DU NOUVEAU MILLENNIUM

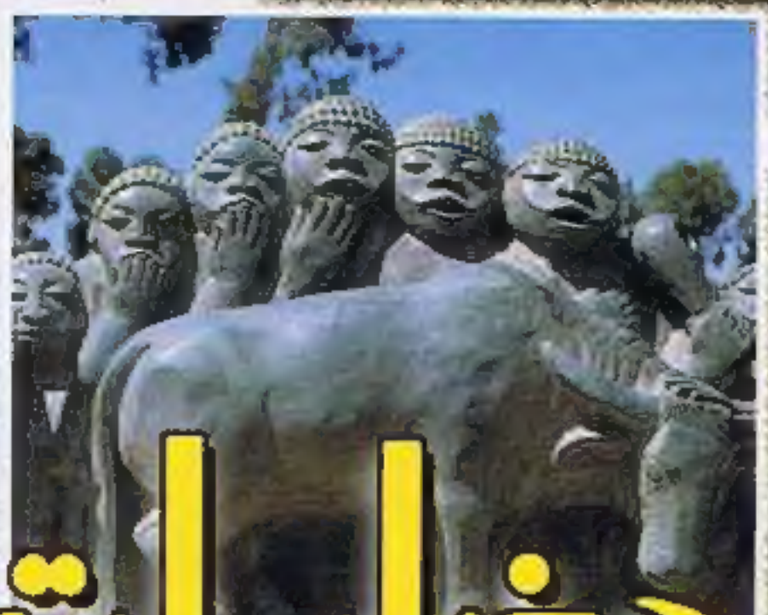

حضارات الشعوب القديمة

LES CIVILISATIONS DES ANCIENS PEUPLES

سلسلة المعارف الشاملة

SERIE CONNAISSANCE GENERALE

Edito Creps, 2002

جميع حقوق النشر والطبع والإقتباس محفوظة للناشر في العالم تحت طائلة الملاحقة الجزائية

Tous droits reservés dans le monde.
Reproduction même partielle est interdite

All rights reserved throughout the world.
No part of this publication may be reproduced in any form

موسوعة

المعارف الشاملة

المقـــدمـــة

تشكل «**الموسوعة العالمية الشاملة**» خطوة جريئة في عالم النشر العربي، فهي أولاً باكورة إنتاج «Edito Creps» التي تهدف إلى تزويد القارىء العربي بآخر المستجدات في عالم الفكر والفن والتكنولوجيا.

وتتوخى إدارة «Edito Creps» وفريق العمل، المكون من أكثر من ٤٠ اخصائي ومفكر وباحث ومترجم ومحرر، الذي يشرف على إصدار منشورات الدار، تقديم المعلومات للقارىء بأسلوب مبسَّط لا التباس فيه ولا تعقيد بحيث تصبح «**الموسوعة العالمية الشاملة**» رفيقة القارىء، مهما كان نوعه ومستواه الثقافي والفكري: فالتلميذ الباحث يجد فيها مبتغاه، وهاوي التاريخ أو الأدب أو الموسيقى أو الفن أو الفلسفة، يجد فيها ما يشبع رغباته كما يجد في هذه الموسوعة كل متتبع لآخر المعلومات والتطورات والابتكارات في مجالات **التكنولوجيا الحديثة، وعلوم الذرة، والفضاء، والأقمار الصناعية، والاتصالات السلكية واللاسلكية**، ما يروي عطشه في هذه الحقول.

حتى هُواة الفنون العسكرية والعسكريون لم تهملهم «**الموسوعة العالمية الشاملة**» إذ قدَّمت لهم كل ما يتعلق بهذه الفنون وتشعباتها.

وأفردت «**الموسوعة الشاملة**» مكانة خاصة للذين يهتمون بالبيئة ووسائل حمايتها من التلوث، فحاولت أن تقدِّم لهم ما يرضي اهتمامهم ويدفعهم نحو المزيد من المواقف والتطلعات المستقبلية البناءة في حقل البيئة ومنع التلوث البيئي.

وتجد المرأة في «**الموسوعة العالمية الشاملة**» ما يروي غليلها في مجال الجمال والأناقة والطبخ الذي قدَّ منا لها فيه أشهى وأطيب المأكولات الرائجة في أنحاء مختلفة من العالم، مع الاهتمام بشكل خاص بالأطعمة السريعة الإعداد، المعتدلة الكلفة والصحية التي لا تسبب البدانة وتساعد في حصولها.

ولأن العائلة عزيزة على قلب كل عربي أصيل، فقد احتلت مكانة مميزة في موسوعتنا التي شملت معظم النواحي التربوية، الاجتماعية والصحية الخاصة بالعائلة.

إلاَّ أن أهم ما تمتاز به «**الموسوعة العالمية الشاملة**» فهو تركيزها على كل ما يتعلق بتراثنا العربي وتراث الشرق الذي يكون جزءاً من تاريخ الحضارات القديمة والحديثة والمعلومات الوافية عن الجغرافيا الطبيعية والسياسية والاقتصادية وبحثت في قسم الفلسفة كل ما يتعلق بالفلاسفة العرب والآراء الفلسفية العربية والشرقية وغطت في أقسام عدة شؤون الأدب والفن والموسيقى والمسرح والسينما، لما لهذه المواضيع من أهمية في الحياة الاجتماعية في عالمنا العربي.

المشرف العام

يولاند بيروتي

EDITO CREPS
INTERNATIONAL

NEW YORK FAX: 001 - 1 - 212 - 4784192, 961 - 1 - 586207, 961 - 3 - 240824

فهرس المحتويات

الحضارات والشعوب ٨
- الإنسان النياندرتالي ٩
- العصر الحجري القديم ١٠
- العصر الحجري الحديث ١٢
- ظهور المعادن ١٣
- صناعة الخزف ١٤
- ظهور العجلة ١٤

المدنيات الأولى ١٥
- المرأة البادئة بالزراعة ١٦
- استقرار إنسان العصر الحجري الحديث ١٧
- البداوة والترحل ١٨
- السومريون ١٨
- البابليُّون ٢٠

الحضارة الأشورية ٢٣

الحضارة الكلدانية ٢٦

الحضارة المصرية ٢٧
- فن العمارة (هندسة البناء) ٣٥

الحضارة الفارسية ٣٨

حضارة الهند ٤٢

الحضارة الصينية ٤٥

الحضارة القديمة ٤٥

تطوُّر الحضارة الصينية ٤٦

الفنون الصينية ٤٨

الحضارة الكنعانية ٤٩

الحضارة الفنيقية ٥١
- الاقتصاد الفنيقي ٥٨
- صناعة بناء السفن ٥٨
- صناعة الأرجوان ٥٩
- التجارة والملاحة ٥٩
- الأبجدية ٦٠

الحضارة اليونانية ٦١
- المجتمع الاسبارطي ٦٢
- أثينا في عصر بريكليس ٦٣
- فيليب المقدوني ٦٦
- الإسكندر وفتوحاته ٦٧

أسماء إغريقية لامعة ٧١

الحضارة الرومانية ٧٢
- الرومان والأتروسك ٧٤
- الرومان والغال ٧٤
- الرومان وايبروس ٧٥
- الرومان والقرطاجيون ٧٥
- الحكم الأمبراطوري ٧٦
- الهندسة الرومانية ٧٨

المجتمع الروماني مجتمع وثني ٧٨

القوانين الرومانية ٨٠
- الازدهار الاقتصادي في الامبراطورية الرومانية ٨٢
- تصدع الأمبراطورية الرومانية ٨٣

الحضارة البيزنطية ٨٥

الحضارة العربيَّة والإسلامية ٨٦
- المجتمع العربي في الجاهلية ٨٧

نشأة الإسلام ٨٩
- محمَّد الرسول العربي ورسالته ٩٠
- الدعوة الإسلامية ٩٠
- اتساع الدولة الإسلامية ونموها ٩١
- العصر الأموي ٩٣
- العصر العباسي ٩٤

الحضارات والشعوب

الحضارات والشعوب

كيف ابتدأت الحياة على سطح البسيطة؟ لا ندري بالتحديد بل يكوِّن علماء الأحياء، في هذا الشأن، آراء وتخمينات. مع أنهم يكادون يجمعون على أن الحياة ابتدأت في مياه ضحلة دفيئة تغمرها أشعة الشمس. أي، ربما، في برك ومستنقعات تمتد على شواطىء البحار الأولى. كما يقول البعض منهم أنها كانت عملية كيميائية ـ فيزيائية ناتجة عن طبيعة الأشياء وضرورتها. ويستند علماء الأحياء في دراستهم إلى الحفريات الموجودة في الصخور. وقد فصّلنا هذا الأمر في الجزء الأوّل من موسوعتنا.

على أن للحياة مظاهر عامة تميزها عن كل الأشياء التي لا حياة فيها: فللكائنات الحيَّة مقدرة معينة على النمو، وكل الكائنات الحيَّة تتغذَّى وتتحرَّك، حتى تلك الثابتة منها في مواقعها، إذ تمدُّ جذورها في الأرض وأغصانها في الفضاء، ثم إنها تتكاثر منتجة كائنات أخرى شبيهة بها من حيث النمو، كما أنه ما من كائن حي يبقى حياً إلى الأبد، إذ هناك حد للنمو. ويؤدي نمو الأشياء الحية وموتها وتكاثرها إلى نتائج عجيبة: الصغار يشبهون آباءهم، إمَّا مباشرة وإمَّا بعد المرور بأطوار وسطى، فجميع الرجال والنساء الذين يعيشون في العالم اليوم يتحدَّرون من رجال ونساء عاشوا قبل آلاف السنين ولكن أحداً منهم لا يشبه تماماً ذلك الجيل الزائل، فكل نوع من الكائنات الحية يموت بغير انقطاع ثم يعود فيولد من جديد بصورة حشد من الأفراد الجدد.

ويترتب على كون الأشياء الحية التي تعيش وتنتج وتموت أنه ما دامت كلَّما تجدَّدت الأجيال. ولكن الظروف لا تبقى على حالها. فالتكيُّف في تناقص دائم وفي بعض الأحيان شديد النقص وهذا ما يفرض على الكائنات الحية ملائمة دائمة ومتواصلة مع الظروف المحيطة بها. فهناك تغيرّات فجائية في المناخ أو في التضاريس تؤدي إلى انقراض أو نمو نوع معين من الكائنات الحية: فالنباتات والحيوانات والبشر يخضعون لهذا القانون.

وشكَّل موضوع أصل الإنسان وعلاقته بالحيوانات الأخرى مثار جدل ونقاش شديدين طيلة القرنين الأخيرين. وقد توصَّلَ الإنسان إلى ما هو عليه اليوم من قوى ومواهب وآمال من خلال ملايين وملايين من أفراده الذين تعاقبوا على الحياة.

احدى المغاور التي اكتشفت فيها بقايا بشرية

الحضارات والشعوب

الإنسان النياندرتالي

● الإنسان النياندرتالي:

إذا عدنا إلى الفترة الجليدية الثالثة من عمر الأرض، نجد أن مجموعات عائلية صغيرة من الناس كانت تتنقل على الأرض، نعني بها الإنسان النياندرتالي، وأنه كان هناك جماعات شبيهة بالإنسان (الملقب بالإنسان الفجري)، على أنها لم تترك وراءها شيئاً يشهد على وجودها إلاّ آلاتها الصوانيّة.

وربما كان هناك بعض الأنواع الأخرى من البشر التي تصنع الآلات ولكن ليس هناك شيء يثبت وجودها غير بعض الشكوك. على أنه من الراجح أنهم كانوا يستعملون عدداً وفيراً ومتنوعاً من الأدوات الخشبية ولعلّهم قد تعلّموا من خلال معالجتهم للخشب صنع الكثير من الأدوات المتعدّدة الأشكال والاستخدام وقد طبّقوا هذه المعرفة، في ما بعد، على الحجر.

وقد أخذ إنسان نياندرتال يطلب الاختباء داخل الكهوف، حين بلغ الجو أقصى درجات برودته، كما كان قد عرف، من قبل، النار. هكذا اعتادت الجماعات النياندرتالية على التجمُّع حول النار

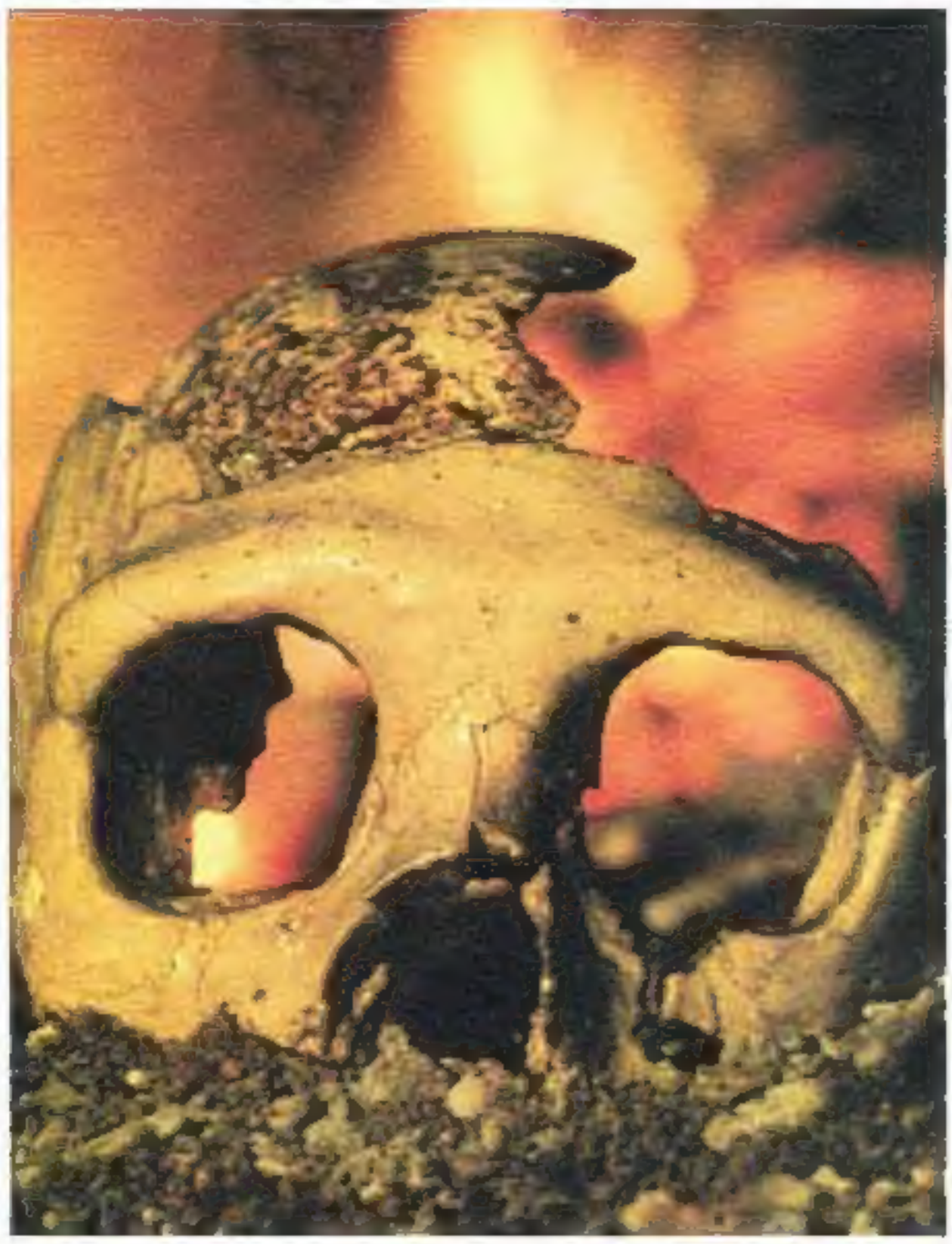

بقايا جثة انسان النياندرتال

الحضارات والشعوب

في العراء بقرب موارد الماء ويلغوا من الذكاء حداً أتاح لهم التكيُّف مع الظروف الجديدة القاسية.

ولم يقتصر اللجوء إلى الكهوف على الإنسان وحده بل كانت تسكنها أيضاً الأسود والدببة والضباع فكان لا بد للإنسان من دفعها إلى الخارج ومنعها من الدخول. وكانت النار وسيلة فعالة من وسائل الاستبعاد والوقاية. ويرجَّح عدم توغُّل البشر في أعماق الكهوف، إذ لم تكن هناك وسائل إنارة بل كانوا يدخلون بما يكفي لابتعادهم عن غائلة الجو الخارجي وكانوا يختزنون الخشب والطعام في بعض زواياها ويقيمون ربما المتاريس على مداخل الكهوف.

بالنسبة للطعام، يَرجَّح أنهم اعتادوا صيد الحيوان الصغير، مع أنهم كانوا يأكلون لحوم الوحوش الكبيرة إذا ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، وربَّما كانوا يتتبعون خطاها إذا وجدوها عليلة أو ألفوها جريحة إثر صراعها مع أمثالها، وقد يكونون ترصَّدوا فرصة وجودها مغلولة في الوحل أو مأسورة في الماء والثلج. ولا يزال هنود لابرا دور يقتلون غزال Caricou حين يقع في مأزق أثناء عبوره مخاضات الأنهار. كما وجد في مدينة دوليتش بمقاطعة ديفون خندق صناعي يُعتقد أنه كان فخاً للفيلة في العصر الحجري القديم.

واستعمل جماعة النياندرتاليين الجلود يلفُّونها حول أجسامهم. وكانت نساؤهم ترتدي الجلود. كما كانوا يستعملون أيديهم اليمنى لأن الناحية اليسرى من المخ أكبر من اليمنى. وكانت أجزاء المخ الخلفية المتصلة بالبصر واللمس والنشاط البدني متطوِّرة بينما كانت الأجزاء الأمامية المتصلة بالتفكير والنطق صغيرة نسبياً وربما لم يكونوا يتكلمون قط أو نادراً ما يتكلمون ولم يكن لديهم شيء نسمِّيه لغة.

● العصر الحجري القديم:

لم يهاجر هؤلاء البشر إلى أوروبا بالمعنى الدقيق لكلمة هجرة. بل إنهم حين أخذ المناخ يتحسَّن قرناً بعد قرن، راحوا يتتبعون الطعام والنبات اللذين اعتادوا عليهما، وكان الجليد قد شرع بالانحسار والنبات يتزايد والصيد الكبير من كافة الأنواع يزداد وأخذت أشباه السهوب بشجيراتها تستجلب رعائل هائلة من الخيول البرية.

وتفيدنا بقايا الهياكل المتبقية من تلك الفترة عن وجود نوعين من الأجناس البشرية هما:

الكرومانيون: وكان هؤلاء شعباً طويل القامة، وجهه عريض، أنفه عالٍ بارز، مخّه كبير يبعث على الدهشة.

الجريمالديون: وكُشِفت بقاياهم في كهف جريمالدي بالقرب من منتون Mentone. إذ وجد هناك هيكلان طرازهما مغاير للأوَّل (الكرومانيون) لما فيهما من خصائص شبه زنجية وفي ذلك إشارة صريحة إلى نمط الجنس اليوسكوبي في جنوب أفريقيا.

هذان الجنسان كانا يعيشان ربما في وقت واحد. ويعتبر ظهورهما في العصر الحجري القديم الذي أعقب العصر الجليدي قفزة هائلة في تاريخ الإنسانية: فلكل من هذين الجنسين البشريين مقدم مخ إنساني ويد إنسانية وذكاء شبيه بذكائنا. وقد سلبوا الإنسان النياندرتالي كهوفه وجحوره. لكنهم لم يرضوا بإقامة أية علاقة مع الجنس المذكور إذ لا أثر لأي تزاوج بينهم مع أنهم كانوا أيضاً من مستعملي الصوان.

وقد يعود سبب امتناع هذا التزاوج إلى غرابة هيئة النياندرتاليين الذين كانوا على ما يبدو، يكتسون بالشعر، خفيضي الجباه، تشبه حواجبهم حواجب الخنفساء ورقابهم تقارب رقاب القرود وقامتهم قصيرة، كما كانوا ربما، رجالاً ونساء شديدي الشراسة إلى درجة تعذَّر معها استئناسهم.

هكذا حل هؤلاء الرجال الحقيقيون محل النياندرتاليين في العصر الحجري القديم فاستخدموا كهوفهم ومآويهم. وكانوا يقضون معظم حياتهم في العراء يصطادون الماموت والحصان البرِّي وغزال الرنَّة والثور الوحشي الكبير، وكانوا يأكلون الخيول بكثرة. ويبدو أنهم كانوا يقيمون على مقربة من أماكن تجمع هذه الخيول وأصبحوا يعرفون عاداتها وميولها. ولعَلَّهم قد تعلَّموا ترويضها وتأنيسها.

وممَّا يثير الدهشة أن هؤلاء الرجال كانوا يرسمون رسوماً جيِّدة. فرغم توحشهم رسموا أفضل من أي جنس خلفهم حتى بدأ التاريخ، ونقشوا على

الحضارات والشعوب

جوانب الصخور وعلى جدران الكهوف التي غصبوها من النياندرتاليين. هذه الرسوم والنحوتات الصغيرة أفادت علماء السلالات والآثار كثيراً.

كما كان إنسان العصر الحجري القديم يدفن موتاه ويدفن معهم في الغالب الحلى والطعام، ويستعمل في الدفن قدراً مهماً من الأصباغ: إذ يبدو أنهم كانوا يستخدمون صبغات سوداء، بنيَّة، حمراء، صفراء، وبيضاء. ولا تزال أصباغهم موجودة حتى يومنا هذا في الكهوف وعلى سطوح الصخور في فرنسا وإسبانيا. وأقرب المقربين إليهم الهنود الحمر.

ومع تقدم القرون ظهر عدد أكبر من الفنانين المهرة وأقبل البعض على صنع تماثيل صغيرة من العاج ومن حجر الصوان.

وقد أخذت الظروف تنقلب انقلاباً تاماً على الأجناس البشرية التي ظهرت في العصر الحجري القديم والتي كانت مزدهرة في أوروبا، فاختفت من الوجود وحلّت محلها أنواع أخرى من البشر آتية من الجنوب والشرق. ويبدو أن هؤلاء قد أدخلوا معهم القسي والسهام واستأنسوا الحيوان وزرعوا الأرض. فانتشرت في أوروبا طريقة عيش جديدة هي طريقة العصر الحجري الحديث «النيوليتي Néolitique».

ورجال العصر الحجري القديم كانوا على اتصال وثيق بالحيوانات ولكن لم يتوصلوا إلى التفاهم إلاّ مع الحصان. ولم يكن لديهم كلاب ولا حيوانات مستأنسة بالمعنى الذي نفهمه بل كانوا يترصدون الحيوان ويجذبونه ويقتلونه ويأكلونه. ولم يبد أنهم كانوا يطبخون طعامهم، بل كانوا يشوّطون ظاهرها أو يشوونها إذ كانت تعوزهم أدوات الطبخ. فالطين كان في متناول أيديهم وخلّفوا وراءهم عدداً كبيراً من الأشكال الطينية. ولكن لم يكن لديهم فخار. وكان لديهم مجموعة كبيرة من الأدوات الصوانية والعظميّة ولم يتوصلوا إلى استعمال الخشب للمساكن الدائمة وما شابهها من المباني. ولم يصنعوا قط الفؤوس ذوات النصاب أو ما يشبهها من أدوات تمكنهم من معالجة الخشب.

ويرجَّح أن إنسان عصر غزال الرنة لم تكن له أية دراية بالرماية والنبال. وربما كانوا يستخدمون عصياً مبرية بدل السهام. ولم يزرعوا الحبوب والخضر أياً كان نوعها. وكانت نساؤهم أصغر حجماً من الرجال بل تصوِّرهن التماثيل بدينات تصل بدانتهن إلى مستوى بدانة نساء البوشمن في أيامنا هذه. ولعلَّ صغر حجمهن يعود إلى الحمل والولادة المبكرين قبل استكمال نموهن. كما كانت المرأة البدائية مخلوقاً ذليلاً خاضعاً.

وكان إنسان العصر الحجري الثاني يكتسي بالجلود وكان يهيئها على ما يبدو ببراعة واتقان. وحين قارب العصر نهايته كانوا يستعملون إبراً من العظم استعملوها في خياطة هذا الفراء. وكانوا يرسمون على هذه الجلود بالألوان بل يظن البعض أنهم كانوا يطبعون عليها رسوماً بواسطة أسطوانات من العظام. وكانت ثيابهم مجرَّد لفائف إذ لم يُعثر لهم على مشابك. ولا يبدو أنهم استعملوا الأعشاب وما شابهها من الألياف في صنع المنسوجات.

هؤلاء الصيادين عاشوا على السهوب الفسيحة على مدى مائتي قرن أو ما يقاربها، ولعلَّ نمو الغابات فاجأهم حين خفَّت وطأة البرد القارس وأصبح المناخ أكثر مطراً فنقص عدد قطعان الحصان البرّي وغزال الرنة ونشأت ثقافة إنسانية حديثة جعلت سيطرة الإنسان على المواد الغذائية أكبر من ذي قبل فأصبح أقدر على التزام الاستقرار وتوسَّع التنظيم الاجتماعي فأصبح على رجال عصر غزال الرنة أن يختاروا بين تعلُّم طرائق العيش الجديدة أو الزوال من الوجود.

وعاشت شعوب العصر الحجري القديم على هامش الحياة. إذ كانوا يرابطون على التخوم ويسكنون على الصخور الجرداء الواقعة شمالي أفضل أراضي العالم. وكان حوض البحر المتوسط يمتد في الجنوب والغرب منهم. وممَّا لا شك به أن بقايا معاصري رجال غزال الرنة مغمورة تحت مياهه الزرقاء. فالوديان العظيمة المحيطة بالبحر المتوسط وبمثلث البحر الأحمر قد أتاحت للتطور الإنساني ظروفاً بديعة رائعة.

الحضارات والشعوب

● العصر الحجري الحديث :

ابتدأت مرحلة العصر الحجري الحديث Néolitique للحياة الإنسانية قبل عشرة آلاف أو اثني عشر ألف سنة وتتميز هذه المرحلة بما يأتي :

١ ـ وجود آلات حجرية مصقولة، وخاصة البلطة الحجرية ذات اليد الخشبية والتي قد تكون استعملت في قطع الخشب أكثر منها في القتال. وكذلك وجدت رؤوس سهام كثيرة. لكن ذلك لم يمنع وجود كميات من الأدوات الحجرية غير المصقولة.

٢ ـ بداية نوع من الزراعة واستخدام النباتات والبذور. مع أن الأدلة كثيرة على أن الصيد ظل ذا قيمة عظيمة: فإنسان العصر الحجري الحديث كان يرابط إلى جوار زراعته وكان يتناول المحاصيل السريعة الخاطفة، بل بالأحرى كانت النساء تجمع البذور البرية يبذرن المحاصيل السريعة النضج وظل الرجل منهمكاً في صيده إلى أن استقر.

٣ ـ بدأت صناعة الفخار وأدوات الطبخ الحقيقي ولم يعد الإنسان يأكل الحصان.

٤ ـ ظهر الكلب والحيوانات الأخرى التي استأنسها الإنسان كالماشية والضأن والمعز والخنازير. وانقلب الإنسان من صياد إلى راع للقطعان التي كان يصطادها في ما مضى.

٥ ـ نزوح أقوام العصر الحجري الحديث إلى أوروبا بالطريقة نفسها التي نزح فيها رجال غزال الرنة، أي أنهم انتشروا سعياً وراء ما اعتادوه من طعام جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن مع تغيرُّ المناخ. ويصعب علينا تقدير مدى تجاوب رجال العصر القديم مع النازحين الجدد في العصر الحجري الحديث: فقد يكون التأخر أصاب

الحضارات والشعوب

صائدي غزال الرنة ولكن الشعوب القابسية تطورت وتعلّمت أساليب الحياة الجديدة من قوم أكثر منهم تقدّماً أتوا من الجنوب والشرق. لكننا نستطيع أن نقول عن ثقة أنه لم يحدث اكتساح جديد لصنف من أصناف الإنسان ولا حلّ صنف محل صنف آخر. صحيح أنه قد حصلت غزوات وفتوح وهجرات واسعة النطاق وتمازجت الأجناس ببعضها، لكن الأجناس البشرية بقيت تكيّف نفسها وفق الأراضي التي استقروا فيها في مطلع العصر الحجري الحديث.

• ظهور المعادن.

وأوّل ما عُرف من المعادن هو الذهب. فقد ظهر بعد زمن طويل من بدء العصر الحجري الحديث وظهر معه الكهرمان الأسود والأصفر. والبقايا الإيرلندية، من مرحلة ما قبل التاريخ، غنية بذخائر الذهب بصفة خاصة. وربما شرع الناس، منذ ستة آلاف أو سبعة آلاف سنة في استعمال النحاس في بعض المراكز وأخذوا يصنعون منه آلات شبيهة بآلاتهم الحجرية. كما كانوا يصبُّون النحاس في قوالب مصنوعة على شكل الآلات الحجرية. كما استطاعوا أن يعرفوا كيف يستخلصون النحاس من معدنه الخام. ولعلّهم اكتشفوا سر الصهر، بالصدفة، بعد وضعهم أتفية من خام النحاس بين الأتافي الحجرية العادية التي كانوا يضعونها في حفر النار المستخدمة في الطبخ.

هكذا استطاع الصاهرون الأول، وبسبب أمر يعود إلى القذارة أكثر منه إلى المهارة، أن يصادفوا البرونز وهو أصلب وأحسن من النحاس وهو مزيج من النحاس والقصدير. ولكن ليس هناك شواهد تدل على أن الإنسان القديم عرف القصدير كمعدن منفصل.

الحضارات والشعوب

فقد وجدت كتلة من القصدير في رواسب مساكن البحيرات السويسرية وعُرِف القصدير في مصر بوصفه مستورداً أيام الأسرة الثامنة عشرة، وقد عثر الباحثون على أشياء مصنوعة من القصدير في بلاد القوقاز. لكن يبدو التميز بين القصدير والأنتيموان أمراً عسيراً، وقد حاول القدماء أن يحصلوا على القصدير ولكنهم حصلوا بالفعل على الأنتيموان وهم يظنون أنه قصدير. وقد عُثر في إسبانيا على مصنع لأحد صاهري النحاس قبل التاريخ.

كما عُثر على المواد الخاصة بمصاهر البرونز في نواح أخرى مختلفة. أمّا في الهند حيث يوجد (Tinc) جنباً إلى جنب مع خام النحاس، فقد عُثِر بالصدفة على النحاس الأصفر (وهو مزيج من المعدنين).

لكن ظهور البرونز لم يمنع من استخدام قوالب الأدوات الحجرية لصنع الأدوات البرونزية التي أخذوا يستبدلونها بها.

أخيراً، ومنذ حوالي ثلاثة آلاف سنة، أخذ الناس في أوروبا وفي آسيا الصغرى يصهرون الحديد: صحيح أن الحديد كان معروفاً قبل ذلك التاريخ بزمن طويل، لكنه كان مستخلصاً من الشهب. والحجر الشهابي مكوّن، كما هو معروف، من الحديد والنيكل. وهذا الحديد، كان نادراً ويستعمل في صنع الحلى وبعض المواد السحرية وحين عرف الإنسان عملية الصهر لم يعد حصوله على الحديد أمراً يثير الدهشة. وعملية الصهر كانت تتم بالنفخ في نار من الفحم النباتي، وصياغته بإحمائه وطرقه، وكانوا ينتجونه، في البدء، قطعاً صغيرة. ويعتبر ظهوره بداية عهد انقلاب تدريجي في الآلات والأسلحة. ولكنه لم يكن كافياً لتغيير الحالة العامة البيئية المحيطة بالإنسان، علماً بأن الحياة اليومية التي عاشها إنسان العصر الحجري الحديث لا تختلف كثيراً عن الحياة التي كان يحياها الفلاحون في الأماكن النائية في كل أنحاء أوروبا في مطلع القرن الثامن عشر.

● صناعة الخزف:

في العصر الحجري الحديث، شرع الإنسان في الشرق الأدنى يتقدّم في سلّم المدنية: في أساليب الزراعة، في تربية الماشية، في صقل وشحذ أدواته الحجرية الصوانية. وبدأ، فضلاً على ذلك، يصنع الخزف ويطوّر الحياكة ويستخدم المعادن في صنع آلات وأدوات أكثر فعالية وأحسن استخداماً في أغراضه وأعماله.

وقد أدرك الإنسان، في الشرق الأدنى، من خلال اختباراته الزراعية القديمة أنه يحتاج إلى آنية ومواعين ليختزن أو لينقل بواسطتها الجزء من إنتاجه الزراعي الذي يفيض عن استهلاكه الخاص. فصنع أولاً سلالاً من القصب ومن بعض النباتات ذات الساق الصلبة فكان يجدلها جدلاً ويطليها بالطين. ثم راح يصنع أكياساً من جلود الحيوانات التي كان يستخدمها لخزن الفائض من الماء.

وقد يكون تعلّم عن طريق الصدفة خصائص الطين المشوي: كيف يجف ويحافظ على شكله إذا تعرض للحرارة. وقد يكون تم ذلك بتعريض الطين الطري لحرارة الشمس ثم تعلّم كيف يشويه بالنار المكشوفة وبعد ذلك في أفران. فبدأت بذلك صناعة الخزف. وقد تحسّنت هذه الصناعة كثيراً وخطت خطوة إلى الأمام عندما اكتشف الإنسان أنه إذا طلى وجه الإناء الداخلي بطبقة من الرمل وشواه يشكّل الرمل طبقة زجاجية لا يخترقها الماء.

وكان أقدم خزف ظهر للمرّة الأولى في حفريات تل الخلف الواقعة عند مصب أحد روافد الفرات، ثم في تل الجديدة شمال شرق مدينة أنطاكية وفي مدينة أريحا وأماكن أثرية أخرى في الشرق الأدنى. وكانت جميع الآنية الخزفية تصنع باليد وبلون واحد. ولكن مع تقدم هذه الصناعة وانتشارها في العالم القديم ازداد جمال أشكالها وفن صنعها وأصبحت تختلف كلّياً عن السلال الطينية والأكياس الجلدية البدائية. ومن أجمل الآثار التي وصلت إلينا كسر وقطع من صحون وكؤوس وجرار وفناجين مصنوعة في سوريا وفلسطين والعراق.

● ظهور العجلة:

في الألف الرابع قبل الميلاد تقدّمت صناعة الخزف تقدماً سريعاً وظهرت

المدنيات الأولى

العجلة واختراع العجلة كان بمثابة فجر جديد في عالم الصناعة، إذ أدى إلى صنع آنية خزفية مستديرة وصنع عربات مختلفة تسير على عجلات وتقدم في صناعة النسيج والحياكة وفي صنع الآلات المعدنية. وأصبح لدى الإنسان القديم المقدرة على صنع مركبة الحرب. كما كانت سبباً في إنشاء شبكات للمواصلات البعيدة براً وبحراً وقُلِبت أساليب نقل البضائع والأشخاص رأساً على عقب. وقد شاع استعمالَ هذا الاختراع الجديد في مستهل الألف الثالث قبل الميلاد من نهر الهندوس حتى نهر العاصي، وكانت العجلات كانت تتشابه صناعة وشكلاً مما يدل على انتشارها من مركز واحد مشترك. وقد وصلت عجلة الخزاف إلى حماة في سوريا وإلى جبيل في لبنان حوالي سنة ٢٨٠٠ق.م ووصلت إلى مصر في عهد بناء الأهرام.

والعجلة آلة بسيطة هي كناية عن قطعة خشبية مصقولة اخترعها سكان ما بين النهرين القدماء. وأول نوع من العربات كان نوعاً من المزلجة التي تنزلق على الأرض على ألواح خشبية مصقولة وقد عثر على مزلجة ملوكية من هذا النوع في قبر ملكة مدينة أور. وصنع عجلة قوية جيدة كان يستوجب استخدام آلات معدنية في صنعها. وهذا ما يعني ضمناً وجود حدَّاد اختصاصي للقيام بهذا العمل. هكذا بدأ عصر توزيع العمل والتخصص بعد ظهور الخزَّاف والنَّجار والمدَّاد. وأقدم الحدَّادين أولئك الذين ظهروا في مدينة أورك واسمها الحالي الورقاء، ويقترن اسمهم بصنع مركبات تسير على العجلات. ولأن صنع العجلات يحتّم وجود منشار، والمنشار لا يمكن صنعه من الخشب والحجر، ولأن استخدام النحاس والبرونز لم يكن متوفراً إلاَّ في المجتمعات المستقرَّة حيث تنتظم الأعمال والتجارة، ولأن استعمال المعادن والحجارة الكريمة كان مقتصراً في العصر الحجري الحديث على مظاهر الزينة والتبرج أو على أعمال السحر، فإن أهم وأقدم معدن، النحاس، كان فاتحة عصر المدنية. وقد وجدت ترسبات منه في أرمينيا وفي آسيا الصغرى وفي الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية وفي سيناء. وكان أوّل استعمال للنحاس في العراق القديم بين ٤٠٠٠ و٣٥٠٠ ق.م بعد ظهور صناعة الخزف. ولم يشع استخدامه قبل الألف الثالث قبل الميلاد، ولم يبلغ استخدامه أوروبا إلاَّ بعد انقضاء ألف سنة على استخدامه في الشرق الأدنى. ويرجَّح أن يكون تجار الشرق الأدنى هم الذين أدخلوه إلى أوروبا أثناء تفتيشهم عن معدن النحاس: ففي النصف الثاني للألف الرابع قبل الميلاد هاجرت أقوام من الشرق الأدنى من العرق الأرمني واستقرت في جزيرة كريت وفي بعض جزر إيجيه وأجزاء من بلاد اليونان ثم عبروا البوسفور وتوجَّهوا إلى أواسط أوروبا عبر وادي نهر الدانوب وحملوا معهم ما حملوه من عناصر حضارية كتدجين الحيوان والنبات. وكانت شعوب سامية من سورية أصلها من الجزيرة العربية قد هاجرت إلى وادي النيل حاملة معها عناصر الحضارة التي حملتها الشعوب الأرمنية إلى أوروبا.

أخيراً كان معدن البرونز فاتحة عصر جديد في الصناعة. وقد استعمله أهل سومر في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد. كما سهَّل استخدام الآلات والأدوات المعدنية أعمال الإنسان وزاد من كفاءته في العمل. وكانت الشعوب التي تستعمل أسلحة معدنية، في زمن الحرب، تتفوق على أعدائها الذين لم يكونوا قد تخلُّوا بعد عن الأسلحة الحجرية. وما كان باستطاعة الإنسان أن يشق الترع لري مساحات أكبر من أودية الأنهر وما كان له أن يبني سفناً تصل الخليج العربي بالبحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط ولا كان باستطاعته أن يشيِّد قصوراً فخمة للملوك وهياكل للآلهة لولا الأدوات المعدنية. ويعود الفضل في أعظم تقدم أحرزه الإنسان، في مضمار النقل - حتى ظهور الطائرة - إلى استعمال النحاس والبرونز والحديد وبعض المعادن الأخرى.

المدنيات الأولى

إن تطور الزراعة على مهل في العصور البشرية الأولى أثرَّ تأثيراً بعيد المدى على أحوال الإنسان وحياة

المدنيات الأولى

الشعوب. وقد تطلّب هذا التحوُّل عدَّة آلاف من السنين تتراوح بين عشرين ألف سنة في أكثر الحالات قدماً وثمانية آلاف من السنين في أكثرها حداثة. فقبل ذلك الحين كان الإنسان متوحشاً يعيش في مجتمعات صغيرة، قليل الكلام. وكان كلّ ما يملكه أشياء سهلة الحمل ويقضي حياته يقتنص الغذاء ويتبع الحيوانات المتنقلة سعياً وراء غذائها وتبعاً للفصول. كان حراً ومعوزاً وكانت حياته في خطر مستديم.

ثم بدأ الإنسان يزرع غذاءه قصداً ويحفظه وأخذ يرعى الحيوانات التي كان يصيدها ويحرس المكان الذي يجد فيه البذور والفواكه التي يكمل بها غذاءه من اللحم. وتحدد مجال تربصه لصيد الحيوان بسبب رعيه ماشيته وانتظاره المحصول حيث ألقى البذور. وتكاثرت آلاته. ثم إنه كان قد صنع البيوت واستحوذ على الممتلكات واستقر وارتاحت نفسه إلى العمل الدوري المنتظم واختزن الطعام وبدلاً من الوجبات القائمة على الصدفة والمغامرة أصبحت أوقات أكله منتظمة وأصبح يدّخر ما يستهلك بدل الاتكال على الصدفة والظروف المؤاتية.

قبل الاستقرار كانت تسيطر على حياة الإنسان مشاعر القلق والعناء ولم يكن يصنع أدواته إلاّ حين يضطر لذلك. وحدها النار كان يكلف أحد أفراده أن يسهر عليها لأن انطفاءها كان مشكلة خطيرة ومزعجة. ويرجَّح أن عبء الأعمال الثقيلة كان يلقى على عاتق النساء: فالرجل البدائي لم يكن صاحب شهامة وكانت النساء والبنات يحملن الأثقال حين كانت الجماعة الصغيرة تنتقل من أرض إلى أرض، بينما كان الرجال يسعون بأسلحتهم خفافاً وهم على أهبة لكل طارئة. وكانت العناية بالأطفال تلقى على كاهل النساء.

• المرأة البادئة بالزراعة:

ذهب البعض إلى الاعتقاد بأن النساء كن البادئات بالزراعة. وربما يكون هذا الأمر صحيحاً لأن جمعَ الأطعمة من حبوب وخضار كان منوطاً بهن بينما كان الرجال غائبين لاشتغالهم بالصيد. ثم إن المرأة هي أوّل من لاحظ أن الحب كان ينمو في مكان المخيمات القديمة، وكانت أول من نثر الحب عن قصد قرباناً لبعض ما تعبد من آلهة محلية اعتقاداً منها أنها ستعوضها عنها في ما بعد مائة ضعف.

وكانت أولى مراحل الزراعة مرحلة زراعة المحصولات السريعة الخاطفة

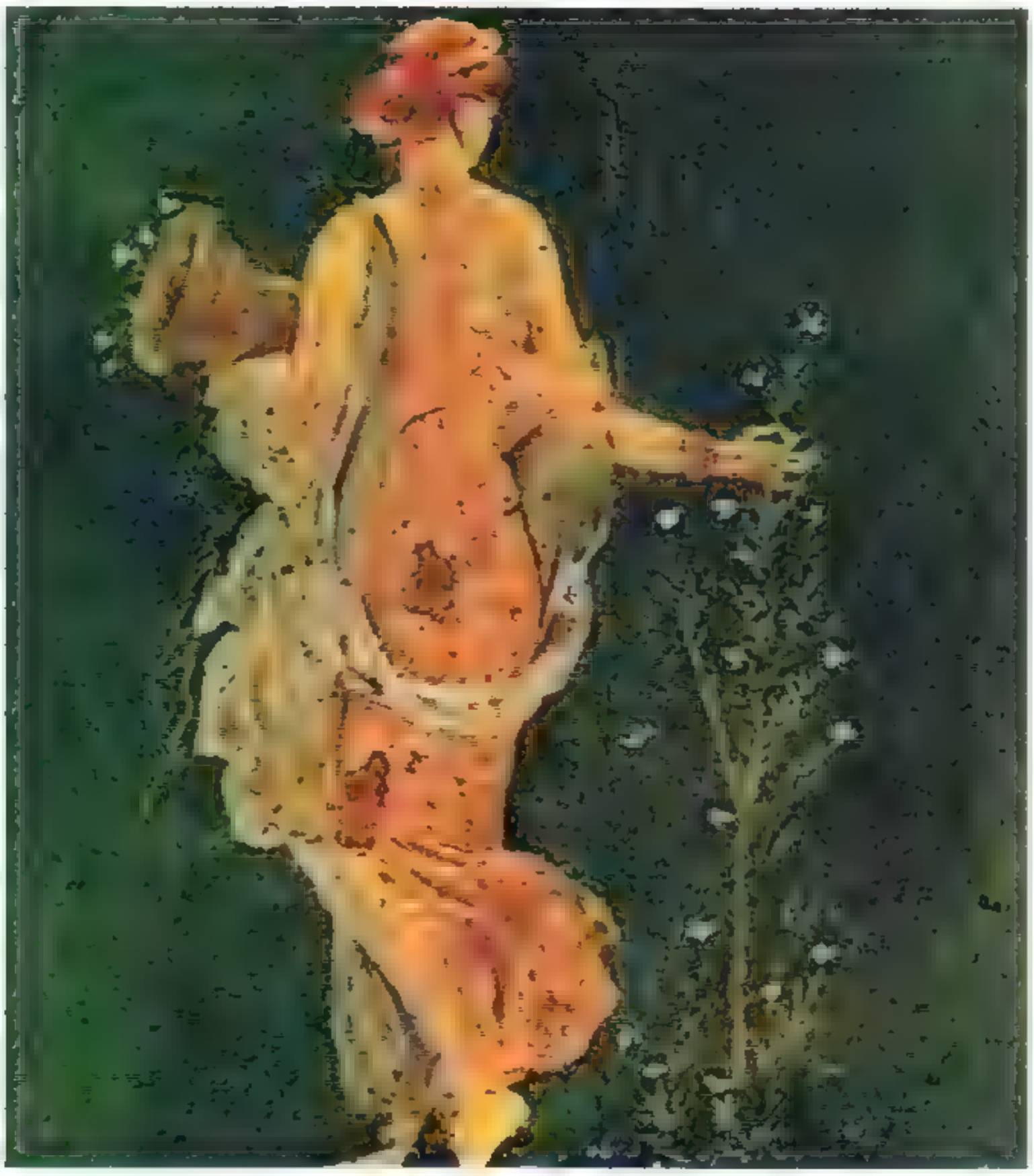

المرأة والزراعة

المدنيات الأولى

وكانت أقدم أنواع الزراعات غرس حدائق صغيرة المساحة باليد، وعلى الأرجح أنها كانت يد النساء، وكانت مورداً إضافياً للغذاء. ويسهل علينا أن نتصوَّر كيف لاحظ الناس، منذ عهد سحيق القدم، ميِّزات نثر البذور في أرض يغمرها الماء في أوقات دورية منتظمة. ويرى البعض أن الزراعة المنتظمة المؤطدة قد ابتدأت في مصر. وربما كان البذار المنتظم يتم في أول الأمر في الأراضي المغمورة بالمياه. وكان الانتقال سهلاً نسبياً من المياه التي تغمر الأرض إلى نظام الري.

وقد انتشرت زراعة القمح حتى وصلت بين المحيطين الأطلسي والهادىء. وربما جاءت قبل الميلاد بخمسة عشر ألف أو بعشرة آلاف من السنين، أي قبل ظهور تباشير المدنيَّة. فالمدنيَّة أمر يزيد كثيراًعن زراعة الحبوب عرصاً وفي موسمها المعين، فالمدنيَّة تعني استقرار الناس في مكان يزرعونه ويملكونه وعيش دائم في مسكن ما واشتراك في حكم واحد ومدينة أو قلعة واحدة.

● استقرار إنسان العصر الحجري الحديث:

كان أول شرط لازم لاستقرار إنسان العصر الحجري الحديث توافر الطعام في منطقة ما ووجود ماء يعتمد عليه على مدار السنة وعلف للحيوانات ومواد تلزم المنازل وكان عليه أن يؤمن كل ما يحتاج إليه في أي فصل من فصول السنة فلا يضطر للتجوال بعيداً عن مستقره. وهذه الحالة كانت متوفرة في كثير من الوديان الأوروبية والآسيوية ـ كما هو الحال مثلاً في مساكن البحيرات السويسرية حيث استقر الناس منذ عصر قديم جداً. ولكن التجمُّعات البشرية صمدت أكثر ما صمدت عاماً بعد عام، في مصر وفي القطر المحصور بين المياه العليا لنهري دجلة والفرات ومنطقة الخليج العربي:

وكان في الأقاليم المذكورة مورد دائم للماء لا ينضب وشمس ساطعة وكانت فيها محاصيل مضمونة سنة بعد سنة. فقد قال هيرودوت «إن القمح في أرض الجزيرة كان يجود على زارعيه بمئتين من أمثاله». وقال بليني «إنه كان يحصد مرتين وكان يصبح بعد ذلك علفاً طيباً للغنم». وكان هناك نخيل

المدنيات الأولى

كثير وفاكهة من أنواع شتى.

وكانت مواد البناء في مصر من الطين ونوع من الحجر سهل النحت، وفي أرض الجزيرة طيناً يجفّف في الشمس ويصبح لبناً.

وكفَّ الناس عن التجوال في هذه الأقاليم واستقرُّوا وتكاثروا وأصبحوا موفوري العدد وعلى جانب من المنعة، من جراء ذلك، وأبيدت الوحوش الضارية في مساحات مترامية وتضاعف اطمئنان الناس في حياتهم فأصبح الرجل العادي يخرج في المدن والحقول دون أن يثقل نفسه بالأسلحة وأصبحوا، في ما بينهم على الأقل شعوباً مسالمة واستقروا استقراراً لم يعرفه الجنس البشري من قبل.

● البداوة والترحل:

بينما استقر فريق من الناس وتكاثر في وديان الأنهار العظيمة، كان فريق آخر من شعوب أقل عدداً وأكثر نشاطاً يتطورون في جهات أقل خصباً وأكثر اعتماداً على الأحوال المناخية في مختلف الفصول. كان ذلك في غابات أوروبا وفي صحاري بلاد العرب وفي أراضي المراعي الموسمية في أواسط آسيا، وهؤلاء هم الشعوب الرَّحل.

عاش هؤلاء أحراراً وعرضة للمخاطرة. وكانوا، بالمقارنة مع الشعوب المستقرة رجالاً هزيلين جياعاً يختلط رعيهم بالصيد ويحاربون باستمرار جماعات، أو أسراً، تُغير على مراعيهم. ولكنهم لحقوا بالشعوب المستقرة من ناحية صنع الآلات واستعمال المعادن خاصة في العصر البرونزي وأصبحوا أكثر استعداداً للحرب بعد تحسين أسلحتهم وأقدر على سرعة الحركة بعد تحسين وسائل انتقالهم.

هذا لا يعني أن مرحلة البداوة والترحل قد سبقت مرحلة الاستقرار في الحياة البشرية. بل بدأ الإنسان أول الأمر يتنقل ببطء وراء طعامه، ثم أخذ قسم منهم يستقر معتمداً على الحبوب قوتاً له، وقسم آخر قضاها بين الترحُّل والبداوة معتمداً على اللبن غذاءً مهماً له. واختصَّت كل طريقة من طريقتي الحياة هذه بخصائص مناقضة لخصائص الأخرى.

وكانت الشعوب المستقرة تصطدم أحياناً بالشعوب المترحِّلة التي كان يبدو أفرادها بالنسبة لهم همجاً وقساة وكان المستقرون يبدون ضعافاً لينين يسهل على المترحِّلين اخضاعهم والسيطرة عليهم فحصلت احتكاكات وغارات على حدود المدنيَّات وحواشيها بين قبائل البدو والرحَّل والجبليين الأشداء وبين شعوب المدن والقرى، وهم أكثر عدداً ولكن أقل جلداً في الحرب.

وكانت الحروب في معظمها مجرَّد إغارات على الحدود. إذ كانت كفَّة المستقرين ترجح بسبب كثرة عددهم. لكن الرحَّل كانوا يغيرون عليهم وينهبون أحياناً كل ما يصادفون في طريقهم. وقد استمر هذا النوع من الاحتكاك عدة أجيال. ولكن ظهور زعيم قوي على الرحَّل الأحرار كان يرغم القبائل المتصلة به على الوحدة والتآلف، فيشكل خطراً على المدنيَّات القريبة منه. وأحياناً كانت إحدى القبائل تلعب دور الزعامة فينهال رجال القبائل المنضوية تحت لوائها على أهل السهول العزَّل وتحصل حرب غايتها الفتح. وبدل أن يحمل الفاتحون الأسلاب والغنائم وينصرفوا كانوا ينزلون في الأرض المغزوة ويأخذونها كلَّها غنيمة فيصبح أهل هذه القرى وسكان المدن عبيداً لهم يدفعون الجزية ويتحوَّلون إلى قاطعي أخشاب وحملة ماء ويصبح القادة الرحَّل ملوكاً وأمراء وسادة ويأتي دورهم في الاستقرار والتعلُّم من فنون المغلوبين أشياء كثيرة. ويتهذبون من تهذيبهم ويبعد عنهم الجوع والهزال، ولكنهم يحتفظون طوال أجيال بآثار من عاداتهم حين كانوا رحَّلاً: فيخرجون للقنص ويعكفون على ألعاب الهواء الطلق ويتسابقون ويعتبرون العمل الزراعي من نصيب الأجناس والطبقات الدنيا.

● السومريون:

السومريُّون شعب استولى على وادي دجلة والفرات بأكمله وفرض عليه نظامه الاجتماعي والديني وفرض عليه شرائعه ومختلف مؤسَّساته الفكرية.

وقد يكون السومريُّون أسبق الشعوب إلى تكوين مدن حقة في هذا الجزء من العالم. ومن المرجَّح أنهم

المدنيات الأولى

كانوا شعباً أسمر يستعملون نوعاً من الكتابة يخدشونه على الصلصال. وقد حُلت رموز لغتهم فإذا هي أقرب شبهاً بمجموعات اللغات القفقازية التي لا تنضوي تحت صنف معين من اللغات الموجودة الآن. وربما كان لهذه اللغة علاقة بلغة البشكنس وهي لغة كانت تتكوّن من مجموعة لغوية بدائية شائعة لاستعمال تمتد من إسبانيا وأوروبا لغربية إلى المنطقة الشرقية من الهند وتصل جنوباً إلى أفريقيا الوسطى.

وقد كشفت الحفريات التي قام بها الكابتن ر. كامبل طمبسون في إيريدو أقدم أسس المباني السومريّة: كانوا يحصدون محصولاتهم بمناجل من الفخار، ويحلقون رؤوسهم ويرتدون أردية بسيطة من الصوف تشبه الجلباب. وقد استقرُّوا أول الأمر في المجاري الدنيا للنهر على بعد غير كبير من الخليج العربي الذي كان يمتد آنذاك شمال رأسه بمائة وثلاثين ميلاً أو أكثر.

وكان السومريون يخصبون حقولهم بترك الماء ينساب عليها من جداول الري، ثم أصبحوا بالتدريج مهندسين للري في غاية الحذق والمهارة. وكانت لهم الماشية والحمير والضأن والماعز ولم يكن لهم خيول. وتضاعفت مجموعات أكواخهم الطينية فأصبحت بلداناً وأقاموا لدياناتهم معابد تشبه الأبراج في بنائها.

مبتكرات السومريين:

خرج السومريون بالبشرية من طور الهمجية ودخلوا بها عهد التمدن والحضارة. ومن منجزاتهم اختراعهم الكتابة المسمارية، والدولاب الذي أحدث ثورة عظيمة في وسائل النقل والصناعة. فقد ظهر الدولاب في بلادهم لأول مرة في التاريخ. أما في حقل الهندسة فقد أنجزوا الترع والأقنية المخططة بمهارة فائقة وحُفرت باتقان لنقل الفائض من مياه الفرات ودجلة إلى المناطق العطشى فحوّلت الصحراء إلى جنائن خضراء. ومن مبتكراتهم أيضاً اختراعهم المحراث الذي يحرث ويبذر في آن واحد وذلك بإضافتهم إلى المحراث العادي جهازاً يتألف من وعاء بشكل قمع مركّز في القسم الأوسط من المحراث ومنه يمتد أنبوب إلى أسفل. وعندما يشق المحراث الأرض برأسه الدقيق توضع الحبوب في القمع فتنزل حبة حبّة داخل الأنبوب إلى الأرض وتُطمر في الثلم الذي يكون المحراث قد خدّده. وهذا المبدأ عينه يطبّق اليوم في المحاريث الآلية الحديثة.

كما مارس السومريون بعض الصناعات الكيماوية فتعلّموا تقطير العطور وتركيب الأدوية وقد اكتشفت لوحة تعود إلى الألف الثالث وضعها طبيب سومري وسجّل فيها أكثر من اثنتي عشرة وصفة طبية لمعالجة الأمراض المختلفة. وشرح كيفية استعمالها وحدّد ما يؤخذ منها بالفم وما هو للاستعمال الخارجي. وسمّى المواد التي تتركّب منها تلك الأدوية ذاكراً القرفة والآس والصعتر والصفصاف والإجاص والتين والتمر والحليب وجلد الحيّة وصدفة السلحفاة، وذكر أخيراً الملح ونيترات البوتاس.

وكان تقويم السومريين مرتكزاً على الشهر القمري تبدأ فيه شهورهم بظهور الهلال الجديد، وتتألف سنتهم من اثني عشر شهراً، وكان نظام العد عندهم مبنياً على الوحدة «ستين» وعلى هذا الأساس جُعلت الساعة ستين دقيقة والدقيقة ستين ثانية وقُسمت الدائرة إلى ٣٦٠ درجة. وكانت «المينا» وحدة الأوزان عندهم تنقسم إلى ستين جزءاً يدعى الجزء منها «شاقلاً».

الكتابة السومرية:

ابتدأت الكتابة السومرية تصويرية ثم تطورت وأصبحت مقطعية. وكان السومريون يكتبون على ألواح من الطين الطري بأقلام من قصب أو خشب أو معدن. عندما كان يفرغ الكتّاب من الكتابة كان باستطاعتهم أن يمحوا ما كتبوه بضغط الطين وإعادة تسوية سطحه. أما إذا أراد أحدهم الاحتفاظ بما كتب إلى أمد طويل كان يعمد إلى شي اللوحة التي كتب عليها في فرن خاص فتتحوّل إلى آجرة قاسية لا تتفتّت. وعلى لوحات من هذا النوع دوّن السومريون أساطيرهم وملاحمهم ورسائلهم وصكوكهم ولوائح البضائع والأسعار. وتعود أقدم هذه اللوحات إلى حوالي سنة ٢٥٠٠ق.م. ومن أشهر ما وصل إلينا من تراث السومريين الأدبي ملحمة جلجامش. وترجمها إلى العربية الدكتور أنيس فريحة.

المدنيات الأولى

الكتابة السومرية

وقد شيّدوا في ينبور برجاً عظيماً لربّهم الأكبر إنليل، وربما لا يزال أثر هذا البرج باقياً في قصّة برج بابل. كما يبدو أنهم كانوا منقسمين إلى دول مدن كانت تنشب بينها الحروب وقد حافظت هذه المدن على مواهبها الحربية مدى قرون كثيرة، وكان جنودهم يحملون حراباً طويلة وتروساً ويحاربون في تشكيلات متراصّة. وكان السومريون يغزون بعضهم البعض. لكن سومر ظلت حقبة طويلة من الزمن دون أي غزو أجنبي. ونمّى السومريون حضارتهم وأدخلوا تحسينات على كتابتهم.

كان المجتمع السومري يتألف من سكان المدن وسكان الريف: وكان سكان المدن يقيمون في بيوت كبيرة مبنية بالطوب تتوفر فيها أسباب الراحة وكان أثاث بيوتهم والأدوات التي يستعملونها مصنوعاً من الحجر أو الخشب أو الأجر وقليل منها من المعدن. أما سكان القرى فكانوا يقيمون في بيوت صغيرة مبنية من اللبن والقصب وجذوع الأشجار وسعف النخل. وكان السومريون يبنون مدنهم وقراهم على تلال اصطناعية من التراب لكي ينجوا بأنفسهم من الغرق ويصونوا بيوتهم من الأنهيار عندما تفيض مياه دجلة والفرات. وكانوا يبنون أسواراً عالية وسميكة من الطوب حول المدن ويحيطونها بخندق مملوء بالماء لمنع العدو من الوصول إليها.

في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد هاجمت قبائل سامية قادمة من الغرب السومريين وأفقدتهم استقلالهم وسيطرتهم على سهل شنعار وانتقل الحكم إلى أيدي القادمين الجدد وابتدأت حضارة جديدة بالظهور هي الحضارة البابلية.

● البابليّون:

خلفت الحضارة البابلية الحضارة السومرية واستمرّت أكثر من ألف سنة وتقسم إلى أدوار زمنية ثلاثة:

١ ـ الدور الأكادي:

كان الأكاديون الساميون قوماً رحّلاً يعيشون على مشارف الصحراء السورية وينتقلون فيها من مكان إلى مكان آخر لتأمين الماء والعشب لقطعان الغنم والماعز والجمال التي كانت المورد الرئيسي لمعيشتهم. وكانوا متخلفين عن جيرانهم السومريين يعيشون في الخيام ولا يملكون من أسباب العيش

المدنيات الأولى

الحضارة السومرية البابلية

ووسائل الراحة والرفاه إلاّ الأشياء البسيطة وكانوا يجهلون الكتابة والعلوم والصنائع ولم تكن لهم زراعة أو تجارة متقدمة. باختصار كانت حياتهم أقرب إلى الهمجية والبربرية منها إلى الحياة المتمدنة المتحضرة.

وحين انتصروا على السومريين وجدوا أنفسهم بين أتباع لهم يفوقونهم حضارة وتطوُّراً فقلّدوا طرقهم وتعلموا صنائعهم واعتنقوا معتقداتهم وانصهروا في بيئتهم فكان ذلك نصراً عظيماً للحضارة السومرية على التخلف الأكادي. ومن أبرز مظاهر هذا الانتصار الحضاري أن الأكاديين طلقوا حياة البداوة والارتحال واستقروا في

المدنيات الأولى

المدن والقرى واستعاضوا عن الخيام بالبيوت المبنية من الطين والطوب، واقتنوا الأثاث والأدوات المنزلية، وتعلّموا طرق رعاياهم السومريين الزراعية والصناعية وطبقوا أساليبهم التجارية واقتبسوا عنهم التقويم السنوي والمقاييس والمكاييل والأوزان والنظام العددي، وقلدوهم في فن النحت وحفر الأختام وفاقوهم في هذه الصناعة ولا سيّما في الحفر في الصخر. وتعلموا منهم الإدارة الحكومية وضبط السجلات والحسابات وتنظيم الجيش وصنع الخوذ والتروس النحاسية والمركبات الحربية. وتأثروا بمعتقداتهم الدينية فآمنوا بآلهتهم ومارسوا طقوسهم وعباداتهم وشيّدوا الهياكل على منوالهم. كما اقتبسوا عنهم الكتابة المسمارية مع أنه كانت لهم لغتهم السامية ولكنها كانت محكيّة غير مكتوبة. وقد نتج عن هذا الاقتباس أمران هما: إن اللغة السامية دخلت طور التدوين لأوّل مرة، والكتابة المسمارية لم تعد محصورة بالسومريين وحدهم بل خرجت عن نطاقها الضيق لتصبح تدريجياً الطريقة الكتابية الشائعة التي تدوّن بها أحوال معظم الأمبراطوريات الكبرى في تاريخ الشرق القديم.

ولم يكن الآكاديون مجرّد آخذين منفعلين عن الحضارة السومرية بل كانوا كذلك مساهمين فاعلين: فقد أسهموا في بعض النواحي في تطوير الحضارة السومرية، فمن ناحية اللباس والتقاليد أقلع السومريون عن عادة الحفاء وحلق شعر الرأس وأصبحوا يتعلون الجلود ويتركون شعر لحاهم ورؤوسهم مسترسلة كالأكاديين. وحلّت اللغة النامية تدريجياً محل اللغة السومرية في المخاطبة والحياة اليومية ولكنها بقيت محافظة على مكانتها كلغة الأدب والدين والعلم.

وقويت في عهدهم سلطة الملك وازداد مقامه رفعة وانخفض نفوذ رئيس رجال الدين. كما كانت النظرة السياسية الأكادية أوسع مدى وأبعد طموحاً من النظرة السومرية: فالملوك السومريون كانوا قانعين بحكم ممالكهم المدينية المحدودة أما الأكاديون فقد طمحوا إلى تأسيس أمبراطورية واسعة تضم بلدان العالم القديم فكانت حملات سرجون الأوّل العسكرية وسيطرته على بلاد ما بين النهرين وسورية وأقسام واسعة من آسيا الصغرى تجسيداً لهذه السياسة. ومنذ عهد سرجون الأوّل حتى القرنين الرابع والثالث ق .م. أي على مدى حوالي ألفين من السنين كان نجم الشعوب السامية في صعود في كافة أنحاء الشرق الأدنى.

٢ـ الدور الأموري:

حين فقد شعب الأمبراطورية السومرية الأكادية قوته السياسية والحربية أخذت تغمرهم في الشرق فيوض جديدة من شعب حربي يسمّى «العيلاميين» وأتى الأموريون من الغرب. والعيلاميون شعب مجهول اللغة والجنس «فلا هم سومريون ولا هم أكاديون». وكانت عاصمتهم مدينة سوسة. أما الأموريون فهم من نفس الأرومة التي منها إبراهيم ونسله من العبرانيين وقد استقروا في مدينة كانت بادىء الأمر بلدة صغيرة في أعالي النهر تسمّى «بابل» وأصبحوا بعد مائة عام من الحروب أسياد كل أراضي الجزيرة وذلك في ظل حكم ملك عظيم اسمه حمورابي مؤسّس الأمبراطورية البابلية الأولى.

في عهد حمورابي أصبح الأموريون والأكاديون والسومريون شعباً واحداً له حضارة واحدة هي الحضارة البابلية. ولكن هذه الحضارة لم تكن في جوهرها إلاّ امتداداً للحضارة التي سبقتها. وكان المجتمع البابلي، كالمجتمعات السابقة، يتكون من ثلاث طبقات هي طبقة الأشراف، وطبقة الفقراء وطبقة العبيد ولم يتغيّر مركز المرأة تقريباً بل ظلت تتمتع بحقوق مدنية وسياسية واسعة.

ولم يبتكر حمورابي شيئاً جديداً في حقل الإدارة الحكومية ولكن حزمه الشديد وإدارته الصارمة وملاحقته الدقيقة للأمور الإدارية برهنت أن العبرة في التنفيذ وليس في وجود النصوص القانونية والأجهزة الإدارية: فقد كان يرسل التعليمات الخطية إلى عماله في الأقاليم ويطلب منهم أن يوافوه بالتقارير المسهبة عن أعمالهم وأحوال مناطقهم. وكانت تعليماته تتضمن المطالبة بالسهر على الأمن وإلقاء القبض على المجرمين وتنظيف الترع عند ترسّب الأتربة فيها وجباية

الحضارة الأشورية

الضرائب في مواعيدها، والنهي عن المحاباة وقبول الرشوة والإهمال والتقصير في إداء الواجب. وكان أسبوعهم سبعة أيام يعملون ستة ويستريحون في اليوم السابع ويذهبون إلى الهياكل للصلاة. واهتموا بتعليم بنيهم وبناتهم الكتابة والتهجية والرسم وبعض العلوم البسيطة الأخرى. وقد وجدت آثار مدرسة في أنقاض مدينة بابل من عهد حمورابي مكوّنة من عدد من الغرف المحيطة بساحة واسعة مكشوفة وقد وجدت فيها لوحات الآجر التي كان التلاميذ يكتبون عليها فروضهم المدرسية بالحروف المسمارية.

اقتصادياً، اهتم البابليون بتربية الماشية وأقاموا عيداً وطنياً لجزصوف الغنم واعتنوا بزراعة مختلف أنواع الحبوب والخضار والفاكهة وغيرها. وارتكزت صناعتهم إلى المواد الأولية الزراعية والحيوانية فصنعوا النسيج والجبن والألبان واشتهروا بصناعة البرونز الذي حلَّ محل النحاس. وعُرف الحديد في بابل في عهد حمورابي ولكن استخدامه كان محدوداً لقلّته وغلاء ثمنه. وازدهرت التجارة فكانت قوافل التجار ومراكبهم تجوب مناطق الأمبراطورية البابلية من الخليج إلى آسيا الصغرى ومن عيلام إلى شواطىء البحر الأبيض المتوسط. وكان التبادل التجاري يجري بالمقايضة أو بقطع من الذهب والفضة ذات أوزان معلومة. وكانت البضائع تختم باختام خاصة من الأجر.

لكن أكثر المنجزات الحضارية شهرة في هذا العهد هي مجموعة الشرائع المعروفة باسم «شريعة حمورابي».

وتعود هذه الشريعة إلى رغبة حمورابي في إقرار النظام والقانون والعدل بين الناس في امبراطوريته. فقد طلب إلى بعض حكماء بلاده وضعها. ولا شك أن هؤلاء قد اقتبسوا كثيراً عن الشرائع السومرية وانتهوا من عملهم بوضع مئتين وخمس وثمانين مادة تعالج جميع نواحي الحياة البابلية. وتنفيذاً لمشيئة حمورابي نقشت تلك الشريعة على عمود من حجر أسود كبير علوُه ثمانية أقدام وحفر في القسم الأعلى منه رسم حمورابي يتسلّم نص الشريعة من الإله مردوخ. وأقيم ذلك النصب في هيكل مردوخ بمدينة بابل. كما أمر حمورابي بإقامة أنصاب مماثلة في مدن ما بين النهرين ليطلع الشعب على الشريعة ويعمل بموجب نصوصها.

وقد عثر المنقبون على النصب الأصلي في خرائب بابل سنة ١٩٠١ وهو محفوظ الآن في متحف اللوفر في باريس. ومع أن شريعة حمورابي ليست أقدم شريعة وصلت إلينا إذ اكتشفت شرائع مدونة سابقة لها في السنوات الأخيرة، ولكنها تمتاز عمَّا سبقها بأنها وصلتنا بحالة سليمة كاملة تقريباً وبأنها أكثر تلك الشرائع توسُّعاً وشمولاً. فهي تكاد لا تترك أمراً من أمور الحياة البابلية إلاَّ وعالجته.

الحضارة الأشورية

كانت أشور في الدور الأول من تاريخها، الذي امتد أكثر من ألف وخمسمئة سنة، دولة ضعيفة، خضعت لسيطرة الدول القوية التي تعاقبت على بلاد ما بين النهرين وما حولها، كالسومريين والبابليين والحثيين والآراميين والميتانيين وغيرهم. ولم تشغل السياسة أهلها فانصرفوا إلى الاهتمام بشؤونهم الاقتصادية، وخاصة التجارية منها. وانتشر التجار الأشوريون في أسواق البلدان المجاورة وأسسوا جاليات دائمة في بعضها مثل كيليكيا وكبدوسيا حيث اكتشفت مناجم الفضة. وكانت، في الوقت نفسه، جاليات سومرية تقطن في أشور منذ سنة ٢٩٠٠ق.م. هذا الاختلاط الواسع الناتج عن السيطرة السياسية من جهة والتعامل التجاري من جهة أخرى مَكَّنَ الأشوريين من الإطلاع على حضارات الشعوب التي تعاملوا معها وحملهم على اقتباس أفضل ما وجدوا فيها. هكذا أخذوا من الحضارات السومرية والبابلية والحثية العادات والتقاليد والعقائد الدينية والكتابة المسمارية والأساليب التجارية والتقويم والنظام العددي والتنجيم والصناعات وفن البناء والأساطير وغيرها.

وشاء الأشوريون بعد قرون عدّة من

الحضارة الأشورية

الحضارة الأشورية

الخضوع للسيطرة الأجنبية أن يعيشوا أحراراً مستقلين. فقاوموا الاحتلال الخارجي أجيالاً وتصدُّوا للغزاة وردوُّهم عن بلادهم مرَّة بعد مرَّة، وهذا ما أكسبهم معرفة واسعة في الشؤون الحربية وأعدوا جيشاً غنياً بالتدريب العلمي والخبرات العسكرية. وما أن توفرت لهم القوة حتى انطلقوا حوالي سنة ١٣٠٠ق.م. يهاجمون الدول المجاورة لهم ويخضعونها الواحدة تلو الأخرى وتمكنوا أخيراً في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد من السيطرة على جميع بلدان الهلال الخصيب وعلى مصر وآسيا الصغرى وقبرص وأنشأوا أكبر امبراطورية كان الشرق قد عرفها حتى ذلك التاريخ.

وكان طابع نظامهم عسكرياً والملكية عندهم مطلقة استبدادية فردية. هذا النظام كان شديد المركزية الإدارية. وقد أنشأ الأشوريون أقوى جيش كان الشرق قد عرفه، مؤلف من كتائب الرماة والرماحة وحملة التروس والفرسان المدرّعين. وكانت الخدمة العسكرية إلزامية. كما أخذوا يجندون أبناء البلدان التابعة لهم ويضمون الجيوش المغلوبة إلى جيشهم. وكانوا أول من استعمل الحديد على نطاق واسع، لا سيمّا بعدما استولى سرجون الثاني على مملكة أوراتو في شرق آسيا واستثمر مناجم الحديد فيها. وكان الأشوريون أول من استعمل المنجنيق وأدوات الحصار الأخرى. وعرفوا أهمية الفرس فاستعاضوا به عن الحمار لجرّ المركبات الحربية. حتى أنهم بنوا في عهد سنحاريب أسطولاً بحرياً للخدمة في مياه الخليج وفي نهري دجلة والفرات والترع المتفرعة منهما وأسطولاً آخر في البحر الأبيض المتوسط ليواجهوا به المصريين.

إلاّ أن أبشع نواحي الحضارة الأشورية كانت معاملتهم البالغة القسوة لأعدائهم فكانوا ينهبون المدن المفتوحة ويدمّرونها ثم يحرقونها. وكانوا ينكلون بالأسرى من السكان المدنيين ويخضعونهم لبعض أساليب التعذيب والانتقام البربرية كسلخ الجلود وهم أحياء وجدع الأنوف وصلم الآذان وبتر الألسن وقطع الرؤوس وتعليقها على مداخل المدن. وكانوا يعاقبون سكان البلاد التي تثور عليهم بإجلاء جماعات كبيرة منهم وترحيلهم إلى بلدان أخرى في بقاع بعيدة من امبراطوريتهم الواسعة.

الحضارة الأشورية

ولم يختلف المجتمع الأشوري في تركيبته عن المجتمع البابلي من حيث عدد الطبقات والتشابه في البيوت والأثاث واللباس والطعام وغير ذلك. ولكنه اختلف عنه في بعض التفاصيل المهمة: إذ لم تمنح الشرائع الأشورية أية امتيازات ولم تنص على وجوب جعل العقاب من نوع الجرم «عيناً بعين وسناً بسن» وأصبح الرجل الأشوري أكثر قوة وتسلطاً وانخفض مركز المرأة وفقدت بعض الحقوق التي كانت تتمتّع بها في الحضارتين السومرية والبابلية وأصبحت تعتبر ملكاً للرجل له الحق في أن يحرمها الملك ويطلقها متى أراد وقد ابتدأت منذ ذلك الحين عادة الحجاب تنتشر في الشرق القديم حتى أصبحت تقليداً رائجاً في بعض حضاراته.

وازدهرت الفنون والعمران في القرون الأخيرة من حكم الأشوريين كالتي كانوا يزينون بها قصورهم وساحاتهم ومن أوسع مشاريع البناء شهرة ما جرى في عهدي سرجون الثاني وابنه سنحاريب فقد بنى سرجون في إحدى ضواحي نينوى (تدعى اليوم خورسباد) قصراً سماه «دار سرجون» وقد وصف بأنه كان أفخم وأبهى قصر شيّد في آسيا... كانت مساحة فنائه ضمن السور ميلاً مربعاً ويستوعب ثمانين ألف شخص، وكانت مساحة القصر نفسه خمسة وعشرين فداناً.

وفاق سنحاريب أباه سرجون في ميله إلى البناء والعمران فشيد القصور الضخمة والهياكل الضخمة في أشور ودار سرجون ونينوى التي اتخذها عاصمة له والتي أصبحت في أيامه وأيام خلفائه أجمل مدن بلاد ما بين النهرين وأكبرها فقد بلغ طول سورها على محاذاة نهر دجلة أربعة كيلومترات.

الحضارة الكلدانية

وأنشأ سنحاريب الحدائق والبساتين في نينوى وما حولها وغرس فيها الكثير من غريب الأشجار والنباتات التي جلبها من أطراف امبراطوريته الواسعة ومن بعض البلدان النائية الأخرى. ومن بينها نبات القطن الذي كان سنحاريب أول من جلبه من بلاد الهند إلى بلاد ما بين النهرين. وقد تميّز الأشوريون عن البابليين بأنهم كانوا يشيدون أسس بناياتهم والأقسام السفلية منها بالحجر ثم يكملون الأقسام الأخرى بالطوب.

وتعلّم الأشوريون من المصريين تلوين الآجر فصاروا يزخرفون ابنيتهم به. وما تجدر ملاحظته أن رسوم الفنانين الأشوريين التي تصور الإنسان جاءت جامدة باردة خالية من الانفعال والتعبير النفسي، أما الرسوم التي تمثل الحيوانات فقد بلغ التعبير فيها درجة عالية من البراعة والدقة والاتقان.

كما أقبل الأشوريون على تعلم صناعة الخط والكتابة وشاركهم ملوكهم وكبار بلادهم في هذا الميل: فقد كان أشور بانيبال يعتز بأن أباه علّمه الكتابة على الآجر وخرّجه في علوم زمانه بالإضافة إلى تدريبه على فنون الحرب وأساليب القتال. ولم يقتصر اهتمام الملوك بالعلوم عند حد تعلّم الكتابة بل تعدّاه إلى جمع الكتب وتأسيس المكتبات في قصورهم وأشهرها: مكتبة سرجون ومكتبة سنحاريب ومكتبة أشور بانيبال.

وتكلم الأشوريون اللغة الأشورية وكتبوها بالطريقة المسمارية لكنهم زادوا على الأشكال المسمارية السومرية الأصليّة ما يقرب من مئتي شكل جديد. لكن هذه اللغة بدأت، بعد سنة ألف ق.م، بالإضمحلال أمام غزو اللغة الآرامية. فالآراميون في سوريا اقتبسوا الحروف الأبجدية الفينيقية وكتبوا لغتهم بها واستعاضوا عن لوحات الطين بالحبر وورق البردى من المصريين. ولأن تجارتهم كانت منتشرة على نطاق واسع في بلاد أشور فقد تعلّم الأشوريون اللغة الآرامية.

وكان الاقتصاد الأشوري، حتى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، يرتكز على الزراعة والتجارة بالدرجة الأولى. فبلاد آشور أرض تتوفر فيها المياه من المطر والينابيع والأنهار الكثيرة المتفجرة من الجبال الشرقية الشمالية، وتكثر فيها الأودية الخصبة والتلال الخضراء ويسودها مناخ أكثر اعتدالاً من مناخ بابل، والبقر والغنم تسرح في المراعي الجبلية الواسعة. وكانت المزروعات والحيوانات تدر على الأشوريين خيرات وفيرة تؤمن لهم رزقهم.

وفي عهد الأمبراطورية والفتوحات الواسعة قُتِل كثيرون من المحاربين الأشوريين في المعارك وأجبر الآخرون على البقاء في الجيش فاهملت الزراعة وضعفت الصناعة وتحوّلت التجارة إلى أيدي التجار الآراميين الذين سيطروا على أسواق الأمبراطورية الأشورية. نتائج هذا الأمر الخطير لم تظهر بسرعة، إذ عوّضت غنائم الحرب والأسلوب والضرائب الباهظة التي كان الأشوريون يفرضونها على البلدان الخاضعة لهم نوعاً ما عن تلك الخسارة وأبقت على مظاهر البحبوحة والازدهار. ولكن ما أن تغيرّت الحال وانقلب ميزان القوى بظهور دول قوية تنافس السيادة الأشورية حتى شحّت الموارد الخارجية وانقطعت فأصيب الاقتصاد الأشوري بالانهيار.

أخيراً ولدت الفتوحات الواسعة التي قام بها الملوك الأشوريون في نفوسهم نزعة شديدة إلى السيطرة على جميع أنحاء العالم المعروفة لديهم وكانوا أول من نجح في تحقيق أمنيتهم هذه في الشرق الأدنى.

الحضارة الكلدانيّة

بلغت أشور ذروتها في المجد والعزة في عهد آشوربانيبال واحتلت نينوى مركزاً رفيعاً غير منازع وأصبحت سيدة مدن آسيا الغربية. لكن سقوط أشور كان سريعاً ومفاجئاً، فبعد انقضاء أربعة عشر عاماً على وفاة هذا الملك وجدت نينوى نفسها محاصرة من قبل جيش مختلط من ميديا ومن الكلدانيين. وهؤلاء الكلدانيون كانوا أصلاً طليعة هجرة ساميّة إلى الجزء الأسفل من العراق القديم يقودهم حاكم بابل الثائر نابوبالاسر الذي حاصر نينوى وثار على أسياده الأشوريين أما قائد جموع الميديين وهم ينتمون إلى الشعوب الهندو

الحضارة الكلدانية

ـ إيرانية التي كانت تقطن شمال غرب بلاد فارس ـ فقد كان سياكسار. وممَّا قوَّى الحلف بين الكلدانيين والميديين زواج نابوبالاسر بن نبوخذ نصَّر من ابنة سياكسار. وبعد مقاومة ضارية سقطت نينوى عاصمة أشور في يد الجيش المحاصر فخرَّبها وأزال معالمها. حصل ذلك سنة ٦١٢ق.م. وكان نصيب الكلدانيين في الميراث الأشوري جميع أراضي الهلال الخصيب. وتتألف من بابل وأشور وبعض أقاليم آسيا الصغرى الجنوبية وفينيقيا وسورية الآرامية وفلسطين. واحتفظ الكلدانيون بهذا الميراث واستطاعوا أن ينشروا الأمن في ربوعه بالرغم من بعض الثورات المحلية، كثورة مملكة يهوذا العبرانية في فلسطين. فقد مالأ العبرانيون المصريين واتفقوا معهم ضد الكلدانيين، فما كان من الملك الكلداني نبوخذ نصَّر إلاَّ أن هاجم مملكة يهوذا سنة ٥٨٦ق.م ودمَّر عاصمتها أورشليم وقوض الهيكل المعروف بهيكل سليمان تقويضاً كاملاً وأجلى قسماً كبيراً ممَّن نجوا من القتل من سكانها اليهود إلى بابل وأسكن مكانهم جماعات أخرى أتى بها من بعض الأقاليم النائية في مملكته.

وقد ورث الكلدانيون عن الأشوريين وغيرهم من أصحاب الحضارات السابقة في بلاد ما بين النهرين طرقهم وأساليبهم في العيش والحكم والحرب والدين والبناء والفن والاقتصاد وصناعة الأختام. فالحضارة الكلدانية كانت في الواقع امتداداً لتلك الحضارات وتجسيداً لأسمى ما بلغته من تقدم وازدهار.

لكن الكلدانيين لم يكتفوا بالاقتباس والتقليد بل إنهم ساهموا في بناء الحضارة العالمية عن طريق تطوير حضارتهم ذاتها، وإغنائها بمبتكرات عقولهم في بعض الحقول وخاصة علم الفلك. فقد اعتقد الكلدانيون بأن كل إنسان على وجه الأرض مرتبط مصيره ببرج من أبراج النجوم في السماء، وأن حياة ذلك الإنسان بكاملها يمكن معرفتها إذا ما عرفنا كيف كانت حال برجه وموقعه بالنسبة إلى النجوم الأخرى يوم مولده. ولكي تتوفر للمنجمين الحقائق المتعلقة بمواقع الأبراج وأحوالها، كان لا بد لهم من الأمعان في رصد الكواكب والنجوم والتدقيق في ملاحظة حركاتها وما يطرأ عليها من أحوال وتسجيل كل ما كانوا يتوصلون إليه من معلومات واستنتاجات بهذا الخصوص للرجوع إليها عند الحاجة. وقد استمر الكلدانيون في تدوين نتائج أرصادهم الفلكية طيلة ثلاثمئة وستين سنة متوالية ابتداءاً من سنة ٧٤٧ق.م. وهي أطول حقبة في التازيخ جرت فيها الأرصاد الفلكية ودوِّنت نتائجها دون انقطاع.

بالإضافة إلى تنظيم عملية الرصد الفلكي حقق الكلدانيون بعض المنجزات المهمة الأخرى في هذا الحقل. فقد تعمقوا في دراسة أحوال الأجرام السماوية وراقبوا أشكالها وتوزيعها واهتموا بقياس أبعادها وتقدير سرعة حركاتها في الفضاء. وتوصلوا إلى تقسيم النجوم إلى اثنتي عشرة مجموعة ودعوا كل مجموعة منها برجاً، ورسموا تلك الأبراج كما بدت لهم في قبة السماء تسهيلاً لأعمال التنجيم. ثم إنهم قسموا خط الاستواء إلى ٣٦٠ درجة كما استطاع أحد فلكييهم نابو ـ رمانو أن يحدِّد، حوالي سنة ٥٠٠ق.م طول اليوم والشهر والسنة بدقة كبيرة. فالسنة، حسب تقديراته، كانت تتألف من ٣٦٥ يوماً و٦ ساعات و١٥ دقيقة و٤١ ثانية. وهذا التقدير يتجاوز طول السنة الحقيقي بست وعشرين دقيقة وخمس وخمسين ثانية. كما أنه تمكَّن من تحديد مواعيد الخسوف والكسوف وبعض الظواهر الفلكية الأخرى. وقد اعتمد العلماء اليونانيون، في ما بعد على أبحاث الفلكيين الكلدانيين. وأقرُّوا لهم بالعلم والمعرفة.

وكانت آية آيات الكلدانيين في الفن والعمران مدينة بابل التي أعادوا بناءها بعدما دمَّرها الأشوريون: فقد اتخذوها عاصمة لهم وحاولوا إعادة عزها ومجدها السالفين، وبعد الملك نبوخذ نصَّر أخذ الكلدانيون يضعفون وانتهى عهد الخلق والإبداع وطرأ على حياتهم الفكرية ركود شديد وتحوَّل خطير. وصاروا يقنعون من الحياة بالعيش على أمجاد الماضي وبالتغني بمعجزات الأسلاف العظام. ثم ما لبث أن انتصر الفرس عليهم ناشرين حضارتهم الخاصة.

الحضارة المصرية

الحضارة المصرية

تقع مصر في شمال شرق أفريقيا وتشرف على البحر المتوسط وعلى البحر الأحمر في الشرق، وهي امتداد للصحراء الأفريقية الكبرى غير صالحة للسكن لولا نهر النيل الذي جعل منها واحة خصبة قال عنها المؤرخ «هيرودتس»: «مصر هبة النيل». تمتد غربها الصحراء الليبية الواسعة وشرقها الصحراء وسلسلة الجبال العربية. وبسبب موقعها هذا تبدو شبه منعزلة وآمنة لم تصل إليها الغزوات ولا قامت قربها دولة قويّة تهدِّدها. وهذا ما جعل المصريين يعيشون بهدوء واستقرار ويؤسسون حضارة راقية.

وقد استوطن الإنسان أرض مصر منذ القديم. لكنه عاش متنقلاً في الصحراء حين كان مناخها لطيفاً، إلى أن تغيَّر الطقس مع الزمن فتجمَّع السكان في وادي النيل واستقروا وعرفوا الزراعة ودجنوا الحيوان منتقلين بذلك إلى الدور النيوليتي. في تلك المرحلة كانت البلاد مجزأة وشكل الحكم فيها بدائياً، إلاَّ أن المصريين تعاونوا وتوحدوا تدريجياً لمواجهة فيضان النيل. وهكذا أصبحت مصر في مطلع الألف الرابع تتألف من مملكتين: الأولى جنوبية وعاصمتها هيراكونبولس والثانية شمالية وعاصمتها بوتو. بعد ذلك، وحوالي سنة ٣٢٠٠ق.م تمكَّن أحد

مصر أيام الفراعنة

الحضارة المصرية

الفراعنة

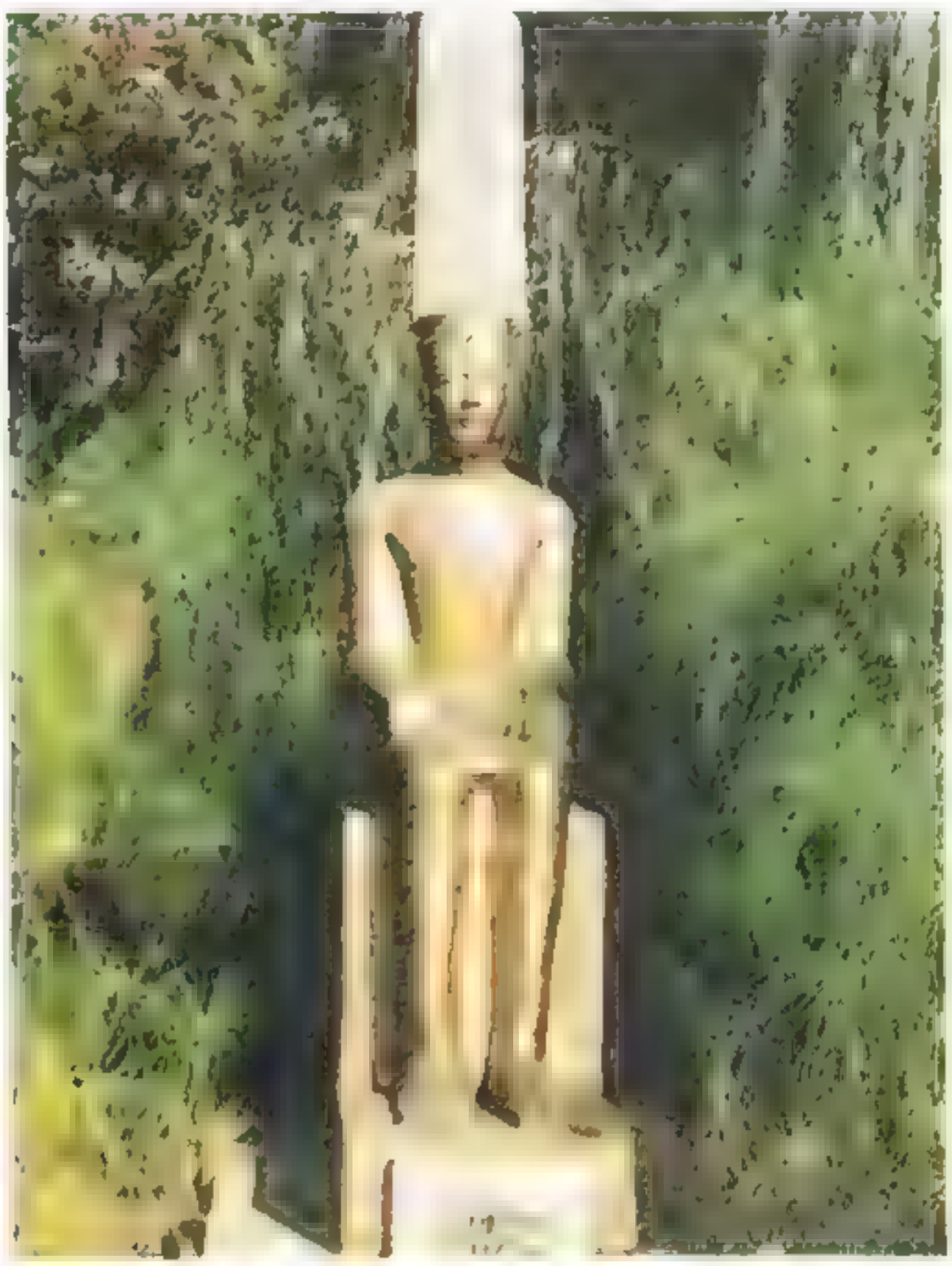

آمون

ملوك الجنوب ويدعى «نارمر» أو مينا من توحيد البلاد. وتخلده لوحة تمثّله ذات وجهين: الأوّل لابساً فيه تاج الجنوب الأبيض والثاني تاج الشمال الأحمر.

مع «نارمر» أو مينا يبدأ تاريخ مصر القديم، ويقسمه المؤرخون إلى أربعة أدوار حكمت خلالها ثلاثون أسرة. وهذه الأدوار هي:

١ ـ عهد الدولة القديمة ويمتد من ٣٢٠٠ق.م إلى ٢١١١ق.م. فيه جعل ملوك الأسرتين الأولى والثانية عاصمتهم تنيس، ونقلها ملوك الأسرة الثالثة إلى ممفيس. وقد استمر ازدهار هذا العهد حتى الأسرة السادسة. وقد ازدهر في ذلك العهد البناء، خاصة بناء الإهرامات، في عهد ملوك الأسرة الرابعة خوفوا وخفرن ومنكورع. كما تاجر المصريون مع النوبة والفنيقيين وأهل بلاد ما بين النهرين. في عهد الأسرة السادسة حلَّ الفقر بمصر وحدثت ثورات سياسية واجتماعية كبرى بدَّلت بعمق المفاهيم الاجتماعية وحسَّنت وضع عامة الشعب.

٢ ـ عهد الدول الوسطى: ويمتد من ٢١١١ق.م حتى ١٥٨٦ق.م. أسّس الدولة الوسطى ملوك الأسرة الحادية عشرة وجعلوا طيبة عاصمتهم وأعادوا وحدة البلاد وازدهارها، مجدِّدين التجارة مع الخارج وخاصة مع الفنيقيين. في ذلك العهد عرفت مصر نشاطاً فنياً واعتنت ببناء المعابد والفنون الدقيقة، مثل صناعة الحلى والآنية. وظهرت القصة نوعاً أدبياً جديداً. هذا

الحضارة المصرية

الازدهار لم يدم طويلاً إذ تعرّضت مصر لغزوات الهكسوس وهم مزيج من الشعوب يغلب عليهم الطابع السامي. وقد دخلوا مصر في أواسط القرن الثامن عشر قبل الميلاد وأدخلوا معهم الخيل والعربات وجعلوا عاصمتهم إحدى مدن الدلتا أفاريس. وظلوا في مصر إلى أن انتصر عليهم ملوك طيبة واحتلوا عاصمتهم سنة ١٥٨٠ق.م. وأخرجوهم من البلاد.

٣ ـ عهد الدولة الحديثة: ويمتد من ١٥٨٠ق.م إلى ١١٠٠ق.م ويبدأ هذا العهد مع الفرعون أحمس الأوّل الذي طرد الهكسوس وأسّس الأسرة الثامنة عشرة. وفراعنة هذه الأسرة قاموا بأعمال عظيمة خاصة تحوطمس الثالث (امتد حكمه من ١٤٨٣ق.م إلى ١٤٥٠ق.م) وقد لقّبه المؤرخون بنابوليون مصر، إذ انتصر في مجدو، شمال فلسطين، وبسط نفوذه حتى الفرات وتوسّع نحو الجنوب.

وفي عهد الدولة الحديثة حصلت ثورة أخناتون. فقد عظم نفوذ كهنة معبد آمون في طيبة حتى دعا الفرعون «أمينوفيس الرابع» إلى عبادة قرص الشمس باسم أتون وأطلق على نفسه لقب أخناتون. وأنشأ عاصمة جديدة في تل العمارنة (بين ١٣٦٤ق. م و١٣٥٠ق.م) ونقل إليها سجلات الدولة، ومنح الفكر في مصر اتجاهاً جديداً تميّز بالميل إلى الطبيعة وحرية التعبير والواقعية في الفن والأدب. لكن الكهنة قادوا ثورة ضده وانتصروا وأجبروا خليفته على العودة إلى عبادة آمون فأطلق على نفسه لقب «توت عنخ آمون».

لكن تطوّر السياسة في الشرق أثّر في مصر. فقد قوي الحثيون في آسيا الصغرى وتمكنوا في عهد ملكهم شبليوليوما (١٣٨٠ق.م ـ ١٣٤٦ق.م) من استغلال الثورة الدينية في مصر للسيطرة على شمال سوريا. وانقسم الفنيقيون بين مؤيد لهم في أرواد وصيدا ومحبّذٍ لمصر في جبيل وصور. وظل الخطر الحثي يدهم مصر حتى قامت الأسرة التاسعة عشرة، بين سنة ١٣٢٠ق.م. و١٢٠٠ق.م، ونظم أحد أكبر ملوكها رعمسيس الثاني جيشاً اجتاز به الساحل الفينيقي وخلّد ذكره في نقش على صخور نهر الكلب سنة ١٣٩٤ق.م وأوقف الزحف الحثي على العاصي، بمساعدة فرقة فنيقية، في معركة قادش.

بعد ذلك تبدّلت السياسة في الشرق، فعظم نفوذ الأشوريين في شمال العراق وشكلوا ضغطاً على الحثيين. وخرجت من بحر إيجه شعوب غزت الشرق على دفعات، عُرفت «بشعوب البحر»، وضغطت على مصر وفلسطين وآسيا الصغرى، فأجبر المصريون والحثيون على التفاهم وعقدوا ما بينهم أول معاهدة في التاريخ، سنة ١٢٧٨ق.م. واستمر السلم في الشرق حتى سنة ١٢٣٢ ق.م وعمّ الرخاء الاقتصادي وبلغت الحضارة المصرية ذروتها في الرقي والنضوج والاتزان. وبنيت المعابد واتخذت المقابر شكلاً هندسياً جديداً في وادي الملوك.

٤ ـ عهد الانحطاط: ضعفت مصر بعد رعمسيس الثاني وضعفت سلطة الملوك، واستقل حكام المقاطعات وقامت دويلات منفصلة وغزت مصر شعوب غريبة. فانتهى الاستقلال المصري وتوقف العطاء الحضاري الفرعوني الذي دام حوالي أربعة آلاف سنة.

وكان المصريون يتكوّنون من طبقتين رئيسيتين: المميزون ويشكلون ٣٪ من السكان، وعلى رأسهم الملك وحاشيته، ومنهم الوزراء والموظفون والكهنة وقادة الجيش وعامة الشعب وتشكل أغلبية السكان الساحقة، أي ٩٧٪ وهي فقيرة إجمالاً عميقة الإيمان، قنوعة، متقشفة شديدة الطاعة للرؤساء، قابلة بحياة بسيطة من حيث المأكل والملبس والمسكن. ولم يخل المجتمع المصري من الرقيق ومعظم أفراده من الغرباء، أي لاجئين وأسرى حرب. وكان يتوصّل البعض منهم إلى افتداء نفسه وقد بلغ بعضهم مركزاً مرموقاً.

وكان المصريون أعمق الشعوب إيماناً. فقد اعتقدوا أن الآلهة أوجدت الأرض ومن عليها وأنها هي التي تنظم الكون وتسهر على مسيرة الحياة وديمومتها. وقد أخلص المصريون للملك لأنهم كانوا يعتبرونه إلهاً منذ تتويجه. وكان لكل مدينة ولكل إقليم إله خاص لا بل آلهة. فإذا انتصرت

الحضارة المصرية

مدينة فرضت آلهتها. وقد سيطر في عهد الدول القديمة فتاح ورع إله الشمس، وفي عهد الدولة الوسطى آمون إله طيبة واقترن نفود إله الشمس باسم آمون، بتأثير من الساميين فأصبح أمون رع. كما استمرت عبادة الآلهة الحيوانات مدة طويلة واشتركت بمميزات البشر: فأمون مثلوه بالكبش وفتاح بالثور وأنوبيس بالثعلب وحورس برأس الثعلب وحاتور بجسم امرأة ورأس بقرة. أما الآلهة الحيوانات فكان منهم التمساح والهرّة والكلب والضفدع وكانت الخنافس تمثل الخير والشر.

ولأن المصري كان يشعر بضعفه أمام الكون الواسع فقد عبد آلهة خارقة القوة مثل الشمس والسماء والقمر والأرض، وآلهة تجسّد قوى الطبيعة ونشاط البشر كإله النيل وإله المنزل وإله الحبوب وإله الحكمة. وفي عهد الدولة الحديثة قام أخناتون بانقلاب ديني فجعل الشمس إلهاً واحداً وجعل شعارها قرص الشمس. لكن كهنة آمون عارضوه وانتصروا عليه. إلاّ أن حركة أخناتون تركت أثرها البالغ في حياة مصر السياسية والحضارية وجعل المصريون للآلهة عائلة كالبشر: فكان الأب أوزيريس وزوجته إيزيس وابنهما حوروس. وكان لهذه العائلة شعبية كبيرة وحيكت حولها الأساطير التي تعبّر عن نفسية المصريين ومفهومهم الديني.

وآمن المصريون بالحياة الثانية وبالخلود واعتبروا أن لكل مخلوق، إنساناً كان أم حيواناً قرين هو «الكا» (Ka)، وهو كناية عن صورة مصغرة لصاحبها تظل حيَّة وسعيدة ما دام الجسد محفوظاً من الفساد. وكان المصريون يعتقدون بأن الخلود من نصيب الذين يشملهم عطف الملك وسيشكلون الحاشية في الحياة الثانية. وقد امتد هذا الأمل، بعد الثورة الاجتماعية في عهد الأسرة الخامسة، فشمل الأغنياء ثم تدريجياً عامة الشعب. فأصبح شغل المصري الشاغل في حياته تأمين تحنيط جثته وقبر آمن وأدوات جنائزية تلزمه للحياة الثانية. وهذا ما جعل الزواج واجباً لإنجاب الأولاد الذين يؤمنون مراسم الدفن. وقيل في ذلك الوقت بأن محاكمة الروح تجري أمام أوزيريس فإذا رجحت كفة الحسنات نعمت بالخلود وإذا رجحت كفة السيئات كان نصيبها الفناء.

هذا الإيمان بالخلود جعل القبر بالنسبة للمصريين القدماء مسكن الميت الأبدي. فاعتنوا بالقبور عناية عظيمة وزوّدوها بكل ما يحتاج إليه الميت من طعام وشراب ومتاع ونقشوا رسوم هذه المدّخرات كلها على جدران القبر اعتقاداً منهم أن في ذلك ما يغني الميت عن القرابين نفسها، وأن أداء الصلوات وتلاوة الأدعية الدينية كفيلان بتحويل تلك الرسوم إلى أشياء حقيقية. ولأنهم كانوا يخشون أن تفسد جثة الميت برغم تحنيطها أو أن يسرقها اللصوص أو يشوّهوها فلا تجد الروح مكاناً تفزع إليه، فقد دأبوا على نحت تماثيل للميت ونصبها في مكان أمين ونقش اسمه عليها حتى إذا فني الجسد الحقيقي عرفها «الكا» وحلَّ في هذه التماثيل.

وقد بنى المصريون المعابد الكبيرة ونحتوا التماثيل وقاموا بالاحتفالات الدينية وقدّموا الذبائح للآلهة والهدايا الكثيرة. وكان لرجال الدين دور واسع في المجتمع. وكانوا يقدّمون الضحية وفق الطريقة التالية: يذهبون بالحيوان الموسوم إلى المذبح حيث يضحون ويوقدون ناراً ثم يسكبون خمراً على المذبح فوق الضحية ثم ينحرونها مبتهلين إلى الإله. وبعد ذبح الضحية يقطعون رأسها ويسلخون جسمها ويمطرون الرأس بوافر لعناتهم، وهذا مدلولها: «إذا كان هناك خطب سيحل بالمضحين أو بمصر فلينزل على هذا الرأس». ثم كانوا يحملون الرأس إلى السوق إذا كان هناك يونانيون ليبيعونهم الرأس، وإذا لم يكن هناك يونانيون كانوا يلقون بالجثة في النهر.

يصعب على الباحثين تصنيف منتوجات مصر الزراعية والصناعية، لكن الآثار تدل على أن الملك وكهنة المعابد كانوا يملكون معظم مصادر الثروة الزراعية والصناعية. مع أنه كان هناك استثمارات فردية يقوم بها ملاّكون مزارعون وأصحاب الحرف.

وكانت الزراعة مورد عيش الشعب المصري الأوّل. فواقع مصر الجغرافي جعل منها بلاداً زراعية، فمناخها دافىء وأرضها خصبة ونهرها غزير يفيض في فصل الصيف واليد العاملة كثيرة

الحضارة المصرية

الزراعة الفرعونية

والعمل في الأرض سهل لا يتطلَّب جهداً كبيراً بل مجهوداً بسيطاً وأدوات بدائية لتأمين عيش الفلاح.

وقد عرف الفلاح المصري المعول والرفش والمجرفة ومنجل الحصاد والمذراة والغربال والسلال والأواني الفخارية وأهراء الحبوب. كما عرف المحراث والشادوف، وهو وسيلة بدائية للري. وكانت الدولة تؤمن الأقنية: فقناة بحر اليوسف لري الفيوم حفرها الفراعنة.

وكان انحسار الماء عن الأرض إيذاناً عندهم ببدء العمل الزراعي: فكانوا يحرثون الأرض بمحاريث من الخشب تجرها الثيران ويفتتون ما على سطحها من كُتل طميّة أو غرينية بفؤوس اخترعوها لهذا الغرض. وبعد إتمام إعداد الحقل للزراعة على هذا النحو كانوا يقومون بعمليّة البذر تحت إشراف موظف مسؤول هو «كاتب الحبوب».

وقد عرف المصريون القدماء كثيراً من المحاصيل الزراعية كالقمح والشوفان والشعير والفول والعدس والحمص والترمس والذرة والبرسيم والكتان والخيار والشمَّام والبصل والكرّات والليمون وغيرها. كما عرفوا العنب والتين والنخيل وورق البردي الذي كان له شأن مهمّ في صناعة الورق.

كما عرف المصريون البقر والغنم والحمير والكلاب. ولم يعرفوا الحصان إلاّ في عهد الهكسوس. بينما ظل الجمل مجهولاً عندهم حتى عهد اليونان. وكان الفلاح المصري مولعاً بصيد السمك في البرك والأنهار والبحر. وقنص الطيور لم يعرفه المصري حتى عهد الدولة الحديثة حين عاد تحوتمس الثالث من إحدى حملاته في الشام حاملاً أشياء كثيرة ومخلوقات عجيبة من بينها طيور تبيض كل يوم بيضة.

وكان الفلاح المصري إنساناً قانعاً، قليل التبصر، حاد الطباع، لا يتحكَّم بغضبه، خفيف الروح، يحب السرور وقادراً على القيام بأي عمل مهما شق. لكنه لم يكن يصبر على المجهود الطويل. وكان يعيش دائماً مع الطبيعة

وكان الفلاح المصري القديم عبداً من عبيد الأرض أي أنه كان مرتبطاً بها ارتباطاً لا انفصام له. وكان ينتقل معها من مالك إلى آخر وكأنه جزء منها وكان إذا قصرَّ أو أهمل واجباته يعاقب بالجلد من غير رحمة ولا استبقاء. ولم يكن عمله يقتصر على الحقل وحده. بل كان في موسم الفيضان، أي حين يكون العمل في الحقل متعذراً، يعمل في خدمة الملك أو حاكم الولاية التي ينتمي إليها فينقل الحجارة التي يقطعها العمَّال من المحاجر إلى حيث يريد هذا الملك أو ذاك الحاكم أن يبني مقبرته أو معابد آلهته.

الحضارة المصرية

يعتمل في نفسه الغموض وحب الخرافات المتعلقة بالنبات والحيوان. وكان نحيف الجسم قليل التغذية يعمل كثيراً ويتناول أجراً ضئيلاً من المحاصيل. وكان على شفا الهلاك من الجوع أيام الشدة في السنة، أي قبل نضوج محاصيل الخريف، وقد جعلته المجاعات وانتشار الطاعون التي كانت تحدث من وقت لآخر، يشعر أنه فريسة خطر فجائي لا يعرفه.

وكان الحديد في أرض مصر شبه مفقود، فلم يعرف المصريون استعماله قبل القرن الثاني عشر ق.م. لكن مصر كانت غنية بمقالع الحجارة ومناجم النحاس والفضة والذهب والحجارة الكريمة، وكلها في سيناء. لكن استخراجها كان بيد السلطة التي كانت وحدها تملك القدرة على ذلك.

ولم تكن أخشاب مصر من النوع الجيِّد إذ كان فيها الجَّميز والنخيل والأثل والسنط. فكانت تستورد الأخشاب من الخارج. خشب الأرز من فينيقيا ومن السودان.

وقد قامت أفضل الصناعات على المواد الزراعية، فقد استخرجوا الخيوط من الكتان والقطن ونسجوا الأقمشة وتفننوا بها، وعرفو النول. ونسجوا الحصير وفتلوا الحبال وصنعوا السلال وورق الكتابة من ورق البردى ومن قضبانه وورقه صنعوا السفن. كما صنعوا الحصير والسلال من قش النخيل. وطحنوا الحبوب وصنعوا الخبز وصنعوا البيرة من الشعير والخمر من العنب.

أما من جلود الحيوانات فقد صنعوا الدروس وعدَّة الحصان والجعاب والإرب لحفظ السوائل وبعض الألبسة وأغطية الكراسي والأحذية والسيورة. وصنع النجارون من الأخشاب الأثاث الجميل وحفروا بعضه والأبواب والسفن وحفروا الخشب وطعَّموه بالعاج أو بالحجارة الملوَّنة كما عالج المصريون بعض المعادن كالحديد والنحاس والمعادن الثمينة وصنعوا الأسلحة والأدوات المختلفة والآنية والتماثيل. وقد اشتهروا في معالجة الحجر للبناء أو لصنع الآنية والتماثيل.

واشتهر المصريون كذلك بصناعة الفخار والزجاج، فكانوا أوَّل من صنع الجرار والقدور والصحون والأقداح والخوابي ولوَّنوا بعضها وصنعوا من الزجاج الآنية والعقود والتماثيل.

ولأن النيل كان بمثابة طريق طبيعية تخترق مصر من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال وكان منفذها إلى البحر، فقد استخدمه المصريون القدماء في

صناعة الذهب

الحضارة المصرية

تجارتهم الداخلية فكانت ترع النيل تغص بالقوارب والسفن التي تنقل البضائع والسلع إلى مختلف الأسواق.

وقد احتكرت الدولة التجارة الخارجية والسفن الكبيرة الصالحة للعمل في البحار. هذه السفن كانت تقصد لبنان وسوريا بصورة خاصة محمَّلة بالمنتجات المصريَّة وخاصة ورق البردي والكتان وتعود منها حاملة النحاس وخشب الأرز. وكانت لهذه السفن جولات واسعة في البحر الأبيض المتوسط وعلاقات تجارية مع قبرص ورودس وكريت.

كما تاجرت مصر مع السودان والنوبة وليبيا وبلاد ما بين النهرين واليونان وآسيا الصغرى والجزيرة العربية. وقامت تجارتها في الأصل على المقايضة. ثم ما لبث المصريون أن استخدموا حلقات من الذهب والنحاس ذات وزن ثابت فكانت هذه الحلقات، كما يقول بعض البَحاثة، أوَّل عملة عرفها التاريخ، كما استخدم المصريون أوزاناً من الحجر وعرفوا كل مستلزمات التجارة والمعاملات من دفاتر الحساب والعقود. وهذا ما جعلهم يحتاجون إلى طائفة من الكتَّاب حذقوا في الكتابة وبرعوا في المحاسبة.

وقد فرض الملك الضرائب. فكان الحكام في المقاطعات يشرفون على المواسم ويأخذون حصة من الغلال ويرسلونها إلى الملك. وهذه الضرائب كانت تتوقف على علاقات الموظفين الشخصية بالفلاحين وعلى قوَّة الملك. هذه الغلال كان يجمعها الملك في أهراءات يبيع قسماً منها في الداخل ويصدِّر قسماً آخر إلى الخارج ويوزِّع منها، عند الحاجة، على المحتاجين. وهذا الدخل مع كمية الذهب وغيره من المعادن الثمينة شكلَّ موازنة الملك.

وعرف المصريون عدداً من العلوم ومنها:

الطب والجراحة: كان الطب المصري القديم، في أول الأمر، مزيجاًمن العلم والسحر، وكان كل دواء من أدويتهم يقترن، تقريباً، بتعاويذ سحرية. ولأن المرض كان مفروضاً من الطبيعة حسب اعتقادهم، وأيام السنة تنقسم إلى أيام خير وأيام شر يرتبط بها مصير الإنسان ويرتبط بها الدواء، فإنه يكون مفيداً يوم السَّعد ومضراً يوم النحس.

ومع الأيام خطا المصريون خطوات واسعة في مجال الطب ونشأت معاهد خاصة لتخرج الأطباء. حتى أن المؤرخ هيرودوتس قال: «إن المدارس الطبية في مصر بلغت منتهى الشهرة والسمعة الطيبة» وقال: «إن فن الشفاء في مصر كان مقسَّماً إلى أقسام يختص كل طبيب بقسم منها: فكان هناك طبيب العيون وطبيب الرأس وطبيب الإمعاء وطبيب الاضطرابات الداخلية».

واعتنى المصريون بالجراحة وبلغوا فيها القمة، وتركوا لنا مؤلفاً مهمّاً في الجراحة وضعوه على أساس علمي صحيح، وهو شاهد على أن الجرَّاحين المصريين شخَّصوا كثيراً من الحالات تشخيصاً صحيحاً وعرفوا طريقة علاجها. وقد ساعدهم في ذلك التحنيط وتشريح جثث الموتى والتعرُّف إلى ما في داخل الجسم.

التحنيط: لأن المصريين آمنوا بأن الإنسان يرجع إلى الحياة ثانية إذا حُفِظ الجسد من الفساد، توصَّلوا إلى طريقة لتحنيط الأجساد وكانت لهم معامل تقوم بهذا العمل تنتزع الغدد الداخلية وبعض الأوعية وتغسل الجسم بالبوطاس لعدَّة أيام ثم تضع عدداً من الصموغ ومواداً ما زالت مجهولة وتلف الجسم بالقماش. وكانت لهم طرق عدَّة للتحنيط. وما تزال المومياء المصرية حتى اليوم تحافظ على نضارتها وما زالت المواد المستعملة سراً.

اختراع الحبر والقلم والورق: لم يكتف المصريون باستنباط أقدم أبجدية في العالم بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك فاخترعوا أدوات الكتابة من حبر وقلم وورق... فالحبر قد صنعوه عن طريق مزج الماء بشيء من الصمغ والسناج، وهو أثر دخان الحطب في أسفل القدر. والقلم اتخذوه من قصب كانوا يبرونه ويغمسونه في ذلك الحبر البدائي. أما الورق فقد كتب المصريون على ورق النبات إذ جعلوه قطعاً رقيقة مستطيلة، فكان أفضل من الكتابة على الخزف أو العظم أو الخشب. هكذا راحوا يكتبون على ورق نبات البردي بعد تقطيعه على هذا النحو وبعد إلصاق حاشية القطعة الواحدة منه بحاشية

الحضارة المصرية

القطعة الأخرى ليصبح طلحيّات كبيرة.

وقد احتاج الشعب المصري، منذ نشأته، إلى الكتابة ليحفظ أفكاره وينقل أوامر الملك دون تحريف.

والكتابة المصرية مرّت بمراحل عديدة: بدأت تصويرية بحيث تدل الصورة على الشيء بالذات، ثم أصبحت تعني العمل الناتج عن الشيء. فصورة الأذن، مثلاً، تعني السمع، أو تعني الصفة الملازمة للشيء. فصورة لأسد مثلاً تعني القوة والشجاعة. ثم أرفقوا الصورة بأشكال توضيحية تدل على العدد أو الشكل فإذا رسموا رجلاً أوضحوا العدد أو المركز في المجتمع. ثم توصلوا إلى تصوير أسماء العلم والأشياء غير المرئية والأفكار المعنوية كالقوة والروح مثلاً. تتقطع الكلمة إلى مقاطع واستخدام الصورة للفظها وليس لمعناها. ثم كانت طريقة الاختزال وذلك بتصوير جزء من الصورة وليس الصورة كلها. وقد عرفت الكتابة المصرية ثلاثة أنواع: الهيروغليف أي الكتابة المقدسة، وهي كتابة متقنة وجميلة كانت في خدمة المعابد والملوك. والهيروطيق وهي كتابة رجال الأعمال وكانت مبسطة وسريعة والديموطيق وهي كتابة عامة الشعب.

وكان للكاتب دور بارز في المجتمع وكانت المدارس التي تعلّم الكتابة تابعة إمّا للقصر وإمّا للمعابد وكانوا يختارون الموهوبين للتعليم من أي طبقة اجتماعية كانوا.

• فن العمارة (هندسة البناء):

ترك المصريون القدماء تراثاً فنياً ضخماً يتجلى خاصة في آثارهم المعمارية وفي النقوش والرسوم والتماثيل الكثيرة التي أبدعتها أنامل فنانيهم. وقد طبعت البيئة المصرية هذا التراث الفني العظيم بطابعها المميز. فالشمس المشرقة على مدار السنة تقريباً أوحت للمصري القديم بجعل معابده خالية من النوافذ والاكتفاء بالقدر الذي يدخل إليها من مداخلها المفتوحة ومن سلسلة من الكوى الصغيرة التي فتحها في سقوفها والثقوب التي أحدثها في الأجزاء العليا من جدرانها.

واستعمل المصريون مواداً مختلفة للبناء، فخصّوا المساكن بالآجر والخشب واللبن (الطوب). ولكن لم يبق منها شيء يذكر. واستعملوا للأبنية الدينية الحجارة فصمدت بوجه الزمن، وأهمها المعابد والمقابر.

وكانت المعابد الأولى بسيطة، كناية عن غرفة مسقوفة. ثم طوّروها مع الأيام وتوصلوا إلى تصميم طُبّق في معظم المعابد ومنها: الكرنك عند مدخل طيبة، والأقصر، وأدفو. وتميزت المعابد بالضخامة والاتساع والهندسة الخشوعية. وكانت مبنية إما من الحجر أو منحوتة في الصخر. وحلّ المصريون مشكلة السقف بأن استعملوا الخشب والعقد والقبة في الأبنية الصغيرة ثم إنهم في عهد أخناتون طبّقوا تصميماً جديداً فلم يسقفوا المعبد حتى لا يحجبوا نور الشمس عن داخله.

وتعتبر آثار سقارة وأهرام الجيزة ومصاطب النبلاء الحجرية الضخمة أبرز الآثار المصرية التي ابتدعها عصر الدولة القديمة. وهي تتميز بالضخامة الأسطورية. ونذكر، على سبيل المثال، هرم الجيزة الأكبر الذي يعتبر إحدى عجائب الدنيا السبع. بنى هذا الهرم الملك خوفو على الشاطىء الغربي للنيل، غرب مدينة الجيزة، وجعل قاعدته مربعة الشكل يبلغ طول كل ضلع من أضلاعها حوالي ٢٣٣ متراً. وكان ارتفاعه عند بنائه ١٤٦ متراً لكنه انخفض بعدما تهدمت قمّته، ويشتمل هذا الهرم على مليونين وثلاثمئة ألف حجر من الحجارة الجيرية الصلبة، يزن كل منها طنّان ونصف الطن وقد استخدم خوفو لبناء هذا الهرم مئة ألف عامل على مدى عشرين سنة: كان البعض منهم يقطع الحجارة بازاميل نحاسية، والبعض الآخر يعمل على رفعها وآخرون يجعلون بين كل واحدة منها والأخرى طبقة من الملاط تكاد لا تراها العين المجردة.

هذه الحجارة كانت تقطع من منطقة الهرم نفسها، إلاّ أن أكثريتها كانت تقطع من محاجر طرّة على الضفة اليمنى للنيل، ثم تنقل على زحافات تجرُّها الثيران إلى ضفة النهر حيث توضع في سفن تعبر بها إلى الشاطىء الغربي وهناك تُسحب فوق طريق منحدر شقّ بين مجرى النيل القديم

الحضارة المصرية

ومكان الهرم طوله ثمانمئة متر وعرضه سبعة وعشرون. وكلّما كان يعلو البناء ارتفاع الطريق يزيد ولا تزال آثاره باقية في شرق الهرم إلى الآن.

لم يكن العمّال يشتغلون طوال السنة، بل نصّت المصادر الموثوقة أنهم كانوا يشتغلون ثلاثة أشهر كل عام، أثناء فيضان النيل، أي حين يصبح العمل الزراعي متعذراً.

وفي عصر الدولة الوسطى أقلع الملوك عن بناء الأهرامات الضخمة وأقلع امراؤها عن بناء المصاطب الحجرية حول تلك الأهرامات. ثم كثر بناء المعابد في عصر الدولة الحديثة وخاصة في طيبة والكرنك وكثرت إقامة المسلاّت. والمسلة نصب حجري يتألف من كتلة رباعية يتراوح ارتفاعها بين ٢٠ و٥٠ متراً ونسبة قاعدتها إلى ارتفاعها نسبة واحد على عشرة. وترمز عندهم إلى الشمس، وكانوا يكسون قمتها بصفائح من البرونز أو الذهب. وأحياناً كانوا يغطون جسمها كله بالذهب. وقد نحتت معظم المسلاّت الملكية الضخمة من غرانيت أسوان الوردي.

جعل إيمان المصريين بالخلود اهتمامهم بالغاً في حفظ الجسد من الفناء فبنوا المقابر الأمينة: وكانت في مطلع التاريخ المصري عبارة عن حفرة في الأرض مكسوة بالخشب وبالحجارة. ثم بنوا فوقها، في ما بعد، مصطبة. ثم حوّلوا المصطبة إلى غرفة للصلاة. وكلّما كان مقام الميت كبيراً كان حجم المصطبة كبيراً. إلى أن ارتأى الفرعون سنفرو، في عهد الدولة القديمة، أن يبني عدة مصاطب فوصل إلى الهرم المدرّج في سقارة. ثم أخذ الهرم شكله الحالي في عهد الأسرة الرابعة. وفي عهد الدولة الوسطى تبدّل شكل المقابر فأصبح حفرة تحت الأرض، أهمها مقابر وادي الملوك في طيبة. وينزل بعضها في ممر طوله ١٠٠م وينتهي ببهو واسع وغرف عديدة ترقد في إحداها رفات الميت، وتوجد الأدوات الجنائزية، وتُطلى الجدران بالنقوش والرسوم. وتعتبر مقبرة توت عنخ أمون من أغنى المقابر المكتشفة.

آثار فرعونية

ولأن المصريين اعتبروا أن «الكا» بحاجة إلى التسلية في رقادها الطويل أكثروا من نقش الرسوم على الجدران والأعمدة. وصنعوا التماثيل التي اعتقدوا أن الروح تلجأ إليها. وقد تميّز الفنان المصري بالنقش النافر المحفور والكروكي والتماثيل كما تطورت صناعة التماثيل حسب العصور والمواضيع.

شكّلت الأسرة نواة المجتمع المصري الأول. فالمصري القديم كان محباً لبيته، يتزوج في مرحلة مبكرة عن طريق عقد مكتوب. كما كان يتزوج من أخته خشية أن تنتقل أملاك الأسرة إلى الأغراب، أو رغبة في الحفاظ على الدم الملكي نقياً. وعرف المصريون القدماء تعدُّد الزوجات والتسرّي. أمّا تعدُّد الأزواج فلم يُعرف في مصر القديمة.

الحضارة المصرية

المرأة المصرية العاملة

كان المصري القديم يعتبر أن من واجبه أن يراعي حرمة بيت الجار، فلم يكن يزور بيت جاره في غياب صاحبه ولا يدخله من غير استئذان. ولم يكن يعني حرص المصري على زوجته حبسها في عقر دارها، إذ شاركت المرأة المصرية زوجها في العمل والذهاب إلى الحقل والسعي وراء الرزق والعمل في المصانع، وكانت تتولى إلى جانب ذلك بعض الوظائف العامة في المعابد وفي خدمة الآلهة والقصور.

وكانت الزوجة تحمل التمائم خلال أشهر الحمل لتحمي نفسها وتحمي جنينها من الأرواح الشريرة. وكان الزوج يفرح حين يبشَّر بالمولود الذكر ويحزن حين تضع زوجته أنثى. وجدير بالذكر أن نعرف أن المصريين القدماء قاموا بتجارب لمعرفة جنس الوليد قبل ولادته. وكان الأب يحرص على تنشئة ابنه تنشئة صالحة ويدعوه دوماً للعمل وفق المبادىء الأخلاقية السامية ولاسترضاء الآلهة. وكان يحذره دوماً من عقاب الآخرة. وكان أطفال الطبقات الدنيا يعملون في الحقول أو في المصانع متى أصبحوا قادرين على القيام بمثل هذه الأعمال. بينما كان أبناء الأثرياء يلتحقون بالمدارس ليتعلموا الكتابة والقراءة والنسخ والحساب ومسح الأراضي.

كان ميراث الأب من حق أبنائه كلهم من غير تمييز أو تفرقة: فالأنثى تنال من الإرث نصيباً معادلاً لنصيب الذكر. لكن هذا لم يمنع الابن الأكبر من احتلال مكان أبيه في الأسرة، في ما يتعلق بالأوقاف الجنائزية لكي يشرف بنفسه على راحة أبيه في العالم الآخر، نيابة عن أفراد الأسرة جميعاً.

وقد بنى المصريون القدماء بيوتهم من اللبن والخشب. وكانت منازل الفلاحين بسيطة متواضعة، وبيوت الأثرياء واسعة مفروشة بأفخر الأثاث، تحيط بها الحدائق الغناءة وتتوسطها البرك الصناعية الزاخرة بالأسماك. وشاع في عهد الدولة الحديثة استعمال الحجارة واستخدام المعادن في بيوت الأثرياء. وكانت الأبواب ذات مصراع أو مصراعين يحيط بها إطار حجري ينقش عليه اسم صاحب البيت وبعض الرموز السحرية.

أما بالنسبة للملبس فلا يمكن تحديد زي معيَّن اتخذه المصريون القدماء إذ كان لكل طبقة اجتماعية زي ولكل مهنة زيُّها، فلباس الكاهن مثلاً غير لباس الجندي. كما اختلفت الأزياء باختلاف العصور. لكننا نستطيع أن نرسم صورة عامة للزي القديم: كان المصري يرتدي في الأحوال العادية إزاراً قصيراً من نسيج الكتان يصل إلى ما تحت ركبتيه بقليل وكان، في المناسبات، يلبس فوق الإزار قميصاً طويلاً يصل إلى عقبيه يقيه البرد. وكانت المرأة ترتدي ثوباً من الكتان الأبيض دون كمَّين يكسو الجسم من النحر إلى القدمين ويثبَّت فوق الكتفين بشريطين من الكتان. وكانت ترتدي فوق هذا الثوب، خاصة في الولائم والحفلات،

كانت المرأة تطحن القمح وتعجن دقيق الشعير والشوفان ثم تخبزه أرغفة مختلفة الأشكال في فرن من الفخار أو اللبن. وكانت تقوم بغزل الكتان ونسجه على مغازل وأنوال بدائية.

الحضارة الفارسية

قميصاً آخر تزينه خيوط حريرية.

وأقام المصري القديم الولائم. فكان الجار يدعو جيرانه لقضاء يوم سعيد معاً. ونرى على جدران مقابر عديدة رسوماً تمثل الضيوف، رجالاً ونساءً، يجلسون بهدوء ويشاهدون برنامج التسلية والسمر الذي أعدَّ لهم ويشمُّون أزهار اللوتس ويحتسون النبيذ، بينما تعزف فرقة موسيقية أنغامها الشجية على القيثارة. ويقوم المغنون بدورهم ويصفق الراقصون تصفيقاً منتظماً ويعرضون حركات بسيطة بالأذرع والأرجل والأجسام ولم تكن الموسيقى والرقص من وسائل التسلية فحسب، بل استخدمت بكثرة في الحفلات الدينية والجنائزية.

واهتم أثرياء المصريين القدماء بالخروج إلى الصحراء في أوقات فراغهم، لصيد الحيوانات الوحشية وإلى البرك لصيد الأسماك والطيور، وبصورة إجمالية كان المصري القديم يخرج للنزهة في النيل أيام المواسم والأعياد مصطحباً زوجته وأطفاله لصيد الأسماك والطيور بالشص والشِّباك والعصي وقطاف أزهار النَّوسن واللوتس.

الحضارة الفارسية

حين سقطت الدولة الكلدانية سنة ٥٣٩ق.م انتهت سيطرة الشعوب السامية على الحياة السياسية والحضارية في جميع بلدان آسيا الغربية وليس فقط في بلاد ما بين النهرين. وخلف الفرس الكلدانيين وهم فرع من الشعوب الهندية- الأوروبية، هو الفرع الإيراني. وقد نزح هؤلاء الإيرانيون عن موطنهم الأصلي في السهوب الواقعة شرق بحر قزوين، في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد، ونزلوا في الهضبة الإيرانية التي دعيت باسمهم. وكانوا رعاة غير متحضرين. ولكن خضوعهم لسيطرة الدول القوية التي قامت قربهم واحتكاكهم بالشعوب المتحضرة وتعرفهم على حضارتها واكتسابهم معارفها واقتباسهم أساليب حياتها، جعلهم يتدرجون في سلَّم الحضارة والرقي. وهذا ما جعلهم، رغم أصلهم الغريب، يؤسِّسون امبراطورية واسعة امتدت من برقة غرباً إلى نهر الأندلس في الهند شرقاً، ومن البحر الأسود وبحر قزوين شمالاً إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي جنوباً. لكن بلاد ما بين النهرين كانت قلب الأمبراطورية وجسراً مهماً للمواصلات يربط أطرافها المترامية بعضها ببعض. وكان ملوك الفرس ينزلون من مدنهم الجبلية الباردة في أيام الشتاء ويقيمون في مدينة بابل جاعلين منها عاصمة حكمهم المؤقتة.

وقد ظل الفرس يعيشون عيشة البداوة في بلاد عيلام خاضعين للميديين حتى برز في أواسط القرن السادس قبل الميلاد شاب من الأسرة الأخمينية في آسيا الصغرى يُدعى قورش فسيطر على اليونان واحتل بابل سنة ٥٣٩ق.م. وتوسع شرقاً حتى قُتِل سنة ٥٢٩ق.م. فخلفه ابنه قمبيز الذي احتل مصر. ثم وصل الحكم إلى داريوس الكبير فبلغ الفرس في عهده، بين ٥٢١ق.م و٤٨٦ق.م، ذروة قوتهم وتوسعهم ووضع أسس تنظيم الأمبراطورية التي شملت شعوباً مختلفة. ثم فشل الملوك بعد داريوس في حروبهم ضد اليونان وضعفت الأمبراطورية تدريجياً وكثرت الثورات خاصة في فينيقيا حتى انتصر عليهم الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٢ق.م.

استفاد الفرس من التنظيم الإداري والسياسي الذي اعتمده الأشوريون والكلدانيون، لكنهم طوَّروه ليلائم ظروف أمبراطوريتهم الواسعة، وأدخلوا عليه بعض التحسينات، خاصة في عهد داريوس الكبير. وكان الملك في هذا التنظيم رأس الأمبراطورية وصاحب السلطة الوراثية المطلقة فيها. وكان يُعرف بملك الملوك أو بالملك العظيم تعظيماً لشأنه وتمييزاً له عن الملوك الآخرين. ومع أن الفرس لم يدَّعوا الصفة الإلهية كملوك سومر وأشور وفراعنة مصر، فقد كانوا يعتقدون أن العناية الإلهية قد اختارتهم ليحكموا شعوبهم وبلدانهم وأنها تقف دائماً إلى جانبهم وتساعدهم وتنصرهم على أعدائهم. وكان إلى جانب الملك مجلس خاص يتألف من سبعة نبلاء يعاونونه ويسدون إليه المشورة في الشؤون السياسية والإدارية. أما في الأمور القضائية فكان يعتمد على مشورة أرباب الاختصاص في هذا الشأن من

الحضارة الفارسية

أبناء الولايات ذات العلاقة.

ولأن الأمبراطورية الفارسية كانت واسعة جداً وتتألف من عدد كبير من الشعوب المختلفة في الأصل واللغة والدين والتقاليد، لم يكن من السهل إخضاعها لنظام واحد دون النظر إلى الفوارق الموجودة بينها. وهذا ما دفع داريوس الكبير إلى تقسيمها إلى عشرين ولاية مراعياً في ذلك العوامل العنصرية والتاريخية والحضارية والجغرافية. ومنح هذه الولايات مقداراً كبيراً من الاستقلال الذاتي وسمح لكل منها بالاحتفاظ بعاداتها وتقاليدها ولغتها وقوانينها ودينها. وكسباً لود أبناء هذه الولايات كان يشاركهم في عبادة آلهتهم وإكرام كهنتهم والمساهمة المادية في بناء هياكلهم.

وحكم داريوس بلاد ما بين النهرين ومصر مباشرة وعين على كل واحدة من الولايات الأخرى حاكماً يدعى مرزباناً. وكان المرازبة (جمع مرزبان) أرفع الحكام مقاماً بعد الملك العظيم. فقد كان يجري اختيارهم من أبناء الملك وإخوته وأقرب أقربائه الموثقين. وكان المرزبان مطلق الصلاحيات تقريباً في إدارة شؤون ولايته، إذ كان يعيّن الموظفين ويقيلهم ويسك النقود وينظم الجيش دون استئذان الملك العظيم.

ولم يكن الملك العظيم يترك الأمر على الغارب للمرازبة، بل أخضعهم لإشراف دقيق يتألف من عناصر ثلاثة: أولاً، أمين السر الملكي في الولاية إلى جانب المرزبان وهو موظف عالٍ يعينه الملك ليساعد المرزبان في عمله وليكون حلقة الوصل بينهما، وليتولى تنظيم جميع المراسلات بينهما. ثانياً، كان في كل ولاية فرقة من الجيش الملكي الفارسي على رأسها قائد يعينه الملك بنفسه وهو مرجعه المباشر. ثالثاً، كان الملك العظيم يرسل إلى الولايات، بصورة منتظمة مفتشين يتمتعون بصلاحيات واسعة وبصحبتهم فرقة من الجيش الملكي لمراقبة أعمال المرازبة والتأكد من حسن سير الأمور في ولايتهم. هذه المراقبة المثلثة، المفتش وقائد الجيش وأمين سر الولاية، مكنت الملك العظيم من مراقبة المرزبان مراقبة دقيقة وقضت على الدسائس والمؤامرات في مهدها. وكان المرازبة يبقون في الحكم ما داموا يحسنون الإدارة ويدفعون الضرائب المستحقة ويقدمون المساعدات العسكرية المطلوبة ويدينون بالولاء والطاعة والإخلاص للملك العظيم.

وأنشأ الفرس في كل ولاية مدارس خاصة لتعلم التلاميذ من أبناء العائلات الفارسية النبيلة وإعدادهم لتولي الوظائف الكبرى في الجيش وفي الدوائر الأخرى. وكان الجيش الفارسي يتألف من المشاة والرماة وعربات القتال والفرسان وغيرها. ولأن الخيول كانت متوفرة عند الفرس والفرسان يجيدون أساليب الحرب عليها، فقد شكلوا من حيث كثرة العدد ومن حيث الكفاءة قوة ضاربة شديدة البأس لم تشهد المنطقة مثيلاً لها من قبل. وكلّف الفرس الفنيقيين بناء أسطول لهم وإدارته فقاموا بالمهمة خير قيام ومكنوا الفرس من أن يصبحوا أول دولة بحرية كبرى في آسيا.

معظم قوات الجيش كانت تعسكر في فارس في الظروف العادية. وكان هناك، في كل ولاية، بعض الفرق ترابط فيها للمحافظة على الأمن وتحسباً للطوارىء. وكان للملك حرس خاص يختار أفراده من أكثر الجنود شجاعة وأصدقهم ولاءً وأحسنهم تدريباً.

ونظم داريوس موازنة الأمبراطورية الفارسية تنظيماً جيداً. فقدّر النفقات اللازمة لأجهزة الدولة المختلفة وفرض على أساس ذلك الضرائب على الولايات لتغطية تلك النفقات. وأعفى بلاد فارس من الضرائب لأنها الدولة الحاكمة، بينما كان على الولايات تأدية ثلاثة أنواع من الضرائب: الضريبة المباشرة، وهي كمية من المال أو من المعادن الثمينة التي تدفعها الولاية للخزينة المركزية بواسطة المرزبان. وضريبة عينية تُدفع من المحاصيل والحيوانات، كالقمح والشعير، والغنم والماعز وغيرها. وهذه كانت تذهب لسد حاجات الجيش الملكي والمكوس الجمركية التي كانت تستوفى عن البضائع والسلع التجارية الأخرى.

والجدير بالملاحظة أن داريوس هو أوّل من سك النقود الذهبية باسمه وسمح للمرازبة بسك النقود الفضية فكان الفرس أول من أدخل النقود

الحضارة الفارسية

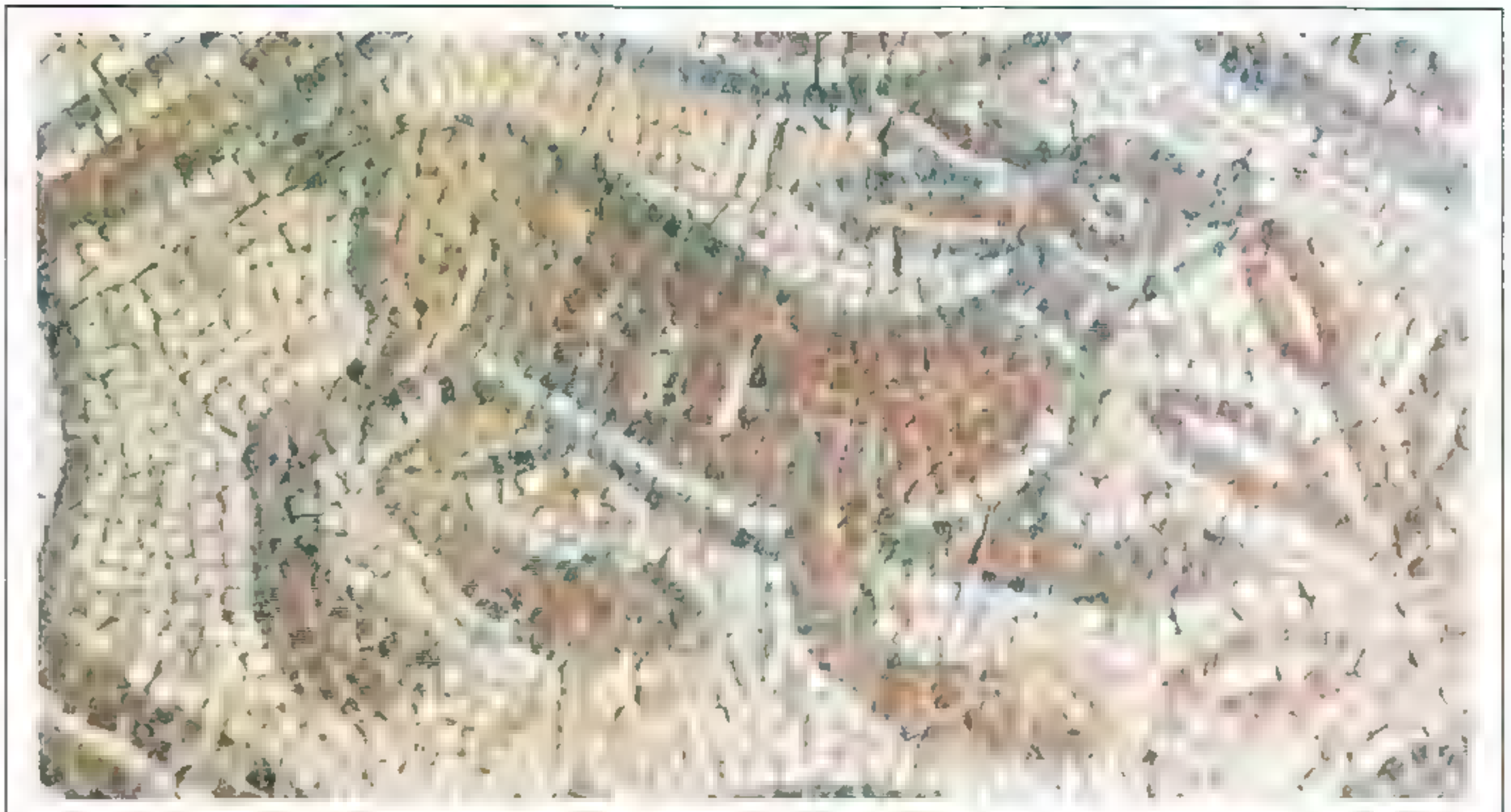

المسكوكة إلى أسواق الشرق القديم حوالي سنة ٥٠٠ق.م.

واستأثرت المواصلات باهتمام الفرس لأغراض عسكرية تتعلق بالأمن ولتسهيل التجارة وإنعاش الاقتصاد. فقد أمر داريوس بإعادة فتح ترعة الفراعنة القديمة التي تصل نهر النيل بالبحر الأحمر.

وأنشأ الفرس الطريق البرية المعبدة التي كانت تربط أجزاء أمبراطوريتهم بعضها ببعض. وأشهر تلك الطرق الطريق الرئيسية التي امتدت من مدينة برسيبولس إلى سرديس في غرب آسيا الصغرى بطول يزيد عن ألفين وخمسمئة كليو متر. ونظموا نقل البريد فأسّسوا عدداً كبيراً من المحطات والمراكز الموزعة على الطرق الرئيسية في البلاد. وكان سُعاة البريد يستخدمون الخيول والعربات ويجرون بين تلك المراكز بسرعة كبيرة ناقلين الرسائل والأوراق الحكومية إلى أصحابها. وكان حق استعمال البريد محصوراً بالملك وبدوائر الدولة وغير مباح لعامة الشعب.

وكان الفن في العهد الفارسي تراثاً مشتركاً ساهمت في إبداعه كافة الشعوب التي كانت خاضعة لسيطرة الحكم الفارسي. ولم تكن الفنون التي ازدانت بها قصور الملوك الفارسيين كلها فارسية الأصل والطابع والمنشأ، بل كانت مزيجاً بديعاً تجلت فيه روعة جميع الفنون التي ازدهرت في حضارات الشرق القديم: فزخرفة الجدران أخذوها عن الكلدانيين والمصريين، ونحت التماثيل الحجرية الضخمة ووضعها في مداخل القصور عن الأشوريين وصناعة التحف الفنية وأدوات الزينة عن الفنيقيين وحفر المعادن عن أهل آسيا الصغرى.

أما ديانة الفرس فتشبه ديانات شعوب بلاد ما بين النهرين في أغلب عقائدها وطقوسها. فقد عبد الإيرانيون الظواهر الطبيعية كالشمس والقمر والنجوم والنار والماء والرياح وأقاموا لها الهياكل والعبادات. وكانت النار أعظم الآلهة عندهم، إذ احتلت عبادتها المقام الأوّل في طقوسهم وكانوا يبقونها مشتعلة باستمرار في المعابد. ولم يؤمنوا بالثواب والعقاب ولا بالحياة بعد الموت، وكانوا يدعون جثث موتاهم مكشوفة في العراء حتى تلتهمها الطيور والوحوش ويدفنون ما تبقى منها.

ثم ظهر، في النصف الثاني من

الحضارة الفارسية

الألف الأول قبل الميلاد، مصلح ديني عظيم اسمه زرادشت، وقد برز حوالي سنة ٦٠٠ق.م وانتقد ديانة أبناء جنسه وسخر من آلهتهم وعبادتهم وراح يطوف البلاد مبشراً الناس بدين جديد. لكن الفرس لم يستجيبوا لتعاليمه بل نبذوه واضطهدوه وعذبوه، كما تشير إلى ذلك بعض قصائده. إلاّ أنه، قبل وفاته، تمكّن من هداية أحد الملوك الأقوياء فأثرت هذه الحادثة تأثيراً كبيراً على دعوته، وأقبل الناس على تأييده واعتناق الدين الجديد الذي كان يبشرهم به. ومالبث هذا الدين أن انتشر في كافة أنحاء إيران ثم اعتنقته وتأثرت به شعوب أخرى.

ولم يترك زرادشت أثراً مكتوباً يتضمّن تعاليمه. بل إن اتباعه كتبوا، بعد مماته، تعاليمه وما حفظوه من أقواله وأغانيه وقصائده الدينية وجمعوها في كتاب اسمه «أفستا». وقد اعتقد زرادشت أن الخير في الكون هو الأصل وأنه المظهر الحسي للكائن الأعظم والإله الأحد «أهو رامزدا»، ومعناه «رب الحكمة». وهو مصدر الخير والعدل والحق والأفكار الصالحة والأعمال الحسنة وهو مدبّر الكون وموجهه وموصله إلى كل ما هو جميل وفاضل ومفيد. ويحيط بأهورامزدا جمع من الأعوان هم الملائكة يقومون على خدمته ومعاونته في تحقيق أعماله الكريمة الصالحة. وكانوا يرمزون إلى فئة الصالحين هذه بالنور والشمس والنار.

الخيول

حضارة الهند

ونسب الشر إلى جماعة من الأرواح الشريرة التي يقودها الزعيم المسمى «أهريمان» ومعناه «رب الظلام». وكان شغل هذه الجماعة الشاغل إفساد الأعمال الصالحة. ويقول زرادشت أن الله خلق للإنسان إرادة حرّة ليقرر ما يريد وليختار طريق الخير والنور أو طريق الشر والظلام. وتؤمن الزرادشتية بوجود حياة أبدية بعد الموت: فأهورامزدا يقيم الدينونة ويحاسب الناس على أعمالهم، فمن اختار طريق النور والصلاح على الأرض يرث الحياة السعيدة، ومن اختار طريق الظلام والشر يذهب إلى سراديب الظلام والعذاب.

حضارة الهند

مرّت الحضارة الهندية بعدد من المراحل هي:

١ ـ مرحلة حضارة وادي الأندس: وامتدت من سنة ٢٥٠٠ق.م. إلى سنة ١٥٠٠ق.م. وقبل ذلك التاريخ كانت الهند مأهولة بشعوب مختلفة حضارتها بدائية. ثم وفدت إليها، في نصف الألف الثالث قبل الميلاد، قبائل من شعوب منطقة البحر الأبيض المتوسط وحلّت في وادي الأندس، وأنشأت حضارة متقدمة. وفي هذا الإطار، عثر الباحثون والمنقبون على أنقاض مدينتين كانتا مزدهرتين في ذلك العهد هما مدينة هاربة ومدينة موهنجودارو. وقد تبيّن من آثارهما أن الشوارع فيهما كان عريضة مستقيمة ومتقاطعة بزوايا قائمة، وأن بيوت الأغنياء كانت كبيرة مؤلفة من طبقتين، بينما بيوت الفقراء كانت صغيرة حقيرة، كما كان فيهما حمّامات عامة وخزانات لتزويد البيوت بالمياه والمجارير للأوساخ. وقد اهتم السكان بالنسيج والخزف والتعدين وصنعوا السيوف والخناجر والسكاكين من النحاس والبرونز، وأدوات الزينة من الذهب والفضة. كما كانت لهم لغة مكتوبة تعود إلى سنة ٢٣٠٠ق.م. تقريباً. وهذا ما تشير إليه الأختام التي عُثر عليها وفيها بعض الكتابات التصويرية التي لم تحل رموزها حتى الآن. كما عرفوا الزراعة فيها. ويؤكد المؤرخون أنهم كانوا على علاقات تجارية مع السومريين وهذا ما جعلهم يتأثرون بحضارتهم وببعض أساليب عيشهم. ولكن في أواخر عهدهم ضعفوا وفقدوا حيويتهم ونشاطهم وسقطوا بأيدي الآريين.

٢ ـ مرحلة الفيدا: وتمتد من سنة ١٥٠٠ إلى سنة ١٠٠٠ق.م. فقد زحف على الهند حوالي سنة ١٥٠٠ق.م مجموعة من القبائل الآرية التي قدمت من شرق بحر قزوين، واحتلت حوض نهر الأندس وسهل الهند الشمالي. ورغم أنهم كانوا أقل تحضراً من السكان الأصليين، فقد نظروا إليهم نظرة احتقار واعتبروا أنفسهم أشرف منهم فلم يسمحوا بالتخالط معهم ولا بالزواج منهم. وهذا التمييز يعتبر في أساس جذور النظام الطبقي في الهند.

هؤلاء الغزاة كانوا رعاة متجولين يخضعون لنظام قبلي ويأنفون من الإقامة في المدن. أما صناعتهم فيدوية وزراعتهم فبدائية ويكرهون العمل عند الآخرين لقاء أجر باعتبارهم ذلك مهانة وضعة. وكانت لغتهم السنسكريتية مع أنهم كانوا يجهلون الكتابة. لذلك لم يتركوا لنا آثاراً مدونة تساعد على فهم تاريخهم. بل إن القليل الذي نعرفه عنهم مأخوذ من كتابهم المقدس «الفيدا»، ومعناها المعرفة. وقد تناقلوا مضمونه عن طريق الرواية والحفظ أجيالاً طويلة قبل أن يدوّن. ونستخلص من المدائح والأناشيد والتسابيح التي يتضمنها والصلوات والطقوس أنهم كانوا يعبدون قوى الطبيعة ومظاهرها فكان لديهم إله للشمس وإله للرعد ولعواصف وللنار. وكان الكاهن الذي يخدم تلك الآلهة يدعى البراهما.

ومع بداية الألف الأول قبل الميلاد بدأ الآريون يتأثرون بالنواحي المادية للحضارات الهندية فشرعوا يبنون المدن ويسكنون البيوت المجهزة بوسائل الراحة وأنشأوا المزارع وطوّروا أساليب الزراعة والصناعة، وتاجروا مع البلدان القريبة والبعيدة وتعلموا الكتابة وأصبحوا يدوّنون آدابهم وتعاليمهم. وكان الملك فيها حاكماً وقائداً عسكرياً وكاهناً أعظم وواضع قوانين وقاضياً في آن. وكان يعاونه في الحكم مجلس ملكي مؤلف من أقربائه وأصدقائه ومن يثق بولائهم

حضارة الهند

وإخلاصهم له. وكما تعلّم الآريون كل هذه الأشياء من الشعوب التي احتكوا فيها في الهند وخارجها، فقد فرضوا دينهم وآدابهم المتسمة بالإبداع والابتكار والقوة فأصبح دينهم ونتاجهم الأدبي عنصرين أساسيين في تراث الهند وميزتين من ميزاته.

٣ ـ **مرحلة الملاحم**: وتمتد من حوالي سنة ١٠٠٠ق.م إلى سنة ٥٠٠ق.م. سمّيت بهذا الاسم لأن الهندوس وضعوا خلالها ثلاثة من أشهر مؤلفاتهم الأدبية والدينية وهي: الأوبانيشادا، المهابهاراتا والرمايانا. وكانت غاية الثلاثة دينية وأخلاقية. فالأوبانيشادا وضع لتفسير الكتاب المقدس الهندوسي «الفيدا» وشرح مبادىء الهندوسية وتوضيح أسسها الفكرية والفلسفية. فعامة الشعب لم يكن باستطاعتها قراءة الفيدا وفهم مضمونه. لذا عمد الهندوسيون إلى وضع مبادىء دينهم بشكل قصصي شعري بسيط محبب إلى الناس سهل الحفظ والفهم. فأخرجوا للعالم ملحمتين هنديتين عظيمتين هما المهابهاراتا والرمايانا. وقد حفظت لنا هذه الكتب الثلاثة أصول الدين الهندوسي ومبادئه وأوضحت لنا نظام الطوائف الهندية المغلقة «Caste système». والدين الهندوسي ونظام الطوائف المغلقة كانا وما يزالان ركنين من أهم أركان الحضارة الهندية لما لهما من أثر في توجيه حياة الشعب الهندي وتفكيره ماضياً وحاضراً.

ويؤمن الهندوسيون بوجود نفس إلهي كلي يتوزّع في جميع المخلوقات الحية ويؤمنون بأن غاية الحياة وأقصى ما يرجوه الإنسان من سعادة هو الاتحاد بروح اللّه والفناء فيها والحياة بها، ويبلغ الإنسان الصالح هذه الغاية حين يوافيه أجله، بينما يعاقب الشرير بأن يبقى مجبراً على العودة إلى الحياة الدنيا: حياة الألم والشقاء إلى أن تطهر نفسه من أدران المادة والشهوات. هكذا فإن روح الإنسان لا تفنى بعد موته بل تتقمص جسد حي آخر. والإنسان الذي لم ينغمس كثيراً في الشرور وكان طيباً تتقمص روحه في جسد إنسان صالح ويكون قريباً من الاتحاد بروح اللّه. أما الذي يعيش حياة شريرة متهورة فتتقمص روحه جسد حيوان حقير عقاباً له. ويترتب على هذا الأمر عودته، بالتقمص، عدّة مرات إلى الحياة حتى تتطهر نفسه تدريجياً ويسمو إلى مرتبة الصالحين.

ويمتنع الهندوسيون عن قتل الحيوانات لاعتقادهم أن فيها شيئاً من روح اللّه الكلي ولأن روحاً إنسانية قد تكون متقمصة فيها. وكان على الإنسان أن يمارس نوعاً من الرياضة الروحية والجسدية الصارمة هي «اليوغا» لتتقمص الروح كياناً مادياً أعلى من كيانها السابق. ويؤمن الهندوسيون بوجود عدد كبير من الآلهة أهمها براهما الإله الخالق لكل شيء في الكون، الأشجار والحيوانات وخاصة القرود والحيات والكلاب والبقر ويعتبرون نهر الغانج نهراً مقدساً يحجون إليه ويغتسلون بمياهه تطهراً وتبرُّكاً. وكانوا ينبون الهياكل ويقيمون التماثيل ويحترمون رجال الدين ويجرون الطقوس والعبادات تمجيداً للآلهة. ورغم تعدد آلهتهم يزعم الهندوسيون أنهم موحدون لأن الآلهة الكثيرة التي يعبدون هي مظاهر متعددة للإله الواحد الكائن الأعظم سيد الكون.

وبين سنة ٥٦٣ق.م. و٤٨٣ق.م. ظهر مصلح ديني هندي معروف باسم بوذا، كان لتعاليمه تأثير محسوس في تطوير الديانة الهندوسية: فقد قبل بوذا مبادىء الديانة الهندوسية الأساسية، لكنه نهى عن إقامة الهياكل والتماثيل والطقوس والعبادات. وشدّد على أهمية الأخلاق الكريمة والسلوك الحسن والأعمال الطيبة الصالحة، وأكد على مقدرة الإنسان على الوصول إلى اللّه إذا سلك طريق الخير والمحبة والتقوى، فلا حاجة له إلى وساطة رجال الدين أو عبادة التماثيل والأنصاب، ولا إلى تعذيب نفسه وإرهاق جسده.

وبعد وفاة بوذا اعتبره اتباعه إلهاً وعبدوه وأقاموا له التماثيل والهياكل والكهان، وجعلوا تعاليمه ديناً جديداً، انتشر في بلدان أخرى غير الهند، في جنوب شرق آسيا مثل بورما وتايلاند وفيتنام.

٤ ـ **العصر الذهبي للحضارة الهندية**:

بعد عهد الملاحم، دخلت الهند تحت النفوذ الفارسي ثم المقدوني ثم اليوناني. وحكمتها بعض سلالات

حضارة الهند

الهندوس

هندية مختلفة، وتعرَّضت في تلك الفترة التي امتدت حوالي ثمانمائة سنة لمؤثرات حضارية عديدة هيأتها للوصول إلى عهدها الذهبي في ظل حكم سلالة الغوبتا الهندية (بين سنة ٣٢٠م و٥٣٥م).

فقد ازدهرت في هذا العهد حضارة الهند ازدهاراً عظيماً وبلغت شأواً عالياً في كافة نواحي العلوم والفنون:

ـ في الأدب: أضاف الهنود إلى ملاحمهم العالمية السابقة كتاب «البنتشاتنترا». وقد تُرجمت حكمه وأمثاله وقصصه، مثل قصة السندباد البحري وجاك والمارد والمرآة المسحورة وغيرها إلى مختلف لغات العالم. ونشطت حركة التمثيل المسرحي وظهر الشاعر كاليداسا (سنة ٤٠م) وهو يلقب بشكسبير الهند.

ووضعت أسس فنون الرسم والحفر والنحت وأقبل الفنانون على المواضيع الدينية، بشدة، وخاصة ما يتعلَّق منها ببوذا.

ـ **في التربية والتعليم:** نشطت حركة التربية والتعليم. فكان أولاد الفقراء يتعلَّمون الحرف والصناعات، وكان أولاد الأغنياء يذهبون إلى المدارس لتلقي العلم. وكانت مدينة نالندا الواقعة في حوض الغانج الشرقي مركزاً رئيسياً من مراكز العلم والثقافة. وكان طلاب العلم العالي يقصدونها من مختلف أنحاء الهند ومن بلدان أخرى، مثل التيبت والصين وكوريا. وكان فيها أكثر من مئة قاعة للمحاضرات ومكتبة ضخمة تشغل ثلاثة أبنية، ومرصد ومزرعة نموذجية لإنتاج الألبان.

ونتيجة اهتمام الهنود بالدرس والبحث والاستقصاء بزّوا جميع أقرانهم في الرياضيات وفاقوا اليونان والرومان في عدد ابتكاراتهم في هذا المضمار: فالفضل يرجع إليهم في استنباط النظام العشري بما فيه الصفر. ومنهم تعلَّمت شعوب الأرض كيف تعبر عن الأعداد، بأرقام لا تتجاوز التسعة والصفر، مهما كانت كبيرة. وكانوا أوَّل من فكَّر بقيمة الأعداد

الصلاة للبقرة المقدسة

الحضارة الصينية

السلبية ممهّدين بذلك الطريق أمام العرب لاختراع علم الجبر.

في حقل الطب: قاموا بأعمال جليلة، وظهرت في مطلع التاريخ الميلادي بعض مؤلفاتهم الطبية، وهي تشبه إلى حد بعيد ما كتبه أبقراط وجالينوس في هذا المضمار. وقد عرف الأطباء الهنود أهمية العمود الفقري وقاموا بجراحة العظام وأجروا عمليات لتجميل الآذان والأنوف والشفاه. ومارسوا التلقيح بحقن الميكروب الضعيف في الجسم ليكسب الجسم مناعة ضد المرض واستعملوا ميكروب الجدري البقري لتلقيح الإنسان وقاية له من الجدري وأنشأوا في الهند مستشفيات مجانية في القرن الخامس ميلادي، وتنبه الطبيب الهندي العظيم سوسروتا يومئذ إلى أهمية النظافة في الجراحة. فكان يهتم بأمر النظافة قبل إجراء العملية وأثناءها ثم يطهر الجروح بعد الانتهاء منها.

الكبرى في الصين كانت، في حوالي أواسط الألف الثاني قبل الميلاد مأهولة بالسكان. وكان هؤلاء يعتمدون في تحصيل رزقهم على الزراعة. وكانت الأرض تخص الأغنياء، وكان الفقراء والعمّال يعملون فيها بالحصة. وقد عرف الصينيون كيف يستفيدون من مياه الأنهار لري حقولهم وتعلموا إقامة السدود لحماية عمرانهم من الفيضانات والخراب كما زرعوا الذرة البيضاء والشعير والأرز. ولم يعرفوا القمح إلاّ في ما بعد. وكانوا يربون الخيل والبقر والغنم والخنازير والكلاب ومن الطيور الدجاج.

وفي الصناعة انتجوا السيوف والخناجر من النحاس والبرونز وأدوات الزينة من الذهب والفضة والعاج ونسجوا الحرير وصنعوا الفخار.

كما وضعوا تقويماً زمنياً ساعدهم في تنظيم مواعيد زراعتهم وكان أسبوعهم يتألف من عشرة أيام وشهرهم من ثلاثة أسابيع «دورة» وكانت سنتهم تتألف من ست دورات يضيفون إليها الأيام التي تنقصها عند الحاجة. وكان لهم بعض الإلمام ببعض مبادىء علم الفلك فقد تمكنوا من التنبؤ بخسوف القمر وراقبوا حركات الكواكب والنجوم.

وكانت لهم في ذلك العهد لغة مكتوبة لكنها كانت تصويرية صعبة. وكانوا يعبدون ظواهر الطبيعة المتمثلة بالرعد والبرق والنور والظلام وعبدوا الأشجار والحيوانات وكانوا يؤمنون بوجود تنين كبير يقيم في مياه البحار والأنهار ويصعد أحياناً إلى الفضاء مسبباً العواصف وهطول الأمطار، وأقاموا احتفالات دينية أخرى في الخريف لشكر الآلهة على ما وهبتهم من غلال كثيرة ومواسم خلال

الزراعة الصينية

الحضارة الصينية

الحضارة القديمة:

لا نعرف الشيء الكثير عن تاريخ الصين القديم لأن الأدلة التاريخية قليلة والأساطير التي اخترعها الصينيون المتأخرون لا يمكن الركون إليها.

كل ما نعرفه أن أحواض الأنهار

الحضارة الصينية

الصيف. لكنهم لم يهتموا بالدين كما اهتم به الهنود والمصريون وغيرهم. فلم يكن لرجال الدين شأن عظيم في ديانتهم. ومن ناحية التنظيم السياسي كانوا يعيشون قبائل متفرقة في أول الأمر، إلى أن حل النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، حيث تمكن زعماء بعض القبائل الأقوياء من الانتصار على القبائل الأخرى فوحدوها تحت سلطتهم وبدأ بذلك عهد الحكومة المركزية. وأصبح الملك يمارس سلطة الحاكم والقائد العسكري ورئيس الكهنة وأصبح صاحب الأرض ومالكها يوزعها كيفما يريد على أنصاره ورجاله.

تطوُّر الحضارة الصينية:

تطوَّرت الحضارة الصينيّة تطوّراً كبيراً خلال ألفي سنة تقريباً، أي بين القرن الحادي عشر قبل الميلاد حتى أوائل القرن العاشر الميلادي وقد مرّت في ثلاثة أدوار هي على التوالي:

أ ـ دور التقدم الحضاري الأول: من ١٠٢٨ق.م إلى ٢٢٠م. وحكمت الصين خلال هذا الدور ثلاث سلالات هي:

سلالة تشو: من ١٠٢٨ق.م إلى ٢٥٦م. وقد اتسعت حدود الصين غرباً وجنوباً. وبعدما كانت لا تتعدى القسمين الأوسط والساحلي من حوض النهر الأصفر، أصبحت تشمل حوض النهر الأزرق أيضاً. وكان الملوك من أبناء تلك السلالة يلقبون بـ«أبناء السماء». وكان يعاون الملك موظف كبير بمثابة رئيس الوزراء اليوم. وكانت أعمال الدولة موزعة على ست إدارات هي: الزراعة، الحرب، الأشغال العامة، المالية، الشؤون الدينية والعدلية. وكان على رأس كل إدارة موظف كبير مسؤول أمام الملك ومعاونه.

في تلك الفترة كانت الزراعة تشكل مورد العيش الرئيسي للسكان وتطوّرت أساليبها، فشُقت القنوات للري من مياه النهر الأصفر والنهر الأزرق. وتزايد عدد المدن واتسعت مساحتها، وظهرت طبقة متوسطة من التجار والصناع وأصحاب الحرف الذين اشتهروا بصناعة التحف والمجوهرات من العاج والمعادن الثمينة والحجارة الكريمة، كالمرجان والزمرد والياقوت.

وتطور في ذلك الدور أسلوب الكتابة من أسلوب تصويري ذاتي إلى أسلوب تصويري مقطعي. وهذا الأسلوب اتبعه الصينيون حتى عهد الثورة. وكانت لغتهم تتألف من ٢٥ ألف صورة (حرف). وقلّما كنت تجد صينياً يتقن لغة بلاده اتقاناً كاملاً ويستعمل جيداً جميع حروفها. وفي عهد سلالة تشو حقق الصينيون تقدماً عظيماً في ميدان العلم، خاصة علم الفلك، إذ توصلوا حوالي سنة ٤٤٤ ق.م. إلى تحديد طول السنة بـ٣٦٥ يوماً وربع يوم ورصد النجوم وجمعوا معلومات دقيقة وصحيحة عنها.

وفي عهد سلالة تشو ظهر الفيلسوف كونفوشيوس الذي قضى معظم حياته، بعد الثالثة والعشرين، مدرّساً مبشراً بتعاليم فلسفته الخاصة وتتلخص: في إن الإنسان ليس شريراً بطبعه بل هو طيب الجوهر والعنصر، وإذا تربى تربية صالحة أصبح إنساناً خيراً ومواطناً كريماً.

وكان لتعاليم كونفوشيوس تأثير كبير في تطور الحضارة الصينية، إذ أثرت تعاليمه في أخلاق الناس وتفكيرهم وانعكست على سلوكهم وعاداتهم وتقاليدهم. لكنها، فضلاً عن حسناتها وفضائلها، تسببت في تأخر الصينيين وجمودهم لأن تقديسها للسلف

كونفوشيوس والديانة الكنفوشية:

ولد كونغ ـ فو ـ دزة الملقَّب بكونفوشيوس حوالي سنة ٥٥١ق.م. وتوفي حوالي سنة ٤٧٨ق.م. وقد ترك خمسة مجلّدات هي «كتب القانون الخمسة» ضمنها فكره الاجتماعي والسياسي ويتلخص بمبادىء أهمها: الأمانة والإخلاص تجاه الآخرين، محبة الآخرين، الإنسانية الكاملة، العدالة، الذكاء والاستقامة. وقد آمن كثيرون بأفكار كونفوشيوس وطبقوها فتعرضوا للاضطهاد والتعذيب. ثم قام تلاميذه بجمع أفكاره في عدّة كتب ومجلدات أهمها «الأحاديث والمحاورات، كما ألّهوه وأقاموا له التماثيل والهياكل ونظموا له الطقوس والعبادات.

الحضارة الصينية

وتمسكها بالماضي وتعلقها بعاداته وتقاليده متعاها من مجاراة ركب الحضارة والتطور في البلدان الأخرى.

ـ **حكم سلالة تشن**: ويمتد من سنة ٢٥٦ق.م إلى سنة ٢٠٦ق.م. وقد قضى ملوك هذه السلالة على سلطة الإقطاعيين والزعماء المحليين وعززوا الحكومة المركزية وعهدوا بالإدارة إلى موظفين أكفاء كان يتم اختيارهم عن طريق مسابقات خطية منظمة فنشأ النظام الامبراطوري الصيني الذي استمر قائماً طيلة ألفي سنة حتى تحوّل سنة ١٩١١م. إلى نظام جمهوري.

وفي عهد أسرة تشن حاول الأباطرة توحيد بلاد الصين توحيداً حقيقياً شاملاً؛ وحدّوا اللغة الكتابية والموازين والمقاييس والشرائع في جميع أرجاء الأمبراطورية. واهتموا بتوعية رعاياهم بأنهم شعب صيني واحد. وقامت الحكومة ببناء السور العظيم الذي امتد على الحدود الشمالية مسافة ٢٥٠٠ كلم بارتفاع ٧,٥م وسماكة ٤,٥م، لتأمين سلامة الأمبراطورية ورد الغزاة. وهذا السور أسهم في تقوية الشعور بوحدة المصير بين الصينيين.

ـ **حكم سلالة هان**: ويمتد بين سنة ٢٠٦ق.م. وسنة ٢٢٠م. ومنذ استيلاء هذه السلالة على الحكم قامت بسلسلة من الفتوحات فضمّت إلى الصين كوريا ومنشوريا في الشمال، وهضبة التيبت والهند والصينية في الجنوب، ومدّت سيطرتها غرباً داخل القارة حتى حدود أفغانستان. ونشطت التجارة في عهدها وتوسّعت إلى حدود لم تبلغها من قبل: إذ وصل التجار الصينيون إلى شواطىء البحر الأسود وحوض البحر المتوسط وحملوا بضائعهم الجميلة ومنتوجاتهم النادرة إلى أوروبا ومصر وبلاد ما بين النهرين. فعرفت هذه البلاد، بفضلهم ولأوّل مرّة، الدراق والمشمش والقرفة والحرير والعاج والعنبر واللؤلؤ وغيرها.

هذه التجارة الخارجية كان لها تأثير كبير على الحضارة الصينية نفسها فاحتكاك الصينيين بالبلدان الأخرى طعم حضارتهم بعناصر حضارية جديدة: فدخلت البوذية إلى الصين سنة ٦٧م وآمن بها كثيرون وأصبحت واحدة من الديانات الرئيسية في الصين. وتم في عهد هذه السلالة اختراع الورق ووضع أول قاموس، وكُتب أول تاريخ موثوق للصين، واهتم الصينيون بالآداب والفنون وصنفوا الكتب وأنتجوا بعض الآثار القيمة في الرسم والنحت.

ب ـ دور الانحطاط: بعد زوال سلطة سلالة هان، دخلت الحضارة الصينية، سنة ٢٢٠م، مرحلة من الركود والانحطاط بسبب الفوضى التي عمّت البلاد في الداخل والأخطار التي هددتها في الخارج: فالحكومة المركزية ضعفت وأعلن عدد من حكام الأقاليم استقلالهم، وهاجمت قبائل المغول الصين واحتلّت القسم الشمالي منها. هذه الحال دامت حوالي ٤٠٠ سنة كانت فيها الصين في عهد ركد فيه النشاط الحضاري.

ج ـ دور الازدهار الحضاري: سنة ٦١٨م. وصلت إلى الحكم سلالة تونغ واستطاعت بهمّة ملوكها، خاصة الأمبراطور تاي تسونغ، أن تعيد إلى الصين استقلالها السياسي ووحدة أراضيها ونشاطها الحضاري. فكان عهد حكمها الممتد حوالي ٣٠٠ سنة (من ٦١٨ إلى٩٠٦م) من ألمع العهود الحضارية في تاريخ الصين: ففي هذا العهد تم تنظيم كافة دوائر الدولة تنظيماً دقيقاً، وتم تطوير الشرائع والقضاء وتوجيههما توجيهاً إنسانياً عادلاً، وتأسيس المعاهد التعليمية على اختلاف درجاتها وإتاحة الفرص للتلاميذ المؤهلين لاستكمال دراساتهم في المدرسة المحلية والانتقال منها إلى كليات الأقاليم، ثم الالتحاق بالجامعة في العاصمة حيث يفوزون بأعلى درجات التحصيل.

ونتيجة لذلك ظهر في هذا الدور

سنة ٨٦٨م قدّم الصينيون للعالم أوّل كتاب مطبوع هو Diamond Sustra وكانوا قد اخترعوا الطباعة منذ القرن الثاني الميلادي. ثم اخترعوا الورق بعد ذلك في عهد سلالة هان وهذا ما جعل طبع الكتب سهلاً في القرن التاسع. وكانت طباعتهم تجري بواسطة الصفائح المحفورة. أما الطباعة بالحروف المطبعية المنفصلة فقد باشروا بها في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي. ولم يعرفها الغرب حتى أواسط القرن الخامس عشر.

الحضارة الصينية

عدد كبير من الشعراء والأدباء العظام في تاريخ الأدب الصيني. واخترع الصينيون البارود وكانوا يستخدمونه أولاً في المفرقعات ثم شرعوا، في ما بعد، في استعماله لأغراض حربية منذ أواسط القرن الحادي عشر.

مزهرية مزخرفة

الفنون الصينية:

انتجت الحضارة الصينية أعمالاً فنية رائعة، فالصينيون لم يميزوا بين الفنان والصانع وهذا ما جعل مصنوعاتهم فنيّة رائعة. وقد برعوا في صنع السجاد وحفر الخشب والعاج وغيرها من المصنوعات ومنها اللاّك، وهو سائل استخرجوه من غصون وجذوع نوع من الأشجار واستخدموه في طلاء الخشب والخزف والمعدن، ونقشوا طبقاته بآلة حادة لتمييز الألوان ورؤيتها. وقد لاقت مصنوعاتهم رواجاً في مختلف الأسواق. كما توصّلوا إلى صب البرونز ونقشه وأنتجوا منه أوانٍ متقنة لدنان الخمر والمباخر والمرايا والمزهريات والتماثيل وغيرها... أما النحت فقد ارتبط عندهم بالديانة وحين فقد إلهامه الديني حوالي القرن التاسع ميلادي، ثار ضده رجال الدين وهذا ما أدى إلى تراجعه واضمحلاله.

ولم تعرف الحضارة الصينية قبل انتشار البوذية سوى القليل من المباني الضخمة بسبب افتقار البلاد إلى الأرستقراطية الوراثية وإلى طبقة الكهنة القوية والغنية. من ثم شهدت الصين موجة بناء لبعض المعابد الضخمة، وأهمها هيكل «بوذا» الذي يعتبر آية في فن العمارة الصيني. وكانت الهياكل تبنى في مواقع تشرف على المدينة بشكل أبراج ذات أضلاع ثمانية. وكانت حجارتها من الآجر، وكانت تبنى على قواعد حجرية ترتفع خمس طبقات أو سبعاً أو تسعاً. وتختلف مميزات البيت الصيني بين طبقة اجتماعية وأخرى: فبيوت الأغنياء واسعة تحيط بها الحدائق والبرك وتزينها العواميد الدقيقة والنوافذ المتشابكة والرفارف المقوّسة، بينما منازل الفقراء كئيبة مظلمة، مدخلها دهليز ضيق منخفض وأرضها من تراب. وغالباً ما تكون غرفة واحدة تتقاسمها العائلة مع الخنازير والدجاج والكلاب. وفي فن التصوير، فقد أجاده الصينيون وابتعدوا فيه عن

الحضارة الصينية

الحرف

الألوان القوية وركزوا على الشكل وتوخوا الانسجام والدقة في الخطوط.

وكان هدف الفنان الدائم الإيحاء وليس الوصف. واستخدم الصينيون في تصويرهم الورق والحرير ولكن الحروب التي شهدتها الصين أخفت الكثير من معالم هذا الفن.

أخيراً تعتبر الحضارة الصينية رائدة صناعة الخزف إذ لم تتمكن أية حضارة من مجاراتها في هذا المضمار. فقد عرفت الصين هذه الصناعة منذ القديم وتطورت مع أسرة «هان» إلى أن أنشئت في القرن السادس ميلادي مصانع كبيرة للخزف. وبلغت هذه الصناعة ذورتها تطوراً وشهرةً ومجداً مع أسرة «سونغ» فأنتجت الأباريق والجرار والمزهريات وحين انتشرت عادة شرب الشاي، تطورت صناعة الخزف وأصبحت من أغلى الهدايا التي يتبادلها الملوك في العالم.

الحضارة الكنعانية

الحضارة الكنعانية

يطلق اسم الكنعانيين على عدد من القبائل السامية التي نزحت عن الجزيرة العربية منذ سنة ٣٠٠٠ق.م. ونزلت في القرن الغربي من الهلال الخصيب الذي يمتد من سفوح جبال آسيا الصغرى شمالاً إلى صحراء سيناء جنوباً ومن هذه القبائل: الأموريون في سوريا الداخلية من البقاع حتى الجزيرة الفراتية، والفنيقيون سكان المناطق الساحلية الممتدة من الجبل الأقرع إلى جبل الكرمل على شاطىء البحر الأبيض المتوسط، والمؤابيون في شرق البحر الميت، والآدوميون في جنوب فلسطين، والحاصوريون بين بحيرة طبريا ونهر الليطاني، ويعتبر بعض المؤرخين العبرانيين أنفسهم كنعانيين. وقد أطلق اسم كنعان على البلاد التي يقيمون فيها. وبلاد كنعان هذه هي جسر بين قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا، وممرٌ للفاتحين والغزاة بحكم موقعها بين مناطق آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين ومصر، حيث قامت امبراطوريات كبرى أخذت تتصارع في ما بينها من أجل التوسع والسيطرة. وهذا ما ألحق ببلاد كنعان ضرراً فادحاً: فقد كانت تسلكها تلك الدول المتحاربة في هجومها على بعضها البعض. وكانت تتحول في أحيان كثيرة إلى ساحة لمعارك طاحنة بين جيوش تلك الدول فيصيبها الضرر الجسيم.

لكن بلاد كنعان كانت طريقاً للتجارة العالمية كما كانت ممراً للفاتحين. فقد التقت فيها مختلف الحضارات القديمة وتفاعلت تفاعلاً إيجابياً مثمراً، انعكست نتائجه على حضارة الكنعانيين. فالمناطق الجنوبية من كنعان، أي فلسطين والقسم الجنوبي من فنيقية وخاصة جبيل، خضعت للنفوذ المصري عدّة قرون فتأثرت بالحضارة المصرية أكثر من سواها من الحضارات. والأموريون وكنعانيو الشمال تأثروا بحضارات الحثيين والمتانيين والحوريين. وظهر أثر الحضارة الإيجية واضحاً في المناطق الكنعانية المواجهة للبحر الأبيض المتوسط.

يبقى أن نذكر أن المؤثرات الحضارية الخارجية لم تضعف الحضارة الكنعانية ولا أفقدتها طابعها العام، بل أغنتها وقوّتها وجعلت قدرتها على امتصاص تلك المؤثرات وصهرها في بوتقتها قوية راسخة. والحضارة الكنعانية بحد ذاتها تتألف في عدد من الحضارات يوازي عدد المجتمعات البشرية الرئيسية التي تألف منها الشعب الكنعاني: فقد كان للفنيقيين وللأموريين وللآدوميين وللعبرانيين حضارتهم الخاصة بهم التي لم تكن متشابهة في كل أجزائها وتفاصيلها أو متساوية في درجة تقدمها وازدهارها. ولكنها كانت تملك خصائص متشابهة ومميزات أساسية مشتركة أكسبتها طابعا كنعانياً وسامياً.

وقد حافظت القبائل الكنعانية على استقلاليتها فلم تتحد معاً لتكوّن دولة كبيرة واحدة، بل عاشت بشكل دويلات صغيرة متفرقة تشبه نوعاً ما، الممالك الدينية السومرية قبلها، والدويلات المدينية اليونانية بعدها. ولأن هذه الدويلات الكنعانية كانت ضيقة المساحة محدودة الإمكانيات فقد اكتفت بجهاز إداري ضيق مختصر بدل نظام الحكم المعقد والواسع.

ونظام الحكم عند الكنعانيين مرَّ بأدوار ثلاثة: في الدور الأوّل، ويقع في حوالي الألف الثالث قبل الميلاد، كان الحكم في القبيلة أو الدويلة لأحد أفرادها الكبار الحكماء الشجعان، وكان يطلق عليه لقب شيخ القبيلة، ولم يكن الحكم وراثياً لأن مؤهلات الشيخ لم تكن الحسب والنسب فقط. بل الكفاءة الشخصية والقدرة على مواجهة المصاعب والأزمات بدراية وسرعة ولباقة. وكان اختيار الشيخ يتم بوحي من الله أو شبه إجماع من أفراد القبيلة. ودخل النظام الملكي على الحضارة الكنعانية في الدور الثاني، أي في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، وحل الملك محل شيخ القبيلة وأصبح يجمع في شخصه السلطتين المدنية والدينية وأصبح الحكم وراثياً. أما في الدور الثالث، وقد بدأ في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، فقد دخل النظام الإقطاعي إلى كنعان، واشتد في ذلك الوقت غزو

الحضارة الكنعانية

المصريين والأشوريين والحثيين لبلاد كنعان، وأحس الكنعانيون بوجوب الدفاع عن أنفسهم وأراضيهم وأنشأوا جيوشاً نظامية حديثة. وأصبح القواد العسكريون، مع الوقت، يتمتعون بامتيازات كثيرة جعلت منهم طبقة اجتماعية تتميز بالغنى الوافر وامتلاك الأراضي الواسعة والاستئثار بالمناصب الرفيعة في الدولة. والتقت مصالح هذه الطبقة ومصالح الملك فتعاونا، ونشأ عن ذلك نظام إقطاعي استأثرت فيه طبقة عليا محدودة العدد بالسلطة والمغانم المادية والمعنوية وأصيبت الطبقة الفقيرة بالحرمان والاستغلال.

وكانت بيوت الكنعانيين من اللبن وهياكلهم وقصورهم من الحجر. أما السقوف فكانت من جذوع الأشجار يمدُّونها فوق الجدران ويضعون عليها القضبان والأعشاب ثم يغطونها بالتراب. وكانوا في أيام الشتاء يرصون التراب جيداً بمحادل حجرية حتى يتماسك، ويفرشون أرض البيت بطبقة من الطين المصقول التي كانت تقوم مقام البلاط تماماً، كما لا يزال بعض الناس يفعلون في القرى اليوم. ولم يكن في كنعان عمران يوازي بضخامته وروعته عمران بابل وأشور وفارس ومصر. فهيكل البعل، مثلاً، في أوغاريت، وهي من أهم المدن الكنعانية غنى وقدرة، بلغ طوله ٤٠ متراً وعرضه ٢٠م. كما لم تزد مساحة قصور الملوك عن عشرة آلاف متر مربع.

ورغم اختلاف موارد الرزق عند الكنعانيين باختلاف المناطق، كانت الزراعة مورداً عاماً مشتركاً. فكان الجميع يزرعون القمح والشعير في الخريف ويعنون بأشجار الزيتون والتين والعنب ويصنعون الخمور منها ويستخرجون الزيت ويجففون أنواع الفاكهة. كما كانوا يحفظون الغلال في أوانٍ من الطين أو الفخار إلى فصل الشتاء.

وعرفت جميع المناطق الكنعانية كيف تصنع ما تحتاج إليه من أسلحة وأثاث وآلات زراعية وصناعية وبعض الكماليات وكانت مواد هذه الصناعات الأوّلية، في البدء، تتكون من الحجارة والأخشاب والعظام، ومع ظهور معادن النحاس والذهب والفضة والبرونز في مصر وبلاد ما بين النهرين تعلم الكنعانيون استخدامها. ثم شاع في الألف الأخير قبل الميلاد استخدام الحديد في صنع الأدوات المختلفة. كما استخدم الكنعانيون الذهب والفضة والحجارة الكريمة في صنع أدوات الزينة.

وتألف لباس الكنعانيين من رداء شبيه بالفستان كان الأغنياء يخيطونه طويلاً والفقراء قصيراً وكانوا يشدونه بحزام من قماش أو من جلد فوق الخصر. ثم استعاضوا عنه بدبوس من معدن. كما لفوا رؤوسهم بمناديل شبيهة بالكوفية والعقال في الزي العربي الحالي. وانتعلوا جنادل من جلد متنوعة الأشكال والألوان. واهتمت نساؤهم بأدوات الزينة فاقتنت العقود والأقراط والأساور والخلاخيل والمرايا النحاسية والكحل والمساحيق للوجه والعطور وما شابهها.

وارتكزت ديانة الكنعانيين على عبادة قوى الطبيعة ومظاهرها وتميَّزت بتمجيد مظاهر الخصب والإنتاج. وكانت آلهتهم متعددة ومتباينة مقاماً وأهمية وعملاً، أهمُّها اثنان: إله السماء «إيل» وإلهة الأرض «عشتاروت»، يأتي بعدهما الإله «بعل» إله الرعد والبرق والمطر والعواصف. أما الخصب فكانت له إلهات عديدات أشهرها «عناة» شقيقة بعل و«أشيرا» زوجته أوغاريت. وكان هناك آلهة كثيرة منها ما هو مشترك ومعبود في جميع أنحاء كنعان ومنها ما هو محليّ يختص بقبيلة ما أو منطقة معينة. لكن الجميع كانوا يمثلون تلك الآلهة بتماثيل صغيرة أو بأنصاب حجرية تقام في أماكن العبادة ونظراً لعجز الدويلات الكنعانية عن تحمل نفقات باهظة لبناء الهياكل الشبيهة بهياكل بابل وأشور ومصر فقد أتت هياكلهم بسيطة متواضعة.

وتأثر الكنعانيون بالآداب والفنون التي ازدهرت في مصر وبلاد ما بين النهرين فأتت فنونهم تقليداً لفنون مصر والعراق وآسيا الصغرى. ونسجوا الملاحم والأساطير والأناشيد والتراتيم الدينية وأشهر ما عُثر عليه ملحمة «البعل» الشبيهة بملحمة جلجامش وأسطورتا «أقهات بن دانيال» و«كارت ملك صيدون».

الحضارة الفينيقية

الحضارة الفنيقية

تشكل الحضارة الفنيقية إحدى حضارات العالم القديم الكبرى. فقد أسهمت في بناء التراث الإنساني ولعبت دوراً رائداً في تاريخ الشرق القديم فاتحة آفاقاً جديدة في الاقتصاد والانتشار والعلم والإبداع. إذ اقترن اسم الفنيقيين بالحرف الذي نشروه وأصبح أساساً لأبجديات العالم المتمدن. واقترن بالبحر إذ كان الفنيقي تاجراً نشيطاً وبحاراً رائداً وصلة وصل بين حضارات العالم القديم. واقترن كذلك بالجبل الذي حوّلوا صخره إلى زرع وشجره إلى سفن، فإذا بلبنان مصدر وحي للشعراء والأنبياء.

وتمتد بلاد الفنيقيين من جبل الكرمل جنوباً حتى رأس شمرا شمالاً مشرفة على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط. وهي تتألف من مناطق ثلاث: الساحل، وسهوله ضيقة متقطعة بسبب قرب الجبل من البحر، الجبل، وانحداره بطيء نحو الغرب ممّا يجعل الأمطار غزيرة عليه وغاباته كثيفة، كما تخترقه عدّة ممرات تصل بين الساحل والداخل، والداخل منخفض بين سلسلتين من الجبال وفيه سهول خصبة تفيض بالغلال.

وقد كانت بلاد الفنيقيين، نظراً لموقعها الجغرافي وجودة مناخها، منذ أقدم العصور موطناً للإنسان. فقد عثر على آثار كثيرة يعود تاريخها إلى العصور الحجرية القديمة ويعود عمر بعضها إلى أكثر من مئتي ألف سنة: فقد وجد في وادي نهر إبراهيم هيكل عظمي يرجع تاريخه إلى حوالي ٨٤ ألف سنة. واكتشف سنة ١٩٣٨ في كهف في «كسار عقيل» بالقرب من أنطلياس هيكل عظمي لصبي عمره حوالي ٨ سنوات عاش قبل حوالي ٣٠ ألف سنة ق.م. لكن تاريخ المنطقة الفعلي بدأ مع وفود الشعب الكنعاني إليها.

ولم يتحد الفنيقيون ليشكلوا دولة قوية واحدة، بل انقسموا إلى عدة دويلات صغيرة يتمتع كل منها بالسيادة والاستقلال. وأسباب ذلك تعود إلى طبيعة لبنان الجبلية ومرتفعاته الصعبة المرتقى وأوديته السحيقة الوعرة المسالك. فلم يكن سهلاً على الفنيقيين تذليل هذه العقبات الطبيعية وتأسيس دولة كبيرة موحدة. واستقرت كل فئة منهم في بقعة تلائمها من الساحل وتفردت في تدبير شؤونها. وكان نظام الفنيقيين قبلياً صرفاً وكانوا يكرهون الحروب ولا يحبون التعدي على سواهم، فلم يشعروا بأهمية التضامن الصحيح والاتحاد الكامل إلاّ في ظروف دفاعية. وانصب اهتمامهم على توسيع تجارتهم. لهذه الأسباب كانت للفنيقيين ممالك صغيرة هي: مملكة جبيل، مملكة صيدون، مملكة صور ومملكة أرواد. وكانت كل مملكة تتألف من إحدى هذه المدن ومن المناطق الساحلية والجبلية المتاخمة لها. وكان لكل منها استقلالها الإداري التام وتنظيمها الخاص ولم تتدخّل في شؤون الدويلات الشقيقة.

هذا الانقسام لم يمنع الفنيقيين من الشعور بأنهم أهل وإخوان خاصة في

الهياكل العظمية

الحضارة الفينيقية

ساعات الخطر، ولم يحل دون تفاهمهم وتحالفهم لمجابهة خصم ما أو لردّ عدوٍ مشترك. في أول الأمر، كانت مملكة صيدون تحتل مركز الزعامة والقيادة بين الدول الفنيقية، ولكن بعد سقوطها في القرن الثاني ق.م انتقلت الزعامة إلى صور فأسّست اتحاداً سياسياً يضم جميع المدن الفنيقية، وازدادت، بفضل هذا الاتحاد، قوتها العسكرية والمعنوية ووسّعت ممتلكاتها وزادت عدد مستعمراتها ووقفت بحزم في وجه أعدائها وحافظت على استقلالها التام وحريتها الكاملة بضعة قرون. ففي معركة قرقر، مثلاً، التي حصلت على العاصي سنة ٨٥٤ق.م صد الفنيقيون المتحدون بمساعدة بعض حلفائهم الغزاة الأشوريين وأوقفوا زحفهم نحو الساحل.

وفي أيام الاحتلال الفارسي، أي بين سنة ٥٣٩ وسنة ٣٣٣ق.م أعاد الفنيقيون تنظيم تحالفهم واتحادهم. وكانوا يعقدون اجتماعات سنوية في مدينة طرابلس للتداول في القضايا الهامة وللبحث في المصالح المشتركة بينهم. وكان الملوك الفنيقيون يحضرون لتلك الاجتماعات بمعونة عدد كبير من رجال الدين والسياسة البارزين ومن الموظفين الكبار في كل دولة. ولكننا لا نعلم الشيء الكثير عن شروط تلك المحالفات التي كانت تعقد بين الممالك الفنيقية، ولا عن التزامات كل دولة، ولا عن طرق اتخاذ المقررات ووسائل تنفيذها. ورغم ذلك كانت تحل الكثير من المسائل المعقدة عند الفنيقيين بروح التفاهم والإخاء، لكنها لم تقض على روح الانقسام المتأصلة في نفوسهم.

وكان شكل الحكم في الدويلات

الحضارة الفينيقية

الفنيقية ملكياً، بوجه عام، وكان الملك يحكم طول حياته ثم يخلفه أولاده أو أحفاده بعد مماته. وفي حال انقراض نسله كان الفنيقيون ينتخبون ملكاً جديداً عليهم من أبناء إحدى الأسر العريقة. وحدث مرّة أن شغر عرش صور، فإذا بالصوريين ينتخبون رئيساً لدولتهم يدعى السافط وكان يتخلى عن الحكم لمن ينتخبه الشعب بدلاً منه. استمر الحكم في صور على هذا المنوال إلى أن عادت الملكية إلى سابق عهدها. كما ألغى القرطاجيون النظام الملكي في بلادهم واتبعوا نظام الانتخاب المذكور آنفاً.

نذكر أن الملكية في فنيقية لم تكن مطلقة كما كانت في مصر وبابل وأشور، بل كانت سلطة الملك مقيدة بعدّة أمور، أهمها مشيئة رجال الدين وإرادة المجالس التمثيلية. فرجال الدين الكبار كانوا يحضّرون الاجتماعات السنوية التي تعقدها المدن الفنيقية في طرابلس ويشتركون في المناقشات. وقيّدت سلطة الملوك الفنيقيين المجالس التمثيلية التي كانت تنتخب لتساعد الحاكم في إدارة أمور الدولة فقد كان في كل مملكة مجلس شيوخ يتألف من مئة عضو تقريباً من أشراف البلاد وأغنيائها. أما في قرطاجة فكان يوجد إلى جانب السافط مجلسان: مجلس شيوخ من الأشراف والأغنياء ومجلس عموم يمثل أصحاب الأملاك من أراضٍ ودور وما شابهها. وكان أعضاء المجالس يشتركون مع الملك في بحث جميع شؤون الدولة

> **كان بعض أعضاء مجلس الشيوخ يعنى بجمع الجنود وتدريبهم وتجهيز الجيش بأحدث الأسلحة والمعدات ليكون دائماً على استعداد لرد كل اعتداء عن البلاد. وكان البعض الآخر يعنى بتنظيم علاقات البلاد بالدول الأجنبية وكان غيرهم ينصرف إلى اهتمامات أخرى مماثلة.**

ويتعاونون معه على تنفيذ سياستها. هكذا يمكننا القول أن نظام الحكم في فنيقية كان شبه ديمقراطي: فدفة الحكم كانت محصورة بأيدي الملك ورجال الدين وأبناء الطبقات العليا والأغنياء.

وكانت المستعمرات التي أسسها الفنيقيون، المستقلة وغير المستقلة على أطيب العلاقات وأوثق الروابط مع فنيقية الأم وذلك لسببين: الأوّل عاطفي، إذ كانت تجمع بين أبناء المستعمرات وسكان البلاد روابط قربى، ويشعرون بعاطفة أخوية تشدهم إلى بعضهم البعض، فكانوا يتعاملون بروح المحبة والتفاهم ويهبّون في ساعات الخطر والخوف إلى نجدة المحتاج ونصرة الضعيف منهم. فالفنيقيون الذين عاونوا قمبيز الفارسي على فتح مصر في القرن السادس قبل الميلاد رفضوا أن يتقدموا معه نحو الغرب ويعاونوه على إخضاع أقربائهم القرطاجيين. وأذعن الملك الفارسي لهم ونجت قرطاجة من محنة عظيمة. كذلك فكرّ بعض القرطاجيين بإرسال نجدات لمدينة صور حين كانت جيوش الاسكندر تحاصرها وتضيّق عليها الخناق. لكن صور سقطت قبل تنفيذ تلك الفكرة. أما السبب الثاني فديني، ذلك أنه كان لكل مدينة فنيقية إلهها الخاص واستمر الفنيقيون في مستعمراتهم الجديدة في عبادة آلهتهم القديمة ولم يقطعوا علاقاتهم مع مراكزهم الأصلية في المدن الفنيقية. فالقرطاجيون ظلوا يعبدون الإله ملقارت، إله صور، وَحجوُّا إلى هيكله في صور حاملين معهم الذهب والفضة وغيرها من قرطاجة إلى الإله العظيم. وكانوا يرسلون أحياناً إلى صور عُشر الغنائم التي يكسبونها في الحروب اعترافاً منهم بفضل ملقارت ومساعدته لهم على أعدائهم. هكذا كانت تلك الروابط السياسية والعاطفية والدينية بمثابة حلف غير رسمي يجمع بين المستعمرات وفنيقية الأم.

وتبين الآثار الفنيقية الباقية: من محتويات المدافن وبقايا الهياكل والأنصاب والتماثيل والنقوش، ومدوّنات عثر عليها المنقبون في أوغاريت أن الفنيقيين تأثروا بعوامل الطبيعة ومظاهرها الخارقة فعبدوها كغيرهم من شعوب الشرق القديم.

ولأن عناصر الطبيعة كانت متعددة فقد عبدوا آلهة عديدة. منها مثلاً: آلهة السماء، الأرض، البحر، الشمس، القمر، المطر، العواصف والحيوانات. كما ألّهوا ملوكهم وأبطالهم والمشاهير من رجالهم ونسائهم وجعلوا أيضاً لكل ناحية من نواحي النشاط الإنساني إلهاً، فكان لهم: إله الحرب، إله شفاء الأمراض،

الحضارة الفينيقية

إله الصيد، إله الملاحة، إله الزراعة، إله الحدادة، إله الموت وإله الخصب، وقد استأثرت مظاهر تجدد الحياة والخصب باهتماماتهم واحتلت المكانة الأولى في نفوسهم. فقد لاحظوا أن النبات يخضر ويزهر في الربيع وينضج في الصيف ويذبل في الخريف ويموت في الشتاء. والإنسان أيضاً يولد، يشب، يشيخ ويموت. وقد اعتبر الفنيقيون هذا التجدد الدائم المتجسد في الخصب والإنتاج من أعظم مظاهر الطبيعة قيمة وأجلها شأناً وجدارة بالعبادة والتقديس. فألهوا الخصب وقدّسوه بشخص تموز، أو أدونيس، الإله الشاب البطل و«عشتروت الإلهة الأنثى الجميلة.

ولم يذكر الفنيقيون آلهتهم بأسمائها الشخصية خوفاً منها واحتراماً لها بل أطلقوا عليها ألقاباً فيها صفة من صفاتهم أو معنى من معانيهم. «فبعل» مثلاً تعني المالك أو الرب و«آدون» تعني السيد و«عليون» معناها العالي والقدوُس وما شابه. ونحن ما زلنا على هذه العادة. وكانوا، للتعبير أكثر عن احترامهم للآلهة، يتسمُّون بأسماء تفيد العبودية والخضوع مثلاً: عبد ملقارت وعبد أشمون وبن بعل.

كما تصور الفنيقيون آلهتهم بشراً مثلهم وتحدثوا عنهم وعن أعمالهم. وكان ذلك طبعاً وهماً وتخيلاً لأن تلك الآلهة لم توجد أصلاً، فعمدوا، مثل بقية الشعوب القديمة إلى ابتداع أشياء تمثلهم وترمز إليهم. ولأنهم لم يحسنوا فن الرسم والنحت، فقد صنعوا أنصاباً عمودية بسيطة من حجر ووضعوها في أقدس مكان داخل الهياكل وعبدوها على أنها رمز الإله وممثله. وقد وجد في جبيل نصب من هذا النوع حفر عليه اسم الإله «رشف» وهو موجود الآن في المتحف الوطني في بيروت، كما صنع الفنيقيون تماثيل صغيرة من فخار أو من معدن ترمز إلى آلهتهم وتعبر عن طبيعة الإله ونوع عمله.

ووردت في النصوص القديمة وفي الآثار أسماء عشرات الآلهة التي عبدها الفنيقيون مثل الإله «إيل» أبو الآلهة وسيِّدها جميعاً. وكانوا يعتقدون أن مقرّه كان في أفقا الواقعة بالقرب من نهر إبراهيم في القسم الأوسط من جبال لبنان.

وكان للفنيقيين كثير من الأبعال والبعلات. إذ كان لكل مدينة أو قرية تقريباً إله خاص يطلقون عليه اسم بعل مضافاً إلى المكان الذي تجري عبادته فيه. مثلاً بعل الجبل وبعل بيروت وبعلة جبيل. ولا يزال اسم بعلبك (بعل بك) شاهداً حياً على عبادة الأبعال عند الفنيقيين.

هناك أسماء مشهورة أخرى مثل «ملقارت» إله مدينة صور وله هيكل مشهور فيها ويحتفل بعيده مرة كل

تموز أو أدونيس: إنه أشهر آلهة الفنيقيين وأحبها إليهم كان الكنعانيون يدعونه «أدون» ومعناه «السيّد» ثم أخذه عنهم اليونانيون وحرّفوا اسمه إلى «أدونيس» أي «سيدي». وقد اشتهر بهذا الاسم ليس فقط في فنيقية بل خارجها أيضاً. وهو يمثل الشمس والحياة والنمو واخضرار الربيع. وقد انتشرت عبادته في جميع أنحاء فنيقية، لكن مركزها الرئيس كان في بيبلوس (جبيل) ووادي أدونيس المعروف اليوم باسم نهر إبراهيم.

وتقول إحدى الأساطير المنسوجة حول هذا الإله الشاب أنه خرج مرّة للصيد في غابات وادي نهر إبراهيم فلقي خنزيراً برياً واشتبك معه في صراع عنيف انتهى بمقتل الاثنين معاً. وسالت دماء أدونيس فصبغت ماء النهر وعرفت حبيبته عشتروت ما جرى فحزنت حزناً عميقاً، ونزلت إلى العالم السفلي عالم الأموات وتوسلت أصحاب الشأن من الآلهة ونجحت في مسعاها وأعادته إلى الحياة بعد حين.

ويرمز موت هذا الإله إلى السكون الذي يصيب الطبيعة في فصلي الخريف والشتاء، فيما ترمز قيامته إلى تجدُّد الحياة والربيع.

عشتروت: كانت مشهورة جداً وكانت تمثل عنصر الأنوثة في الكون. وكان الفنيقيون يعتبرونها أم الطبيعة وربة القمر والجمال وإلهة الحب والخصب ومعشوقة أدونيس. وقد عبدتها شعوب كثيرة غير الفنيقيين وعُرفت عندهم بأسماء أخرى هي أفروديت، فينوس أو الزهرة. وقد انتشرت عبادتها في معظم الأنحاء الفنيقية وكان لها هياكل عدّة في وادي أدونيس أعظمها الهيكل القائم بالقرب من مغارة أفقا.

الحضارة الفينيقية

آثار المدينة الفينيقية التي عثر عليها في بيروت

سنة. والإله «أشمون» واشتهرت عبادته في صيدون وهو إله الشفاء، يريح المرضى والمتألمين ويجلب لهم الصحة والعافية. وكان رمزه حيّتين ملتّفتين على عصا، أي الرمز ذاته الذي يتخذه الأطباء اليوم شعاراً لمهنتهم. والإله «رشف» إله البرق والرعد. والإله «داجون» إله الزراعة والنبات. والإله «موت» إله الموت وملك العالم السفلي.

وقد شيّد الفنيقيون الهياكل في المدن والقرى وعلى المرتفعات. ولم يكن للهياكل شكل مُوحّد: إذ كانت هياكل المدن أكثر ضخامة وفخامة من هياكل القرى. وكان الفنيقيون في العهد الأول يقيمون حائطاً من الحجارة العادية حول كل نبع مقدس أو شجرة مباركة حل فيها الإله، فيصبح الحائط وما وراءه هيكلاً يأتي إليه المتدينون للصلاة. ثم أصبحوا يضعون الإله أو ما يمثله من أنصاب وسط ساحة عامة ويقيمون من حوله ومن فوقه بعض الحجارة لحمايته من المطر والحر. وقد اكتشف مثل هذا المعبد في عمريت مقابل جزيرة أرواد.

ومع الزمن تطور بناء الهياكل فأصبحت أبنية عادية متوسطة الحجم. وكان أمام الهيكل وحوله ساحة واسعة مكشوفة تقوم على جانبيها مساكن كهّان الهيكل وخدّامه والموظفين التابعين له. ومهمّة هؤلاء كانت: إقامة الصلوات، ترؤس الاحتفالات، استقبال الزائرين، الاهتمام بنظافة المعبد والمحافظة على أمواله وكنوزه. وكان لرجال الدين احترام كبير في نفوس الشعب ونفوذ عظيم في دوائر الحكومة.

الحضارة الفينيقية

ناووس من صور

ويؤلف تقديم الهدايا وتقريب الضحايا للآلهة جزءاً مهماً من طقوس ديانة الفنيقيين، لاعتقادهم بأن الآلهة لن ترضى عنهم وتستجيب دعاءهم دون ذلك. وكان نوع التضحية وأهميتها يتوقفان على أهمية الأمر الذي يطلبونه من الإله. وهذا ما جعل التقديم ثلاثة أنواع من حيث الأهمية:

ضحايا بشرية تقدَّم في الساعات الحرجة والأحوال العصيبة. وأفضلها كانت في عيني الإله، حسب اعتقادهم، الولد البكر أو ملك البلاد أو رئيس القبيلة. وقد استخدم الفنيقيون طرقاً مختلفة لتقديم الضحايا البشرية، فكانوا يلقون بالضحية في نار متأججة أو يربطون يديها ورجليها ويرمون بها من مكان عالٍ أو يدفنونها في أساس بناء جديد يريدون تشييده. فقد ضحى سكان بيروت الأقدمون بأحد أبنائهم حين أرادوا تشييد جسر كبير على النهر ودفنوا عظامه في إحدى الركائز ليحفظ الإله الجسر سليماً قوياً. وقد اكتشفت تلك العظام في العقد الرابع من هذا القرن حين هدمت بلدية بيروت الجسر القديم. كما كان أغنياء قرطاجة يتبنون العبيد الصغار تجنباً للتضحية بأولادهم.

وكانوا يذبحون الحيوانات ويصبون دماءها على الأنصاب ثم يحرقون لحمها على المذابح في حفلة دينية خاصة يتخللها رقص وترتيل.

وكان المتعبدون يقدمون إلى الآلهة أطيب البخور وأجود الخمور وألذ الفاكهة وأنضج الحبوب. وكان يرد إلى الهيكل الكثير من المصابيح والتماثيل والمذابح والمزهريات وما إليها من تقديمات ونذور.

وكان الفنيقيون يعتقدون أن الروح البشرية لا تضمحل عند الموت ويعتقدون بأن الروح لا تفارق الجسد مفارقة كلية عند الموت بل تلازمه وتبقى قريبة منه في مدفنه. فكانوا يعنون بدفن الميت عناية عظيمة في مكان أمين لا تصل إليه أيدي اللصوص والعابثين. كما كانوا يضعون جثث الملوك والأغنياء في نواويس حجرية غليظة، مثل التي استخرجت من مدافن جبيل وصيدا وصور. ومتوسطو الحال كانوا يدفنونهم في توابيت خشبية ينقشون عليها اسم الميت واسم الذي تولى دفنه. وكان أنسباء الميت يزورون

الحضارة الفينيقية

القبر ويضعون عليه بعض الهدايا من زهور وطعام وشراب لاعتقادهم بأن روح الميت تنشرح لهذه العاطفة وتسر بتلك الهدايا.

● الاقتصاد الفنيقي

منذ استقرارهم في هذه البلاد، راح الفنيقيون يبحثون عن موارد العيش فيها. وأول ما لاحظوه خصوبة التربة ووفرة المياه واعتدال المناخ. هكذا أنصرف البعض منهم إلى الاهتمام بالزراعة: قلعوا الصخور، حرثوا الحقول، زرعوا القمح والشعير وغيرها من أنواع الحبوب، وغرسوا بساتين الزيتون وكروم العنب والتين والفاكهة الأخرى. وغرسوا أشجار النخيل في مستعمراتهم في أفريقيا وجنوا الغلال الوفيرة والثمار الشهية. وأنشأوا المعاصر والمعامل واستخرجوا الزيوت الطيبة والخمور اللذيذة. ووصلت شهرة زيت فنيقية وخمرها وفاكهتها إلى المصريين فأرسلوا يطلبون هذه البضائع وانفتح أمام الفنيقيين باب جديد للكسب والإنتاج.

وربى الفنيقيون قطعان الغنم والماعز والبقر واستخدموا الحمار والفرس لحمل الأثقال.

ولأن الفنيقيين أدركوا صعوبة الاعتماد على الزراعة وحدها بسبب ضيق السهول ووعورة الجبال، فقد فتشوا عن مورد آخر يجلب لهم الثروة والغنى. ولأنهم وجدوا غابات كثيفة من أشجار الأرز والشربين والسنديان وغيرها تغطي الجبال والسفوح والسهول حتى شاطىء البحر. ولأنهم أدركوا أن خشب تلك الأشجار جميل قوي يصلح لأغراض كثيرة، فقد شرعوا يقطعون الأشجار ويصنعون منها السفن أو يصدرونها إلى البلدان الأخرى وخاصة إلى مصر، لأنها كانت بحاجة ماسة إلى الأخشاب بسبب قلة الأشجار في أراضيها الصحراوية. هكذا حمل الفنيقيون خشب بلادهم وباعوه إلى أثرياء مصر الذين استخدموه في صنع الأثاث وتزيين الهياكل وبناء السفن والبيوت وقد نشطت تجارة الأخشاب بين فنيقية ومصر، حيث كانت المراكب تأتي بكثرة إلى سواحلها لتحمل منها جذوع الأشجار الضخمة.

وتعدّت تجارة الأخشاب مصر إلى بلدان أخرى كانت قد سمعت بشهرة الخشب الفنيقي. هكذا أرسل سليمان الحكيم، ملك العبرانيين، رسالة إلى حيرام ملك صور، حين أراد أن يبني هيكله في مدينة أورشليم، جاء فيها: «أرسل إليّ خشب أرز وسرو وصندل من لبنان لأني أعلم أن عبيدك ماهرون في قطع خشب لبنان. وليعِدُّوا لي خشباً كثيراً فالبيت الذي أبنيه عظيم وعجيب».

كما استخدم الفنيقيون الأخشاب لبناء المراكب والسفن التي مخروا بها عباب البحار ووصلوا إلى أبعد حدود العالم القديم. وكانت سفنهم كثيرة بحيث كانت تعد من أقوى الأساطيل التجارية والحربية. وهنا نذكر أن الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان طلب إلى أبناء لبنان في القرن السابع الميلادي أن يبنوا له أسطولاً قوياً ليصون به مصالح دولته، فقطعوا الأخشاب وبنوا سفناً حربية ساهمت في قتال الأسطول البيزنطي.

لكن الفينيقيين اكتفوا بالقطع دون الزرع فأصبحت معظم تلال لبنان اليوم عارية وجباله جرداء. وأصبح يستورد الخشب من مختلف البلدان.

وارتبطت صناعة الفنيقيين بتجارتهم. إذ أنتج صنّاعهم ما يطلبه منهم التجار الذين كانوا يحملون إلى فنيقية المواد الأولية من معادن ومنسوجات وعاج وغيرها. وكان الصنّاع الفنيقيون يحوّلونها بحذقهم ومهارتهم إلى أشياء مفيدة وسلع جميلة تستهوي النفوس.

هكذا ازدهرت في فنيقية صناعات عديدة منها:

● صناعة بناء السفن

التي اتقنها الفنيقيون واستحدثوا طريقة لجعل هيكل السفينة متيناً قادراً على تحمل الأثقال والثبات في وجه الأمواج المتلاطمة والعواصف الهوجاء. ثم اخترعوا وسيلة جديدة لزيادة عدد المجاذيف في المراكب وتنظيمها في صفين أو أكثر يكون الواحد منهما أعلى من الآخر قليلاً فزادت سرعة سفنهم بفضل هذا التدبير وأمنوا شر القراصنة إلى حد ما. كما

الحضارة الفينيقية

أضافوا إلى مراكبهم بعض المعدات الحربية التي ساعدتهم في الدفاع عن أنفسهم في حال الاعتداء عليهم ومكنتهم من مهاجمة العدو وتحطيم سفنه.

● صناعة الأرجوان

برع الفنيقيون في صناعة ذلك الصباغ العجيب الذي اكتشفوه واحتكروا سر صناعته. فقد وفقوا إلى استخراج ذلك اللون من أصداف «المورکس». إذ كان في كل صدفة من هذه الأصداف القوقعية البيضاوية الشكل حيوان صغير تخرج المادة الأرجوانية من كيس كائن في القسم الأعلى من جسمه وقد جمع أهل صور مقادير كبيرة من هذه الأصداف وعصروا منها مادة الصباغ فسالت نقطة نقطة وحين تجمّع لهم من هذه المادة النادرة كمية حسنة وضعوها على النار ونقعوا الصوف فيها مرتين متواصلتين وعرّضوه لأشعة الشمس. فانقلب لون الصباغ أولاً إلى أصفر ثم تحوّل إلى أخضر ثم إلى أزرق وأصبح آخر الأمر أحمر أرجوانياً غير قابل للتغيُّر. وكان من عجائب هذا الصباغ أنهم كلّما غسلوا الصوف المصبوغ به أزداد لونه روعة وجمالاً. وبعد فترة أنشأ الفنيقيون وخاصة أهل صور مصانع للصباغ الأرجواني وأخذوا ينتجون الأقمشة الأرجوانية النفيسة التي تنافس الملوك وأصحاب الثروات على شرائها.

● التجارة والملاحة

لم تنحصر تجارة الفنيقيين على أرضهم بل تاجروا مع الشعوب القريبة منهم والبعيدة عنهم. ولهذا السبب أمّنوا وسائل النقل البري والبحري وسلكوا الطرق البرية والبحرية: وقد سلك الفنيقيون طريقاً ساحلياً أوصلهم شمالاً إلى آسيا الصغرى وأرمينيا وسواحل البحر الأسود وجنوباً إلى سيناء ومصر والجزيرة العربية. وسلكوا طريقاً داخلياً اتجه غرباً إلى سيناء ومصر والجزيرة العربية. وسلكوا طريقاً داخلياً اتجه شرقاً نحو بلاد ما بين النهرين وإيران والهند كما ذهبوا إلى الهند أيضاً عن طريق البحر.

أما نشاطهم البحري فكان واسعاً إذ طافوا المتوسط الشرقي والبحر الأسود والمتوسط الغربي وعبروا مضيق جبل طارق باتجاه المحيط الأطلسي. ودارت مراكبهم حول القارة الإفريقية وصولاً إلى المحيط الهندي. كما وجدت في القارة الأميركية كتابات فنيقية أكد صحتها علماء الآثار.

وكانت رحلاتهم التجارية تستغرق أحياناً سنوات كانوا يتجوّلون فيها في الجزر والمدن الساحلية والداخلية يبيعون بضائعهم ويعودون ببضائع جديدة يبيعونها إلى شعوب أخرى، وكانت صادراتهم من الأخشاب والخمور والصموغ والزيوت والمنسوجات وباقي المصنوعات وارداتهم من المعادن: ذهب وفضة وقصدير ونحاس، ومن الورق والقطن والعاج وغيرها من السلع. ولم تكن وارداتهم لاستهلاكهم المحلي فقط بل لتصديرها من جديد إلى كافة الشعوب التي تاجروا معها فإذا هم صلة وصل بين شعوب العالم القديم.

وقد لقب الفنيقيون بـ«شعب البحر» ووصفهم هوميروس بأفضل بحارة العالم. ويعود تفوقهم في الملاحة إلى طبيعة أرضهم الجبلية وصعوبة التنقل براً وغنى هذه الجبال بالأخشاب وموقعها على شاطىء البحر. ثم إنهم طوّروا وسائل الملاحة: فهم أول من اكتشف نجمة القطب الشمالي وتمكنوا بواسطتها من تحديد الجهات. وطوّروا صناعة السفن ووضعوا الخرائط وأوجدوا مبدأ خطوط الطول والعرض.

أما أبرز إنجازاتهم فكان قيامهم برحلات استكشافية. إذ طافوا بحار المتوسط والأسود والأدرياتيكي وعبروا شواطىء أفريقيا. ويذكر المؤرخ اليوناني «هيرودوتس» أن نخاو فرعون مصر، قد طلب منهم القيام بدورة حول القارة الإفريقية، في القرن السادس ق.م فأنهوا مهمتهم بنجاح خلال ثلاث سنوات سابقين الرحالة البرتغاليين بألفي سنة تقريباً.

وكان للقرطاجيين دور مهمّ في الرحلات البحرية. إذ قام أحد بحارتهم ويدعى «حنون» برحلة حول القارة الأفريقية. وأبحر آخر يدعى «هملكون» في القرن الخامس ق.م. في الأطلسي شمالاً حتى وصل إلى جنوب انكلترا. كما وجدت سنة

الحضارة الفينيقية

١٨٧٢ في باراهيبا في البرازيل كتابات فينيقية تدل على أنهم أوّل من وصل إلى القارة الأميركية.

وكان الفنيقيون يبنون وينشئون محطات تجارية لتسهيل عملهم، حيثما توجهوا، وقد تحوّل بعضها إلى مدن كبرى كان لها دور بارز في التاريخ القديم. هكذا بنوا في حوض البحر المتوسط الشرقي وفي آسية الصغرى وقبرص ورودس وكريت وجزر بحر ايجه محطات تجارية. كما نُسب إليهم تأسيس مدن يونانية عديدة أبرزها «طيبة» التي ينسب اليونانيون بناءها إلى «قدموس». وحين اشتدت المنافسة اليونانية ضدهم، نقل الفنيقيون نشاطهم إلى الحوض الغربي للمتوسط. وكانت صور زعيمة حركة التوسع هناك إذ حلّ أبناؤها في صقلية وسيطروا على مالطة وسردينيا والباليار وعلى شواطىء شمال أفريقيا، خاصة تونس حيث أسّسوا مدناً عديدة أبرزها «يوتيكا» و«قرطاجة». ونزلوا على شواطىء فرنسا فأسّسوا مرسيليا وعلى شواطىء اسبانيا فأسّسوا ترشيش.

• الأبجدية

إن أعظم خدمة قدّمها الفنيقيون للإنسانية كانت اختراع الحرف ونشره في العالم القديم، بحيث أصبح أساساً لأغلب أبجديات العالم. فحين احتاج الفنيقيون إلى تدوين أفكارهم وحفظها من الضياع، حاولوا اعتماد الكتابة ولأنهم كانوا تجاراً، فقد اطلعوا على طرق الكتابة عند المصريين وشعوب بلاد ما بين النهرين ونقلوها وكتبوا بها. فرسائل تل العمارنة مثلاً كتبت بالخط المسماري الأكادي. لكنهم حين وجدوا أن الكتابة الهيروغليفية تصويرية معقدة، سعوا إلى تبسيط الكتابة وهذا ما تطلب جهداً كبيراً. إذ درسوا المراحل التي مرّت بها الكتابة من تصوير وتجزئة الكلمة إلى مقاطع واختزال الصورة واستمرّوا في دراستهم هذه إلى أن اكتشفوا أن اللغة تحتوي على اثنتين وعشرين نبرة صوتية وضعوا لها صوراً مبسطة، وأصبحت الوسيلة الوحيدة للكتابة. وممّا يثبت أن الفنيقين هم مخترعو الأبجدية، ما ذكره المؤرخ هيرودوتس والحفريات التي حصلت سنة ١٩٢٣ في جبيل حين اكتشف ناووس الملك أحيرام وعليه نص متكامل للأبجدية وهو موجود الآن في المتحف الوطني في بيروت.

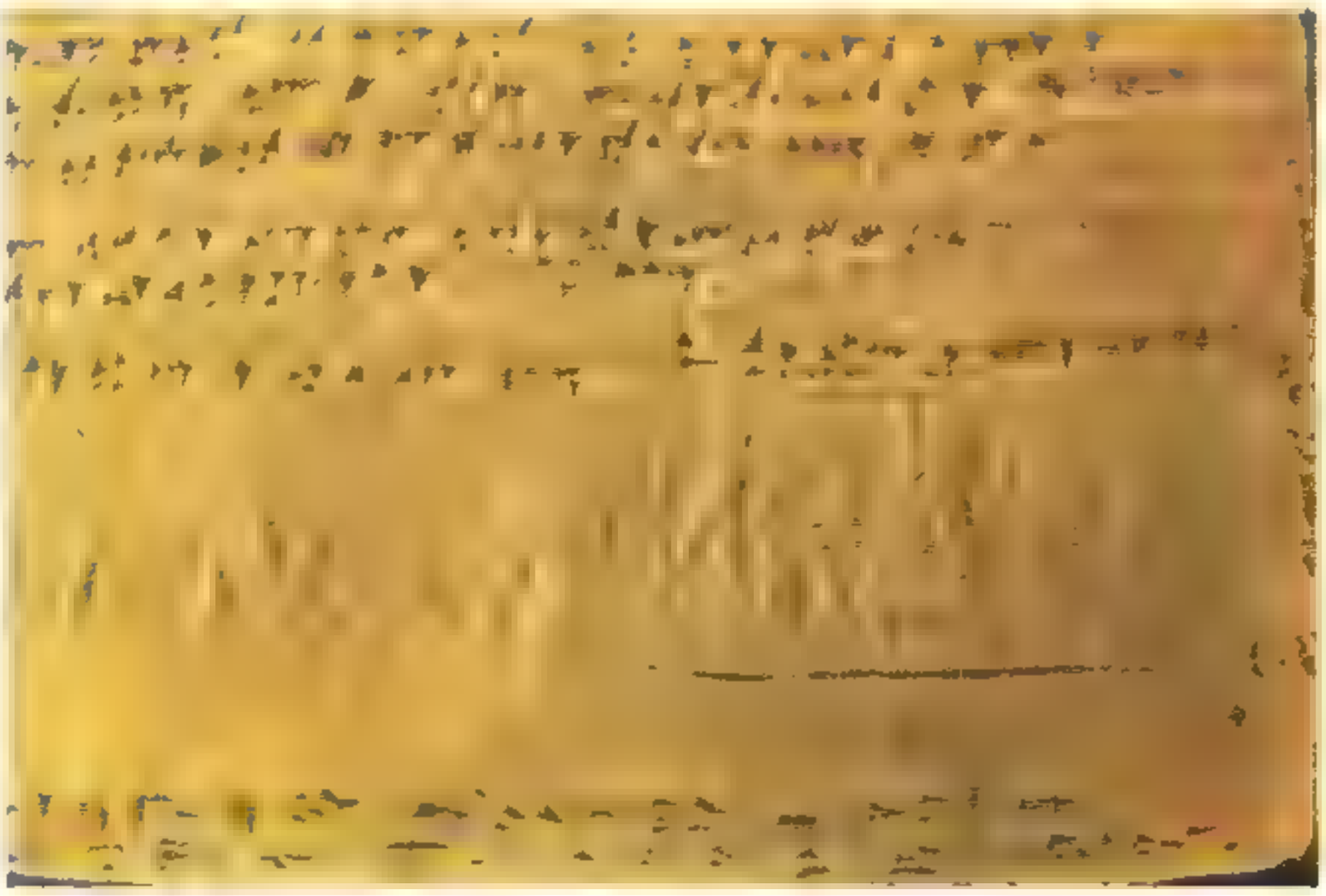

الحروف الأبجدية

قرطاجة

أسسها الصوريون محطة تجارية، تم تحولت مع الأيام إلى مدينة عظيمة ومركز امبراطورية واسعة، وقد حيكت الأساطير حول تأسيسها في أواخر القرن التاسع ق.م. ومفادها أن أليسار هي التي أسستها. ويعني اسم قرطاجة القرية الحديثة، إذ نمت بسرعة وازداد عدد سكانها حتى أصبحوا ٧٠٠ ألف ونشأت فيها مصانع السفن والدباغة والخشب والأسلحة والزيت والأقمشة ونمت أسواقها التجارية وتوسّعت وكثرت فيها المعابد... وبسبب ازدهارها هذا طمع بها جيرانها وحسدها البربر والإغريق والرومان وخاضت ضدهم تباعاً حروباً طويلة وهدّدت روما في عقر دارها بقيادة هنيبعل. وتمكّن الرومان من القضاء عليها بعد معركة زاما سنة ٢٠٢ق.م.

الحضارة اليونانية

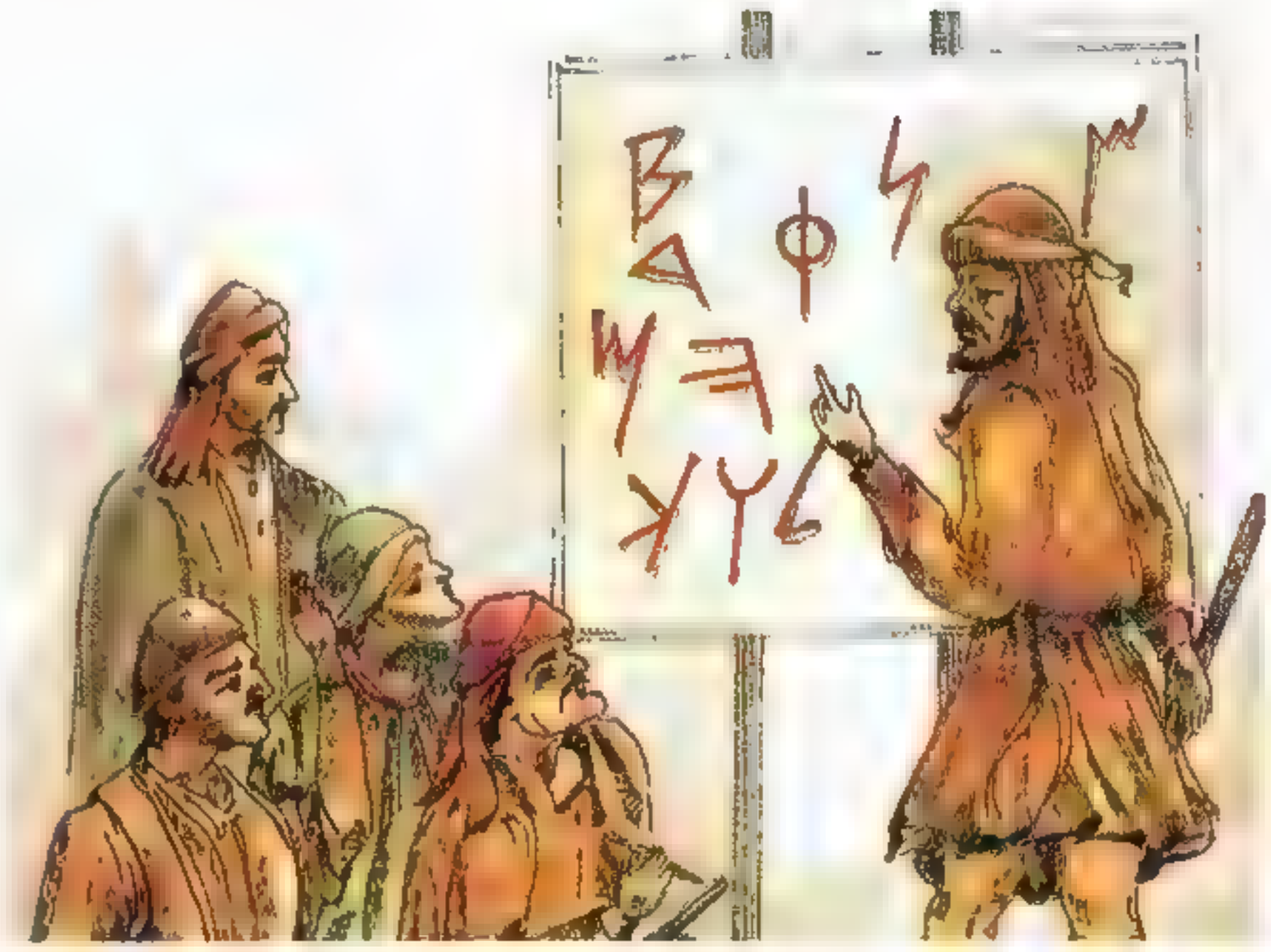

قدموس يعلّم الأبجدية الفينيقية

وسنة ١٩٢٩، ومع اكتشاف رأس شمرا، عثر المنقبون على ملاحم يدور أكثرها حول الأدب الديني والطقوس والزراعة وتربية الماشية. وأشهر هذه الملاحم ملحمة البعل وعناة وهي تمثل الصراع بين إله الخصب «عليّان» وإله الموت «موت» وتؤكد انتصار الخير على الشر والنظام على الفوضى والحياة على الموت وأسطورة «كارت» و«أقهات بن دانيال» وغيرها من الأساطير التي تدور حول الطبيعة والخصب. وقد أعطانا الأدب الفنيقي وصفاً لبعض نواحي المجتمع الفنيقي كالعائلة والأعياد والأعراس وغيرها من المظاهر الاجتماعية.

ولأن الملاحة كانت تهم الفنيقيين، فقد اهتموا أيضاً بعلم الفلك وعلم الجغرافيا، واهتدوا إلى النجم القطبي الذي أطلق عليه اليونانيون إسم «النجم الفنيقي» كما ساعدتهم الرحلات الجغرافية التي قاموا بها على دراسة الاتجاه والموقع وتوصّل مارينوس الصوري إلى وَضع خطوط الطول والعرض.

وفي حقل الطب جعل الفنيقيون الإله «أشمون» إله المرض والشفاء لكنهم اعتقدوا أن أمراضاً عديدة هي من أعمال الأرواح الشريرة كما لاحظوا وجود علاقة ما بين أمراض معينة ومسببات معينة، فكافحوا الجرذان للحد من الطاعون، والذباب لمنع تفشي الأمراض. وشدّدوا على الوقاية الصحيّة والنظافة. واكتشفوا بعض الأدوية من الأعشاب كما بيّن اكتشاف بعض الهياكل العظمية أنهم تعاطوا طب الأسنان وأجروا عمليات جراحية في الجمجمة.

وفي حقل الهندسة، تفوق الفنيقيون في هندسة البناء فاستعان بهم سليمان الحكيم لبناء هيكل أورشليم. كما اشتهروا بحفر الأقنية وبناء الجسور وتصميم المدن وإقامة الساحات العامة وبناء المرافىء العسكرية والتجارية. كما توصلوا إلى صنع المجارير الفخارية. ويظهر تقدُّمهم في حقل الهندسة في آثار جبيل ورأس شمرا وغيرها من المدن.

أنتجت البلاد الفنيقية الكنعانية خلال الألف الثاني قبل الميلاد أكثر من أبجدية واحدة أشهرها اثنتان هما أبجدية أوغاريت وأبجدية جبيل. وقد استعمل الأوغاريتيون حروف الهجاء لتدوين لغتهم بأشكال مسمارية على لوحات من الآجر تبين مدى تأثرهم بحضارات بلاد ما بين النهرين، بينما كانت حروف أبجدية جبيل تكتب بالقلم والحبر على ورق البردي المصري بأشكال تختلف عن أبجدية أوغاريت. كما كانت تكتب من اليمين إلى اليسار.

الحضارة اليونانية

تؤلف بلاد اليونان الجزء الجنوبي من شبه جزيرة البلقان وهي كناية عن شبه جزيرة محاطة بالمياه من جهات ثلاث: من الشرق، بحر ايجه، ومن الغرب البحر الأيوني ويمتد إلى إيطاليا، ومن الجنوب البحر المتوسط.

الحضارة اليونانية

وسواحل البلاد اليونانية متعرجة تنتشر حولها الجزر الصغيرة. والبلاد جبليّة بمعظمها ترتفع بعض قممها فوق الألفي متر، مثل جبل الأولمب، وسهولها ضيقة ما عدا سهل تساليا. أما أهم الجزر المحيطة بها فهي: كريت، السيكلاد، الدوديكانيز. وهذه الجزر تمتاز بقربها من بعضها بحيث ينتقل المسافر من واحدة إلى أخرى دون أن يغيب البر عن ناظريه. وجمال طبيعة اليونان ساحر متنوع الأشكال والألوان ومناخه متوسطي لطيف وشمسه مشرقة وجوّه دافىء.

والحضارة اليونانية نشأت في هذا الجو وتأثرت بالطبيعة. ثم إن اليوناني كان متعلقاً بأرضه يعمل فيها بنشاط. ومع أن أرضه كانت فقيرة وهو متعود على التقشف فقد فتّش عن موارد للعيش إلى جانب الزراعة، واتجه نحو البحر صائداً، قرصاناً وتاجراً ونزح إلى أماكن أخرى وأسّس المستعمرات.

وأثرت جغرافية اليونان بوضعها السياسي فلم تسمح بقيام دولة موجودة، بل دويلات ـ مدن لم تتحد قط تحت راية حكومة مركزية. ويعزو بعض المؤرخين هذه الظاهرة إلى أن شعوب هذه الدويلات كانت تنفصل عن بعضها البعض بسلاسل من الجبال وخلجان كبيرة قسمّت الشاطىء اليوناني إلى دويلات مستقلة. كما كان يونانيو البر بعيدين عن يونانيي الجزر وعن يونانيي المدن المتناثرة في آسية الصغرى. هكذا كان لكل جماعة يونانية ناشئة حكومتها المستقلة وشرائعها الخاصة ونهجها المميز وشكّلت كل منها دويلة قائمة بذاتها.

رغم ذلك ساعدت طبيعية البر اليوناني على اندماج بعض هذه الدويلات في دويلات أكبر مثل آرغوس، طيبة، اسبارطة وأثينا. صحيح أن أثينا تمكنت، بعد الانتصار على الفرس من تزعُّم اتحاد يضم المدن والجزر اليونانية القائمة على سواحل بحر ايجه وإنشاء حلف ديلوس عام ٤٧٨ق.م.، لكن البيت اليوناني ظل منقسماً على نفسه بسبب المنافسة بين اسبارطة وأثينا واستمرت هذه المنافسة إلى أن انتهت بحرب ضروس كان فيها النصر لاسبارطة. ولم ينته الخصام بين المدن اليونانية إلاّ حين قضى المقدونيون على استقلالها. هكذا يجب علينا، إذا أردنا الحديث عن المجتمع اليوناني، أن نتكلم عن نموذجين: الاسبارطي والأثيني.

• المجتمع الاسبارطي

تقع اسبارطة في الجزء الجنوبي من جزيرة المورة وسط سهل واسع قائم بين نهر أوروتاس وجبل تيجاتوس. وقد امتاز شعبها بالقوة والصلابة والزهد في الترف. وكان الطفل الاسبارطي يعتبر، منذ ولادته ملكاً للدولة. فإذا كان قوياً صحيح البنية سمحت له الدولة بالحياة وإذا كان ضعيفاً معتلاً حُمل إلى جبل تيجاتوس وترك هناك ليموت.

وكانت الأمهات يحتفظن بأولادهن الأصحّاء حتى سن السابعة. وعندها كانت صلة الطفل تنقطع بأبويه ويصبح ابناً للدولة التي تعلمه القراءة والكتابة والموسيقى والحساب ومقاطع من شعر هوميروس وتدرّبه على المصارعة والعدو وقذف القرص الحديدي فيشب قوياً شجاعاً.

كما فرضت اسبارطة على أبنائها نظاماً تقشفياً قاسياً، فكانوا يلبسون ثوباً واحداً ويمشون حفاة ويكتفون بالطعام البسيط والقليل ويُجلدون مرة كل عام ليعتادوا احتمال الألم. كما كان الإسبارطيون يخضعون، من سن الثامنة عشرة إلى سن العشرين، لتدريب عسكري خاص، ثم يُسمح لهم بالزواج. ولدى بلوغهم سن الثلاثين كانوا يعتبرون مواطنين كاملين ويسمح لهم بالعيش في بيوتهم شرط أن يتناولوا وجبات الطعام الرئيسية في الثكنات العسكرية.

وكانت فتيات إسبارطة يخضعن للتدريب العقلي والجسدي حتى تصبح كل منهن مؤهلة لتكون أماً شجاعة لرجل شجاع. فكن يمارسن الألعاب الرياضية كالفتيان ويتفخن في أزواجهن روح التضحية والإخلاص للوطن.

وكان الحكم في إسبارطة استبدادياً محصوراً بيد المواطنين يمثلهم ملكان وراثيان يشرفان على الجيش ويعاونهما مجلس شيوخ من ٢٨ عَضواً Gerontes يمثلون الأسر الشريفة وخمسة قضاة Ephoresينتخبهم مجلس الشعب سنوياً ويراقبون أعمال الشيوخ والملكين.

الحضارة اليونانية

المجتمع الأثيني: تقع أثينا في منطقة الأتيك شرق بلاد اليونان، وتبلغ مساحتها مع الريف ٢٦٥٠كلم.٢ وكان الشعب الأثيني ينقسم إلى طبقات عدَّة، على أساس الثروة والدخل. وكانت كافة الطبقات ـ ما عدا الطبقات الدنيا ـ تملك حق التصويت في «الاجتماع العام». وكما في إسبارطة، كان سكانها يتألفون من طبقات ثلاث هي: الأشراف، عامة الشعب والعبيد. وكانت السلطة بيد الأشراف ويمثلهم مجلس كان يجتمع على هضبة أرس Arès فعُرف بـ آريوباج Arèopage وكان يرئسه تسعة قضاة يعرفون بالأراخنة. وبعد التوسع ونمو التجارة والصناعة ظهرت الطبقة البورجوازية وراحت تطالب بتغيير النظام وتهدد باستعمال القوة فتدخل العقلاء وطرحوا قضايا المدينة على التحكيم فتم التوصل إلى تشريعات جديدة أبرزها تشريعات دراكون وصولون: ففي سنة ٦٢١ق.م. كتب دراكون لأول مرة قوانين ألغى فيها الكثير من صلاحيات الأشراف. لكن الطبقة الفقيرة ظلت تعتبر تشريعاته قاسية وتطالب بالإصلاح. فتم الاتفاق على الحكيم صولون فوضع سنة ٥٩٢ق.م. قانوناً تناول النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ورفع الظلم عن الفلاحين والفقراء وشجعهم على التملك وحسَّن وضع العبيد وشجع وضع الزراعة والتجارة وكافح تزوير العملة وجعل في الإدارة الكفاءة أساس الوصول. فتطورت أثينا بفضل هذه التشريعات بأسلوب ديموقراطي وتجنبت الثورات والعنف وقد جعلت شرائع صولون جميع المواطنين اليونان الأحرار متساوين في الحقوق أمام القضاء. كما وضع دستوراً جديداً منح كل مواطن نصيباً في حكم الدولة.

وبين الحين والآخر كان يبرز من بين النبلاء نبيل طموح يدافع عن قضايا الشعب ويكسب تأييداً عارماً يرفعه بطريقة غير شرعية إلى أعلى منصب في الدولة. وكان الإغريق يطلقون على مثل هذا النبيل لقب الطاغية أو الديكتاتور. وكان هؤلاء الطغاة، في بعض الأحيان حكاماً مصلحين. ومن بين هؤلاء الطاغية بيزستراتوس الذي استبد بحكم البلاد بعد صولون بنحو ٥٠ عاماً: فقد أحدث كثيراً من الإصلاحات للعامة وأمن العمل للعاطلين عنه وشجّع الصُّناع المهرة على الهجرة من مختلف المدن اليونانية إلى أثينا، فازدهرت الصناعة والتجارة في أثينا ازدهاراً منقطع النظير.

بعد وفاته عام ٥٢٧ق.م. خلفه ابنه لكنه كان غشوماً ظالماً مستبداً فثار عليه الشعب وتخلَّص من حكم الطغيان.

ثم ظهر عام ٥٠٨ كليسينيس على مسرح السياسة في أثينا وكان مصلحاً مستنيراً فأكمل ما بدأه صولون جاعلاً من أثينا ديموقراطية بالمعنى الصحيح: فصولون أعطى الطبقات الغنية أكبر نفوذ في الدولة. ولكن كليسينيس قسم الأثينيين تقسيماً جديداً، أساسه «الدِّيم»، أي الناحية. فصار الأغنياء والفقراء متساوين في نظر الدولة. ثم أنشأ مجلساً مؤلفاً من ٥٠٠ عضو يمثلون الأثينيين وكانت قرارات هذا المجلس تُعرض على الشعب في اجتماع عام، فإما أن يقرها أو يرفضها. هكذا أصبح كل مواطن يشعر بأنه يشترك اشتراكاً فعلياً في تدبير شؤون المدينة وإدارتها.

إلاّ أن أثينا بلغت أوج عظمتها في عهد بريكليس الذي تولى شؤونها طوال ثلاثين عاماً.

● أثينا في عصر بريكليس:

بريكليس هو كبير موظفي الجمعية العمومية الأثينية. كان رجل دولة خطيراً وسياسياً عظيماً. وكان يجمع بين المقدرة السياسية والإحساسات الحيَّة نحو كل ما هو عميق ورفيع ورائع. وقد قنع بريكليس بخدمة أثينا زعيماً ولم يتسلط عليها طاغية. فإذا بها، بإرشاداته وتدبيره تعقد المحالفات وتؤسِّس مستعمرات جديدة ومحطات تجارية من إيطاليا إلى البحر الأسود وتنقل كنوز الحلف من ديلوس إلى أثينا. ولأنه كان واثقاً من منعته وعصمته من خطر الفرس فقد أنفق مدخرات الحلفاء ضد الفرس، على تجميل مدينته. فأثينا تحملت لوحدها عن حلف ديلوس أعباء الحرب ضد الفرس. فلم يكن بكثير عليها أن تنال أجرها. هكذا استخدم بريكليس مهندسي العمارة والفنانين. وتشهد خرائب البارثينون Parthénon الأثيني

الحضارة اليونانية

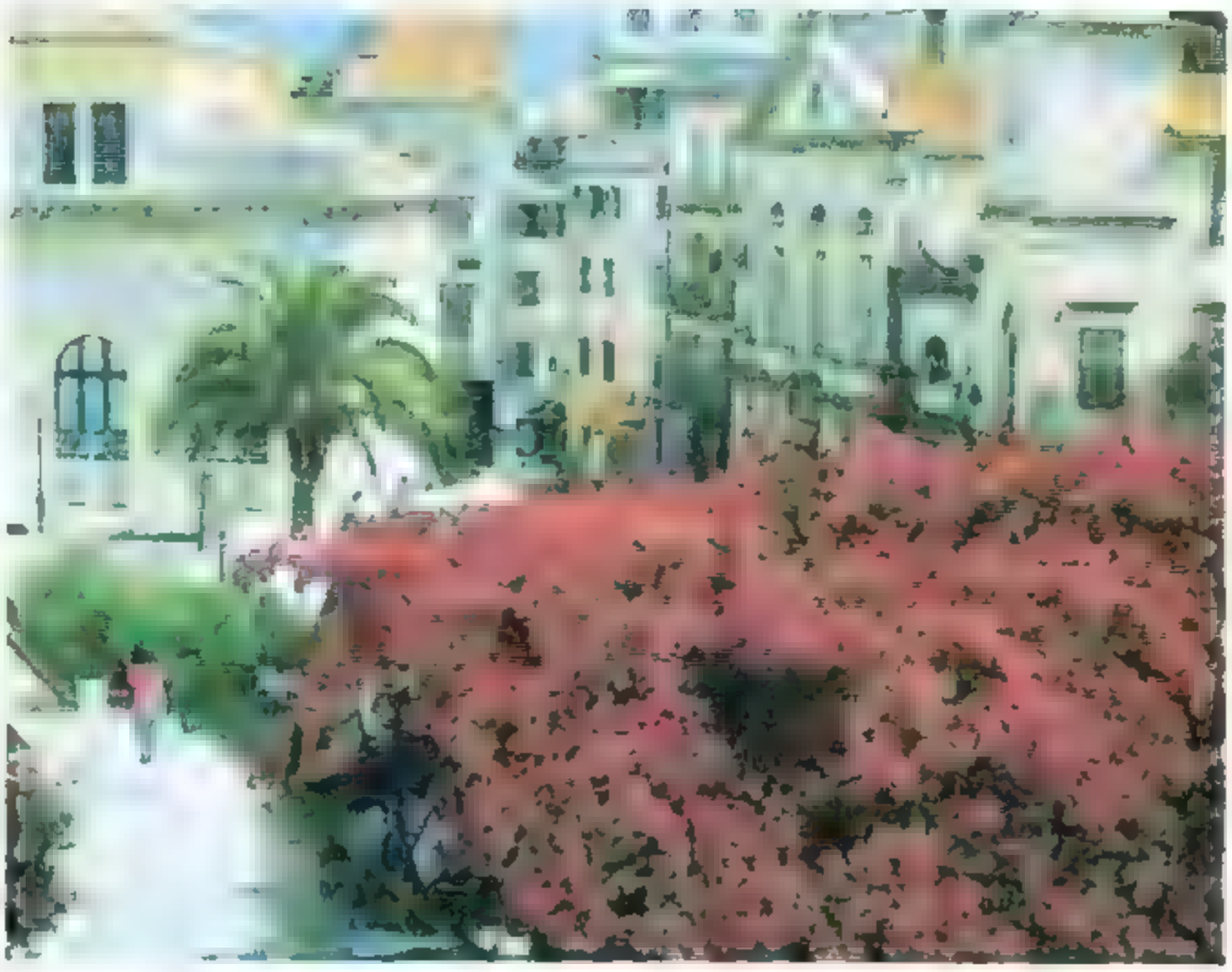

أثينا

بروعتها وجمالها، على مجد أثينا التي أعاد بناءها بريكليس.

كما تدل النحائت والتماثيل التي تركها فيدياس ومايرون وبوليكيتوس التي ما تزال موجودة على عظمة الفن في تلك الفترة.

وقد جلبت عبقرية بريكليس الفذة عدداً من النابغين إلى أثينا. فاطلقوا لنبوغهم العنان: ومنهم سقراط الذي أثر في عظمة عصره رغم عدم انسجامه مع حياة عصره. ومع أنه لم يكتب شيئاً، كان يتكلم في الأماكن العامة ويدور مجرياً الأبحاث عن الحكمة. وكان في أثينا جمهور من السفسطائيين الذين يفكرون في الصدق والجمال والحياة الصائبة ويلقنون العلم للشباب، إذ لم يكن هناك مدارس. وقد دخل سقراط بسماجته وقبح منظره وقدميه الحافيتين إلى حلبة هذه المناقشات السفسطائية فالتفت حوله حلقة من المعجبين والتلاميذ. وكان من بين خلطائه الشبان أفلاطون الذي خلّد طريقة أستاذه في سلسلة من المحاورات الفلسفية وأسّس المدرسة الفلسفية الأكاديمية التي دامت ٩٠٠ سنة. وكان أيضاً زينوفون قائد العشرة آلاف وايزوقراط. وكان أيضاً كريتياس الذي أصبح بعدما هزمت إسبرطة أثينا هزيمة نهائية زعيماً على الطغاة الثلاثين الذين عينهم الإسبرطيون ليمرّغوا المدينة المقهورة في حمأة الحضيض. هؤلاء وغيرهم من الخبثاء قضى سقراط على عقيدتهم السوقية. أخيراً قدم أنيتوس سقراط إلى المحاكمة بتهمة افساد شباب أثينا وقُضي عليه بشرب جرعة سامة مستخرجة من نبات الشوكان (حوالي ٣٩٩ق.م.).

كما عايش عصر بريكليس أفلاطون الذي ولد في ٤٢٧ق.م وعمّر ثلاثين عاماً. وقد عايش صاحب كتاب «الجمهورية» جواً عسيراً تكاثرت فيه المحن من حروب طاحنة وملمات اجتماعية شديدة وارتباكات عظيمة وواجه منذ نعومة أظفاره ما بين الإنسانية من تنافر وما بين النظم الإنسانية من عدم تجانس فإذا به يجري مناقشات جريئة نفّاذة تهدف إلى إدخال التحسين على العلاقات الاجتماعية.

وكان بين خلطاء أفلاطون المقربين فتى أحدث منه سناً أدار، في ما بعد مدرسة في أثينا، هو أيزوقراطيس ويمكن اعتباره صحفياً كاتباً أكثر منه خطيباً. كما أنه اختص بمناصرة فكرة هيرودوت التي تنادي بتوحيد بلاد الإغريق ضد الامبراطورية الفارسية. لكن أفقه السياسي كان أرحب من أفق أفلاطون وتطلّع في سنيه الأخيرة إلى الملكية، خاصة ملكية فيليب المقدوني، على أنها وسيلة لحكومة توحد الشعب وتكون أكثر شمولية من ديموقراطيات المدن.

وكان أفلاطون يعلّم الناس في الأكاديمية. فوفد عليه وهو في سنّ متقدمة فتىً وسيم الطلعة قدم من استاجيرا في مقدونيا، أرسطوطاليس (أرسطو) ابن طبيب ملك مقدونيا. وكان أرسطو مختلفاً من حيث العقلية عن الأثيني أفلاطون العظيم، وكان ذا شكوك في الإدارة التخيلية ويكن احتراماً عظيماً للحقائق الثابتة. فأنشأ بعد وفاة أفلاطون مدرسة في الليسيوم

الحضارة اليونانية

معبد يوناني

بأثينا وراح ينتقد أفلاطون وسقراط في شيء من العنف. وفي الوقت نفسه كان شبح الإسكندر يلقي ظلاله مخيماً على بلاد الإغريق.

وتمكن أرسطو بفضل العلاقة الخاصة بينه وبين الإسكندر الأكبر من الحصول على موارد مالية لم تتهيأ لباحث علمي قبله ولا بعده على مدى عصور طويلة. فقد كان تحت تصرفه مئات من التالنتات الذهبية يستطيع أن ينفقها في أغراضه الخاصة. وكان تحت تصرفه ألف رجل متناثرين في أرجاء آسيا وبلاد الإغريق يجمعون المواد لتاريخه الطبيعي. ومعه ابتدأ علم السياسة كما ابتدأ علم التاريخ الطبيعي فقام طلاب الليسيوم تحت إشرافه بتحليل مئة وثمانية وخمسين دستوراً سياسياً.

كان بريكليس ممتازاً مترفعاً في سلوكه، وُهِبَ سمواً في العاطفة ورفعة ونزاهة في أسلوبه. وكان وقوراً عبوساً لا يلين ولا يجنح إلى الضحك أو التبسّم. وكانت نبرات صوته ثابتة متزنة وسلوكه سهلاً، وذوقه في الشباب سليماً، وقد لاحقه أحد الأوغاد يوماً كاملاً بألوان التقريع والسُّباب فتحمل الأذى بالصمت والصبر، واستمر في تصريف أعماله. وفي المساء عاد إلى منزله في هدوء يتبعه ذلك التعس الوقح وهو يهينه أثناء الطريق بأقذع لغات

كان بريكليس يعتمد صداقة، ربما كانت نبيلة سامية، عقدت أواصرها بينه وبين اسبازيا، وهي امرأة من ميليتوس عالية الروح ممتازة التربية. وكان لا يستطيع الزواج منها بسبب القانون الذي يقصر حق المواطنية الأثينية على المولودين في أرضها. لكنها كانت في الواقع زوجة له. لعبت اسبازيا دوراً عظيماً في جمعها حول بريكليس رجالاً لهم مواهب غير عادية. فكان يعرفها كل عظماء الكتاب في زمانها. وأثنى الكثيرون منهم على حكمتها. صحيح أن بلوتارك اتهمها باضرام حرب خطيرة مروعة ضد ساموس انتهت بالنصر. لكن الأمر، كما بينه في ما بعد، نتج بصورة حتمية عن العداوة البحرية التي أظهرها أهل ساموس والتي كانت تهدد تجارة أثينا في ما وراء البحار وكان يتوقف عليها كل رخاء الجمهورية ورفاهيتها.

ويقول الشاعر أيون Ian عنه أنه كان متكبراً ومترفعاً في حديثه وعلى قدر من الغرور والاحتقار لسواه. وكان لا يبدو في الشوارع إلاّ ساعة ذهابه إلى الفدروم (سوق المدينة) أو دار الشيوخ. وكان يرفض دعوات أصدقائه ويمتنع عن كل حفلات السمر والنزهات الاجتماعية إلى حد أنه، أثناء توليه السلطة، لم يذهب قط ليتعشى مع أي صديق من أصدقائه إلاّ مرة واحدة وذلك يوم زواج ابن أخيه بوريبطليموس. وكان ممن يعتقدون أن حرية السمر تزيل كل جاه الوظيفة ووقارها وأن الكرامة لا تستقيم مع رفع الكلفة.

الحضارة اليونانية

السُباب. وكان الظلام قد خيَّم عندما وصل إلى باب داره، فأمر أحد خدمه بأن يأخذ مشعلاً يضيء به للرجل الطريق حتى يعود إلى منزله.

● فيليب المقدوني:

كان فيليب المقدوني واحداً من أعظم الملوك الذين عرفهم العالم على مر العصور. وكان رجلاً على أقصى درجات الذكاء والكفاية. وقد اتخذ من أرسطو صديقاً له وتناقش وإياه في خططه المرسومة. ولجأ إليه ايزوقراط القائد العظيم الذي تمكن من توحيد الوطن الإغريقي.

وكان الملك قد آل إلى فيليب في مقدونيا سنة ٣٥٩ق.م. ومقدونيا كانت قطراً صغيراً ليس فيه مرفأ على البحر ولا أية مدينة مهمة. وكان سكانها جميعاً من الفلاحين تكاد لغتهم تكون إغريقية. وقد حوَّل فيليب هذه الدولة الهمجية الصغيرة إلى دولة عظيمة وأنشأ أكفأ وأفضل نظام عسكري عرفه العالم حتى ذلك الحين، إذ تمكن، قبيل وفاته، أن يجمع شمل أغلبية بلاد الإغريق في عصبة واحدة بقيادته.

كما كان فيليب من الملوك النادرين في التاريخ الذين عنوا بخلفهم، أي بابنه الإسكندر، الذي ربَّاه تربية خاصة تؤهله لتولي شؤون الامبراطورية. وكان أرسطو واحداً من المربين الأكفاء الذين اختارهم أبوه له. ثم إن فيليب كان ملكاً من الطراز القديم، أي ملكاً قائداً. وكان جيشه يتألف، في مقدونيا، من حشد كبير من الجنود المشاة وطبقة نبيلة من الفرسان تدعى «الرفقاء». وكان شعب مقدونيا، من فلاحين وصيادين، على استعداد لقبول نظامه وتعلُّم استخدام وسائل القتال الجديدة.

وقبل ارتقائه العرش، أقام فيليب بضع سنين رهينة في بلاد الإغريق حيث نال من التربية والتعليم خير ما يقدّمه الإغريق. هكذا سَعى لتحقيق فكرة ايزوقراط وهي إنشاء اتحاد عظيم للدول الإغريقية في يوروبا للسيطرة على العالم الشرقي. ولم تكن هناك أية وسيلة للحصول على إجماع الإغريق على ذلك المشروع إلاَّ بواسطة القيام بعمل سياسي ثوري: فالدويلات الإغريقية متفرقة منقسمة سياسياً، ومواردها مستنفدة في سلسلة من الحروب الطاحنة التي كانت تنشب لأتفه الأسباب. هكذا كرَّس فيليب سنين حكمه الأولى لتنظيم جيشه. وكان أول من استحدث هجوم الفرسان على العدو. وحين تيقن من جدارة هذا الجيش شرع في استخدامه، واتجه بنظره، بادىء ذي بدء إلى شمال مقدونيا فأنفذ الحملات العسكرية إلى اليِّريا وإلى الدانوب ومدَّ سلطانه على طول الشاطىء حتى الهلسيونت. واستولى على ميناء أمفيبوليس وبعض مناجم الذهب المجاورة لها. وبعد قيامه بحملات عديدة في تراقيا وجَّه اهتمامه الجدِّي نحو الجنوب. وناصر قضية الحلف الامفكتيوني الدلفي ضد الفوكيين الذين انتهكوا حرمة معبد دلفي فظهر، بذلك، بمظهر راعي الديانة الهللينية.

في تلك الأثناء، كان فريق من الإغريق ينادي بالكتلة الهللينية التي تلم شمل الجميع، ويؤيِّد زعامة فيليب للإغريق، وعلى رأسهم ايزوقراط. وكانت أثينا من الناحية الأخرى ترأس جبهة المعارضة لفيليب وشيعته. وكانت صلاتها ببلاد فارس على مودَّة ظاهرة فأرسلت المبعوثين إلى ملكها العظيم تحذره من خطر فيليب المقدوني والإغريق عليه. هذه الغدوات والروحات دامت حوالي ١٢ سنة. وسنة ٣٣٨ وصلت النزاعات إلى أوجها بين دعاة الانقسام ودعاة توحيد الكتلة الهللينية، فحسم فيليب الأمر يوم أوقع بأثينا وحلفائها هزيمة منكرة في معركة خيرونيا. ثم عقد مع أثينا صلحاً منحها فيه شروطاً سخية. وفي السنة نفسها إعتُرِف به في مؤتمر عام للدول الإغريقية قائداً عاماً في الحرب ضد فارس.

وكان فيليب عند ذلك قد بلغ السابعة والأربعين. فإذا بالعالم مطروح تحت قدميه. إذ جعل مملكته الصغيرة دولة تتزعم الاتحاد الإغريقي الذي وحَّده توحيداً شاملاً وطيداً. وهذا التوحيد كان مقدمة لتوحيد آخر عظيم حين انضمت الامبراطورية الغربية والامبراطورية الفارسية في دولة عالمية واحدة تضم كل الشعوب القديمة المعروفة.

تزوَّج فيليب من ابنة ملك أيبروس،

الحضارة اليونانية

القطر الواقع إلى الغرب من مقدونيا. ويقول پلوتارك أن هذا الزواج قام على الحب المتبادل. ففيليب كان يميل إلى هوائج الحب الجامح وقد تزوج من أوليمپياس بعدما اعتلى العرش وولد له الإسكندر بعد ذلك بثلاث سنوات. ولكن لم يمض زمن حتى دبَّ الخلاف بين فيليب وزوجته بسبب غيرتها منه وشغفها الشديد بالأسرار الدينية ذات الطقوس الخفية القائمة على دم الأطفال وأجزاء من أجسام المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام والتعاويذ السحرية. وقد أثارت بأعمالها هذه سخط زوجها وضايقته كثيراً.

وتشير كتب التاريخ إلى عداوة مريرة بين فيليب وزوجته. فقد كانت تغار من فتوحاته وتكره ذيوع صيته وكانت تبذل قصارى جهدها لتنفر ابنها من أبيه. وحين تزوج فيليب سنة ٣٣٧ق.م. - على عادة الملوك في ذلك الزمان - زوجة ثانية مقدونية الأصل إسمها كليوبطرة، كان يحبها حباً شديداً أثارت أوليمپياس الكثير من المتاعب ورحلت مع الإسكندر ابنها في اليوم التالي للزواج.

أخيراً أصيب فيليب بطعنة في حفل زواج ابنته من خالها ملك إيبروس وشقيق أوليمپياس، حين كان يسير في موكب إلى أحد المسارح وهو أعزل من السلاح، وعليه ثوب أبيض فطعنه أحد رجال حرسه وكان هناك حصان ينتظر القاتل الذي حاول أن يفر، لولا اشتباك حافر حصانه بكرمة برية وألقته عثرة الجواد من سرجه فقتله متعقبوه.

هكذا أصبح الإسكندر ملك مقدونيا في سن العشرين وانتهى قلقه على تبوئه العرش. وعادت أوليمپياس تظهر في مقدونيا وأصرت على أن تقدم لذكرى القاتل نفس مظاهر التكريم الجنائزية التي أقيمت لذكرى فيليب. ولم يكد الإسكندر يغادر مقدونيا، حين شغلته ثورة رجال التلال في الشمال، حتى قتل ابن كليوباطرة الحديث الولادة بين ذراعي أمه. ثم خنقت كليوباطرة بعدما وجِّهت إليها عبارات السِّباب والتقريع. هذا الأمر هال الإسكندر لكنه لم يمنعه من بسط يدي أمه بسلطان عظيم في مقدونيا: فقد كان يرسل إليها دوماً نصيباً كبيراً من الأسلاب التي كان يغنمها.

● الإسكندر وفتوحاته:

كان الإسكندر انساناً موهوباً في كثير من النواحي، وكانت مواهبه عظيمة. لكنه كان مغروراً متشككاً بالناس، نزقاً حاد العواطف، أحدثت أمه في ذهنه انحرافاً فظيعاً. وقد أظهرت أعماله منذ أول حكمه إلى أي حد تمثَّل خطط أبيه وسار على نهجها، وإلى أي حد كانت كفاءاته عظيمة. فبعدما استتب له أمر قيادة الجيوش الإغريقية، سار مخترقاً تراقيا إلى نهر الدانوب وعبر النهر وأحرق القرى. ثم عاد وعبره متجهاً غرباً ليقفل طريق إلليريا. في ذلك الوقت أعلنت مدينة طيبة العصيان عليه. فكانت ضربته التالية في بلاد الإغريق إذ قهر طيبة ونهبها وعاملها معاملة بالغة العنف: فقد هدمت كل مبانيها، ما عدا المعبد ومنزل الشاعر يندار وبيع ثلاثون ألفاً من سكانها رقيقاً في أسواق النخاسة.

بعد تدمير طيبة على هذا النحو، صعقت بلاد الإغريق وقررت عدم التعاون مع الإسكندر في حملته الفارسية، صحيح أنه قضى على روح الشغب والعصيان، لكن المدن الإغريقية أبت أن تمده بسفنها. وهذا ما نتج عنه مضايقة خطيرة له. وقد اجتمع في نفس الإسكندر خليط من جنون أوليمپياس أمه ومن رجاحة عقل أبيه وما تلقاه عن أرسطو من تعاليم. وقد أزعج حادث طيبة خاطره كثيراً وحاول أن يظهر عطفاً خاصاً للطيبيين لأن شبح ما جنته يداه في المدينة كان يلاحقه ويعذبه.

لكن ذكرى طيبة لم تنقذ ثلاث مدن أخرى عظيمة من مثل تلك العاصفة العقلية الهوجاء: إذ دُمر صور وغزَّة ومدينة في بلاد الهند سقط أثناء فتحه إياها عن صهوة جواده وجُرح في قتال شريف.

في بداية حربه مع الفرس كان هؤلاء سادة البحر، بسبب إعراض سفن أثينا وحلفائها عن مساعدة الإسكندر. فاضطر أن يطوف معرجاً، للانتقال إلى آسيا. لأنه لو تقدم متوغلاً في الامبراطورية الفارسية لتعرَّض لقطع مواصلاته تماماً عن قاعدته. هكذا سار بمحاذاة ساحل آسيا الصغرى مستولياً على مرافئها الواحد تلو الآخر حتى يدمِّر كل القواعد البحرية الفارسية.

الحضارة اليونانية

جيش الإسكندر

وسنة ٣٣٤ق.م. اشتبك معه جيش فارسي في معركة على ضفاف نهر جرانيكوس، فهُزم الفرس، وأصبح الإسكندر مطلق اليد في الاستيلاء على ساردیس وأفيسوس وميليتوس بعد قتال عنيف على هاليكارناسوس. وسنة ٣٣٣ق.م، وبينما كان يتابع هجومه على القواعد البحرية، سار بمحاذاة الشاطىء حتى رأس الخليج المسمّى اليوم «خليج اسكندرونة». وكان هناك جيش فارسي جرار تحت قيادة الملك دارا الثالث متغلغل في داخل البلاد إلى جانب خط سيره تفصله عنه وعن الشاطىء الجبال. وتقدم الإسكندر عن هذه القوة المعادية قبل أن يدرك هو أو يدرك الفرس ما بينهما من قرب، ذلك لأن أعمال الاستطلاع كانت على أسوأ حال لدى الإغريق والفرس على السواء. وكان الجيش الفارسي حشداً هائلاً سيىء النظام من الجنود والدواب ووسائل النقل ومنتجعي المعسكرات: من رجال ونساء يتعقبون المعسكرات للاستفادة من الجند. وكان دارا مصحوباً بنسائه. وكان هناك عدد حاشد من إماء الحريم والموسيقيين والراقصين والطباخين. وكان الكثير من الضباط قد احضروا عائلاتهم ليشهدوا مصرع الغزاة المقدونيين وتملكت دارا فكرة قطع السبيل على الاسكندر إلى بلاد الأغريق فساق هذا الجمع الحاشد من فوق الجبال حتى البحر واجتاز الممرات دون أن يعترضه أحد لكن الاسكندر هزمه وحطم جيشه العظيم وفر دارا من مركبته العتيقة الطراز ممتطياً صهوة جواده تاركاًكل شيء، حتى حريمه، في أيدي الاسكندر. ويُروى أن الاسكندر كان شهماً كريم الخلق سموحاً عامل الأميرات الفارسيّات بأقصى ما يكون الأدب، وترك دارا يهرب إلى سوريا ولم يتعقبه ثم واصل سيره على قواعد الفرس البحرية، أي على مينائي في صور وصيدا الفنيقيين، فسلمت صيدا وقاومته صور.

واستمر حصار صور سبعة أشهر، وقاومته غزة شهرين. وحدثت في كلتا الحالتين مذبحة وتُهبت المدينة وبيع الأحياء من أهلها بيع الرقيق. ثم دخل الاسكندر مصر أواخر سنة ٣٣٢ق.م. وثبتت له سيادة البحر. وقرّر مجلس دول المدن الإغريقية المنعقد في كورنته إهداء تاج نصر من الذهب «لقائده العام» واستقر الإغريق، منذ ذلك الحين على انضمامهم إلى المقدونيين بعد طول تأرجح.

وحذا المصريون حذو الأغريق. فكانوا في صف المقدونين لأنهم ضاقوا ذرعاً بالحكم الفارسي الذي

الحضارة اليونانية

احراق المدن

خيَّم على بلادهم حوالي مئتي سنة. صحيح أنهم تخلصوا من سيِّد واستقبلوا آخر، لكن بلادهم سلمت من دون قتال وأظهر الاسكندر احتراماً بالغاً نحو شعورهم الديني: فلم يكشف اللفائف عن أي مومياء كما فعل قمبيز ولم يعتد على حرمة أبيس عجل ممفيس المقدس.

وصحيح أن الاسكندر دمر صور لكنه أنشأ في مصر عند أحد مصبَّات النيل مدينة جديدة هي الاسكندرية، فحلَّت محل المركز التجاري القديم. وأنشأ إلى الشمال من صور وبالقرب من إيسوس مرفأ ثانياً هو الاسكندرونة وما تزال هاتين المدينتين زاهرتين إلى يومنا هذا.

وفي ربيع سنة ٣٣١ق.م عاد إلى صور. ومن هناك زحف نحو مملكة آشور جاعلاً الصحراء السورية عن يمينه. وعند خرائب نينوى وجد جيشاً فارسياً عظيماً بانتظاره. وهناك دارت

الحضارة اليونانية

معركة أربيلا وفيها مُني الفرس بالهزيمة. وفرّ دارا شمالاً إلى بلاد الميديين وتقدم الاسكندر إلى بابل. وهناك وعد بإعادة بناء معبد بعل مردوك الذي كان حطاماً وخرائب ومقلعاً تؤخذ منه مواد البناء. ثم سار إلى سوسا التي كانت مدينة العيلاميين وأصبحت العاصمة الفارسية. ثم توجّه إلى برسيبوليس حيث أمر - إثر انتشائه بالخمر - بإحراق بيت ملك الملوك.

بعد ذلك ظل سبع سنوات في تجوال، بجيش معظمه من المقدونيين. فقد سار إلى شواطىء بحر قزوين واتجه شرقاً، عبر ما يسمّى الآن بالتركستان الغربية وأسس مدينة تدعى الآن هيرات. ومنها سار شمالاً باتجاه كابول وما يسمى الآن بسمرقند ثم وصل إلى جبال التركستان الوسطى وعاد أدراجه جنوباً وانحدر إلى الهند مخترقاً ممر خيبر والتحم في معركة عظيمة على السند الأعلى مع ملك شجاع مديد القامة، هو الملك بوروس وفيها التقى المشاة المقدونيون بجمع من الأفيال وهزموهم. ولعله كان يرغب في مواصلة السير شرقاً عبر الصحارى الممتدة في وادي الغانج. لكن جنوده أبوا مواصلة السير فاضطر أن يرتد وبنى أسطولاً انحدر به إلى مصب السند وهناك قسم قواته، فأخذ الجيش الرئيس وسار به على امتداد الشاطىء القاحل قافلاً به إلى الخليج الفارسي. وقاسى الجيش في الطريق متاعب وأهوالاً جمّة ومات منه الكثير من الرجال عطشاً وتبعه الأسطول بحراً ولحق به عند مدخل الخليج الفارسي وكان في خلال رحلته أثناء هذه السنوات يشتبك في معارك وتدين له بالخضوع شعوب كثيرة وينشىء المدن.

وتجوّل الأسكندر كذلك في الأقاليم الشمالية: فقد عبر من إقليم الدانوب نحو جنوب روسيا وعبر القطر الواقع إلى شمال بحر قزوين والقطر الواقع إلى شرقه وصولاً حتى الكتل الجبلية في هضبة اليامير، ثم شرقاً إلى حوض نهر تاريم في التركستان الشرقية. وهذه المناطق كانت في معظمها آرية اللغة نوردية السكان، وكانت مدنها قليلة العدد لأن أغلب قاطنيها من المترحلين.

ظل الاسكندر ست سنوات يمتلك الامبراطورية الفارسية دون منازع وكان قد بلغ الحادية والثلاثين. ولم يستحدث في هذه السنوات شيئاً يذكر بل أبقى على نظم المقاطعات الفارسية وعيّن حكاماً جدداً، أو استبقى السابقين منهم. وبقيت الطرق والموانىء ونظم الأمبراطورية على ما تركها سلفه الأعظم قورش واكتفى بمصر باستبدال حكام الأقاليم القدماء بحكام جدد وقهر في الهند بوروس ملكها، ثم تركه على قدر من القوة لا يقل عمّا وجده عليه. وخطط الاسكندر عدداً من المدن قُدّر لبعضها أن تنمو وتزدهر وتصبح عظيمة، وأسّس ما يناهز سبع عشرة اسكندرية، مثل قندهار وسيكندر أباد. صحيح أن الشرق كان يعج بالإغريق قبل زمانه، لكن المؤرخين يعتقدون أنه هو الذي صبغ الشرق بالصبغة الهللينية. كما ظل العالم بأسره ردحاً من الزمن، من البحر الأدرياتيكي إلى نهر السند تحت لواء حاكم واحد.

ولم يعمد إلى إنشاء طرق عظيمة ولا إلى إقامة مواصلات بحرية آمنة ومضمونة، ولم يحط نفسه بأية طائفة من الساسة ولا كان يفكر في خلف له فلم يتصرف كأبيه فيليب الذي كان يفكّر في تعليمه وهو لم يبلغ بعد الحادية والثلاثين من عمره.

ويؤكد بعض دارسي تاريخ حياته أنه كان من أرباب السياسة وأنه شُغِل يوم كان في سوسا بوضع الخطط لإقامة امبراطورية عالمية. ولم يكن يرى في ذلك مجرّد فتح مقدوني للعالم بل صهراً ومزجاً لتقاليد الأجناس البشرية بعضها ببعض. هكذا أقام وليمة عرس كبرى تزوج فيها هو وتسعون من قواده أصدقائه من عرائس فارسيات. وقد تزوج هو من ابنة دارا وكانت لديه قبلها زوجة آسيوية هي روكسانا ابنة ملك سمرقند. وأقام لهذا الزواج الجماعي حفلاً رائعاً وقدم هدايا العرس للجنود المقدونيين الذين تزوجوا من آسيويات والذين بلغ عددهم عدة آلاف. وقد سمّي هذا «زواج أوروبا وآسيا». ثم أخذ يدرّب المجندين من فارس ومن الشمال على فنون الحرب الخاصة بالفيلق والفرسان.

وسنة ٣٢٣ق.م، وبعد حفل صاخب في بابل اشتد فيه الشراب، ألمت بالاسكندر حمى مباغتة فاعتل

الحضارة اليونانية

ومات وهو بعد في الثالثة والثلاثين. فاختفى بموته كل ما لاحت بوارقه في مخيلة الناس من نظام حكم عالمي شامل ووقعت البلاد من بعده بين براثن حكم استبدادي مطلق يغشاه الاضطراب. وأخذ كل حاكم من حكام الأقاليم يشيد لنفسه ويعمل لحسابه. ولم تمض أعوام قليلة حتى أبيدت كل عائلة الاسكندر: فزوجته روكسانا سارعت إلى قتل ضرتها ومنافستها ابنة دارا، ووضعت للاسكندر ابناً وُلِدَ بعد وفاته، كان يسمى الاسكندر هو أيضاً، وما لبث أن لقي مصرعه مع والدته بعد بضع سنين (٣١١ق.م) وقُتِل أيضاً هرقل الابن الآخر للاسكندر وُقتِل أخوه أريدايوس. أخيراً قُتِلت اوليمبياس والدة الاسكندر في مقدونيا على يد أصدقاء أولئك الذين قتلتهم.

أسماء إغريقية لامعة:

● **في المسرح:**

أسخيلوس: (٥٢٥ ـ ٤٥٦ق.م) يتحدر من أسرة عريقة، اختار مواضيع المآسي التي كتبها من الميتولوجيا. كانت الفكرة الغالبة لديه الصراع الدائم بين إرادة الآلهة وإرادة الإنسان.

ـ سوفوكليس: (٤٩٥ ـ ٤٠٦ق.م) لم يهمل المواضيع الدينية لكنه توسّع في العواطف البشرية وحارب المساوىء وصوّر الإنسان المثالي وتأثر بفلسفة سقراط «إعرف نفسك». من أشهر مسرحياته «أوديب الملك».

ـ يوريبيدس: (٤٨٠ ـ ٤٠٦ق.م) جعل المسرح أقرب إلى الأدب منه إلى الدين وتعمّق في دراسة النفس البشرية وصوّر الإنسان كما هو لا كما يجب أن يكون.

ـ أريستوفانيس: (٤٤٥ ـ ٣٨٣ق.م) كان أعظم شعراء الملهاة، ألّف أكثر من ٤٠ مسرحية بقي منها نحو إحدى عشرة. لغته كانت بسيطة يفهمها الشعب. لم يقتصر عمله على إثارة الضحك بل جعل أدبه للإصلاح الاجتماعي.

ـ ديموستين: ٣٨٤ق.م كان أشهر الخطباء، مات أبوه وهو صغير وترك له ثروة كبيرة فبذرها الأوصياء وأهملوا تربيته. فعزم على مقاضاتهم عندما شب فتعلّم القانون وتمرّس بالخطابة لحاجته إليها في المحاكم. واتخذ مهنة له كتابة الخطب للمتقاضين. أراد أن يكون خطيباً في الجمعية العامة ففشل في المحاولة الأولى لأن لفظه كان معيباً. فراح يتمرن في غرفة منفردة أو على شاطىء البحر فيضع حصاة تحت لسانه ويتكلم حتى تغلّب على لثغته وأصبح أشهر خطباء أثينا. خلد نفسه بمجموعة خطب ألقاها ضد فيليب المقدوني عُرفت بالفلبيات، دعا فيها أهل أثينا إلى مقاومة مطامع المقدوني.

● **في الرياضيات والهندسة والحساب:**

أحرز طاليس وبيتاغورس تقدماً كبيراً في الهندسة وفي الفلك. وقال بيتاغورس بأن الشمس ليست إلهاً بل كتلة نارية منيرة وإن القمر يشبه الأرض ومثلها يستمد نوره من الشمس. وقال أحد البيتاغوريين وهو **أكزودة كنيد** بدورة الكواكب حول نار مركزية. ووضع الأسس لقياسات الأرض. وتحدّث **ديمقراطي** عن الذرة فقال بأن الكون يتألف من ذرات صغيرة متشابهة لكنها تختلف عن بعضها من حيث الحجم.

● **في الطب:**

ـ أبقراط: ولد سنة ٤٦٠ق.م. في إحدى جزر إيجه من أسرة تتعاطى الطب. وقد اعتمد الروح العلمية في مهنته وكتب مقالات تجلّت فيها سعة المعرفة. لم يكن الطب في نظره وسيلة للكسب: إنما رسالة إنسانية لمحاربة المرض وتخفيف آلام الناس. ولم يؤمن بالخرافات وبالأرواح الشريرة. بل قال بأن للمرض أسباباً ينبغي على الإنسان أن يبحث عنها بدرس حالة المريض وطرق معيشته وظواهر المرض، ثم البحث عن الدواء. وإذا لم ينجح الدواء فعلى الأطباء ألاّ ييأسوا بل أن يتابعوا السعي حتى يكتشفوا المرض ويجدوا الدواء. وقد وضع أبقراط أسس الطب الحديث ووضع قسماً لمن يريد أن يكون طبيباً ما زالت معاهد الطب تفرضه على تلاميذها المتخرجين حتى عصرنا الحاضر.

● **في التاريخ:**

ـ هيكاته: وهو أول من قام في أواخر القرن السادس قبل الميلاد بمحاولات لكتابة التاريخ وقد حدّد مهمّته بقوله: «إني أكتب ما اعتبره صحيحاً».

ـ هيرودوتس: (٤٨٤ ـ ٤٢٥ق.م)

الحضارة الرومانية

معبد باخوس الروماني في بعلبك

لُقّب «بأبي التاريخ». قام برحلات طويلة زائراً مصر وإيران والعراق وجنوب إيطاليا. ثم استقر في أثنيا وكان مقرباً من بيريكليس. كتب تسعة كتب في التاريخ، تناول فيها أخبار اليونان الشرقيين. وكان يدوّن مشاهداته فيصف الشعوب وعاداتها وطرق معيشتها. كما كان يدوّن ما يسمع من روايات وأساطير. وقد قال عن نفسه إنه «يكتب ما يرى وما يسمع» فقلّما كان ينقد أو يناقش أو يحلل. كان عمله مفيداً إذ عرف كيف يسوق كتاباته بأسلوب جذاب وفي إطار منتظم.

ـ **توسيديدوس**: (٤٦٠ـ٣٩٥ق.م) هو من أثينا. وقد انتخب قاضياً سنة ٤٢٤ واشترك في حروب البلوبونيز. تفوّق على هيرودوتس بأسلوبه. كان مؤرخاً واقعياً علمياً في تفكيره لا يتأثر بالأحداث ولا ينحاز إلى رأي، بل يتقصى الأخبار ويحللها وينتقدها، ويركّز على تحليل الأسباب والنتائج وتعليلها بأسلوب منطقي وبإنشاء رصين. وتدور أهم مؤلفاته حول حروب البلوبونيز.

الحضارة الرومانية

تفيد الأسطورة بأن روما تأسّست سنة ٧٥٣ق.م. وأن مؤسّسَيْها توأمان هما رومولوس وريموس، ولدا الإله مارس والكاهنة ابنة ملك مدينة ألب وقد وضعا، عند ولادتهما في سلة على نهر التيبر فجرفهما التيار حتى تلة البالاتين وهناك اكتشفتهما ذئبة وأرضعتهما ثم احتضنهما أحد الرعيان حتى كبرا فأسّسا على التلة المذكورة قرية صغيرة عُرفت باسم روما نسبة إلى رومولوس.

وروما القرن الثامن قبل المسيح كانت قرية صغيرة تقع في سهل اللاسيوم في إيطاليا الوسطى وتحيط بها سبع هضبات ويخترقها نهر التيبر. وكان يسكن إيطاليا، يوم تأسّست روما شعوب عديدة هي: الإيطاليون الذين سكنوا المنطقة الوسطى من إيطاليا

الحضارة الرومانية

الحضارة الرومانية

ومعظمهم من اللاتين، أي من الشعوب التي أتت من الشرق حوالي سنة ١٢٠٠ق.م مع شعوب أخرى، كالأومبريين والسابينيين والسامنيين، واليونانيين الذين قطنوا جنوب إيطاليا وصقلّية منذ القرن الثامن قبل الميلاد.

وقد سمّيت تلك المنطقة باليونان الكبرى، وأسّس فيها اليونانيون مدناً كثيرة واهتموا بالتجارة، وأخيراً، هناك الأتروسكيون الذين سكنوا شمال إيطاليا منذ القرن الثامن قبل الميلاد. وقد أتوا من آسيا الصغرى حيث كانت

حضارتهم عريقة وقد استفاد منها الرومان وطعّموا بها حضارتهم، إذ اهتموا بالزراعة والصناعة والفن. وكانت مدنهم على مستوى رفيع من التنظيم المدني. كما استفاد الرومان من توسُّع الأتروسكيين نحو الجنوب

الحضارة الرومانية

في القرن السادس قبل الميلاد. فأصبحت روما المدينة الأهم بعدما سيطرت على المدن المجاورة لها. وبعد انسحاب الأتروسكيين وطرد اليونانيين لهم خلع الرومان ملوك الأتروسك وأسّسوا الجمهورية.

● الرومان والأتروسك:

فتح الشعب الإتروسكي معظم إيطاليا شمال نهر التيبر، منتزعين إياه من القبائل الآرية التي كانت متناثرة في أرجاء إيطاليا، وكان الأتروسك أشد الشعوب المقيمة في إيطاليا حضارة ومدنية. فقد بنوا القلاع المنيعة وبرعوا في صناعة المعادن، وكانوا يستعملون خزفاً إغريقياً فاخراً. وكانت القبائل اللاتينية الساكنة على الضفة الأخرى همجية بالنسبة لهم، فقد كانوا شعباً زراعياً متأخراً خشناً وكان مركز عبادتهم معبداً أقيم لرب القبيلة جوبيتير، أي المشتري، على جبل ألبا، وكانوا يجتمعون لإقامة كبريات حفلاتهم على نحو يشبه كثيراً الاجتماعات القبلية القديمة. وكان الحلف اللاتيني يضم عندها التجارة مع الأتروسك. وعند هذه النقطة بالذات نشأت روما التي وجد اللاجئون من البلدان اللاتينية الاثني عشر فيها ملاذاً ومورد رزق. ويبدو أن أسطورة الأخوين رومولوس وريموس والذئبة التي أرضعتهما ليست بذات قيمة لدى المؤرخين المعاصرين إذ وجدت تحت الفوروم الروماني قبور للاتروسكيين يرجع تاريخها إلى عهد أقدم من ذلك بكثير، وما يسمونه قبر رومولوس يحمل كتابة أتروسكية لم تفك رموزها.

وكانت أرض شبه الجزيرة الإيطالية، حتى ذلك الحين، أرضاً موحشة مليئة بالمستنقعات والغابات يرعى الفلاحون فيها أغنامهم ويقطعون الغابات للاستفادة من الأرض. ولم تكن روما في موقع شديد المنعة يساعدها على الدفاع. وكان الأتروسكيون، في صراعهم مع الرومان أحسن تسلّحاً وأكثر تمدناً وأوفر عدداً. لكنهم منيوا بكارثتين أوهنتا قواهم إلى حد جعل الرومان يغلبونهم غلبة تامة. أولى هاتين الكارثتين كانت حرباً مع إغريق سيراقوزة بصقلية انتهت بتدمير الأسطول الأتروسكي (سنة ٤٧٤ق.م) والثانية غارة عظيمة شنها الغال من الشمال على إيطاليا واجتشدوا وانتشروا في شمال البلاد واحتلوا وادي نهر پو حوالي نهاية القرن الخامس ق.م. ثم استطاع الرومان بعد حرب طويلة وفي فترات متقطعة أن يستولوا على فياي، وهي قلعة أتروسكية تقع على بعد بضعة أميال من روما.

وإلى فترة الكفاح هذه بين الرومان وبين «التاركوينيين» ملوك الأتروسك يشير كتاب اللورد ماكولي «أناشيد روما القديمة».

● الرومان والغال:

واصل الغال غاراتهم على شبه الجزيرة الإيطالية ودمروا كل شبر من أترووريا، موطن الأتروسك، واستولوا على روما ونهبوها (سنة ٣٩٠ق.م) وقاومتهم قلعة الكابيتول. وتقول الأساطير الرومانية أن الغال كادوا يأخذونها على غرّة ليلاً لو لم توقظ حركة تسللهم بعض الأوزات التي صاحت صيحات عالية وأيقظت الحامية. فافتدى الغال بعد ذلك أنفسهم بالمال وعادوا أدراجهم إلى الشمال إذ أنهم لم يكونوا مزودين بالقدر الكافي مما يلزم لعمليات الحصار من عتاد. وربما كان تفشي المرض في معسكرهم سبباً آخر في ما أصابهم من كوارث. ومع أنهم قاموا بغارات تالية فأنهم لم يصلوا بعد ذلك إلى روما أبداً.

وكان قائد الغال الذين نهبوا روما يدعى برنيوس. ويروى عنه أنه عندما سبب ذهب الفدية في الميزان نزاعاً في شأن صحة الوزن وتعادل الكفتين القى بسيفه في كفة الميزان قائلاً: «الويل للمغلوب» وهذه العبارة ما زالت ترافق كل مناقشة حول الفدية والتعويضات حتى يومنا هذا.

شُغلت روما خلال نصف القرن التالي في سلسلة من الحروب أرادت بها أن تجعل من نفسها زعيمة للقبائل اللاتينية. فاحتراق المدينة الكبرى استنهض همتها بدل أن يقعدها عن العمل. ولم تأت سنة ٢٩٠ق.م حتى كانت روما سيدة بلاد إيطاليا الوسطى من نهر الآرنو إلى جنوب نابولي فقد قهرت الأتروسكيين قهراً تاماً وأخذت حدودها تنتقل شمالاً تبعاً لتقهقر حدود

الحضارة الرومانية

الغال، وتمتد جنوباً بارتداد تخوم أصقاع إيطاليا الواقعة تحت السيادة الإغريقية. وثبتت الحاميات ومدن المستقرات على امتداد الحدود بينها وبين الغال.

● الرومان وايبروس:

كانت إيبروس وهي أدنى جزء في بلاد الإغريق موطن أوليمبياس أم الاسكندر. وإثر وفاة هذا الأخير كان المقدونيون يغشون إيبروس أحياناً، وكانت تظل مستقلة أحياناً أخرى. وكان ملكها بيروس من أقرباء الاسكندر الأكبر، وكان ذا مقدرة وإقدام، ويبدو أنه كان يعدُّ العدَّة لغزو إيطاليا والحبشة. وكان تحت إمرته جيش جدير بالإعجاب. وكان جنود الرومان قليلي الخبرة وضعافاً لا يقدرون على شيء حياله في أول الأمر. فقد كان جيشه يحتوي على كل الوسائل والمعدات الحربية المعروفة من زمانه: من فيالق المشاة والفرسان التساليين وعشرين فيلاً مقاتلاً أحضرت من الشرق. فبدَّد شمل الرومان في معركة هرقليا (٢٨٠ق.م) ثم تعقَّبهم بشدَّة وهزمهم مرة ثانية في معركة أسكولوم (٢٧٩ق.م) في بلادهم نفسها. لكنه بدل أن يواصل تعقبهم هادنهم. ووجه نظره نحو إخضاع صقلية. فاضطرت بذلك دولة قرطاجة البحرية للتحالف ضده لأنها لم تكن تسمح بتأسيس دولة قوية فوق أرض صقلية القريبة منها. وكان القرطاجيون يرون في روما حتى ذلك الحين مصدراً للتهديد أقلّ خطراً عليهم من ظهور اسكندر آخر في أرض صقلية. هكذا ظهر أمام مصب نهر التيبر أسطول قرطاجة مشجعاً الرومان على استئناف القتال. وتحالفت روما وقرطاجة تحالفاً وثيقاً ضد الغزاة.

هكذا قضى تدخل قرطاجة على بيروس فانحلت عرى جيشه دون أن يشتبك في معركة فاصلة، واضطر أن يتراجع إلى أيبروس (٢٧٥ق.م) بعدما مُني بكارثة في هجوم له على المعسكر الروماني بنيفنتم. ويسجِّل لنا التاريخ أن بيروس عندما غادر صقلية قال: إنه يغادرها لكي تصبح ميداناً للقتال بين روما وقرطاجة. ثم قتل بعد ذلك بثلاث سنوات في معركة شوارع آرجوس.

● الرومان والقرطاجيون:

يرجع الفضل في انتصار الرومان على بيروس إلى الأسطول القرطاجي. لكن روما جنت من هذا النصر نصفه. فقد انتقلت صقلية بأكملها إلى قرطاجة وتقدمت حدود روما جنوباً حتى أصابع إيطاليا وعقبها. وأخذت ترمق بنظرها منافستها الجديدة عبر مضيق مسينا ولم تمضِ إحدى عشرة سنة (٢٦٤ق.م) حتى تحققت نبوءة بيروس وابتدأت الحرب مع قرطاجة، وهي الحروب البونية الثلاثة ـ كلمة بونية مشتقة من اللاتينية وتعني القرطاجية أي الفنيقية ..

الحرب البونية الأولى: (٢٦٤ ـ ٢٤١ق.م) بدأت في صقلية وأحرز القرطاجيون خلالها انتصارات كبيرة بقيادة هملقار برقا. لكنها أساءت إلى مصالح قرطاجة التجارية فطلب القرطاجيون عقد صلح مع روما سنة ٢٤١ وانسحبوا من صقلية.

الحرب البونية الثانية: (٢١٨ ـ ٢٠٢ق.م) طالب الرومان قرطاجة بتسليم جزيرتي سردينيا وكورسيك وكان هنيبعل قد خلف والده هملقار في قيادة الجيش القرطاجي، فأعد جيشاً كبيراً وانطلق من أسبانيا مروراً بجنوب فرنسا واجتاز جبال الألب ووصل إلى إيطاليا حيث أحرز انتصارات كبيرة على الرومان، أهمها معركة بحيرة ترازيمان سنة ٢١٧ق.م ومعركة كان سنة ٢١٦ق.م. لكن الرومان تمكنوا من إرسال جيش إلى قرطاجة بقيادة سيبيون سنة ٢٠٤ق.م. فتمكن من الانتصار على هنيبعل في معركة زاما سنة ٢٠٢ق.م بعدما وصل القائد القرطاجي على عجل إلى المدينة.

الحرب البونية الثالثة: (١٤٩ ـ ١٤٦ق.م) بعدما استعادت قرطاجة قوتها بسرعة، طالبتهاروما بتسليمها هنيبعل الذي غادر المدينة وتوجه إلى آسيا الصغرى حيث انتحر بالسم. فاندلعت حرب جديدة بين المدينتين وتفوقت فيها روما بسبب كثرة عدد جيشها وسقطت قرطاجة فأحرقها الرومان وسيطروا على غرب المتوسط بكامله.

وبين ٥٨ و٥٠ق.م. احتل الرومان

الحضارة الرومانية

نهر الراين

غاله (فرنسا) بقيادة يوليوس قيصر الذي طرد الجرمانيين منها إلى ما وراء نهر الراين وانتصر نهائياً على الغاليين سنة ٥٢ق.م. بعد استسلام قائدهم فيرسنجيتوريكس إثر معركة أليزيا. وعبر الرومان بحر المانش وبسطوا نفوذهم على انكلترا التي أصبحت مقاطعة رومانية سنة ٤٣ ميلادية.

وأصبحت أفريقيا الشمالية، بعد هزيمة قرطاجة تحت حكم الرومان، فاتجهوا بعدها نحو أسبانيا التي ضمَّت إلى أراضي الجمهورية الرومانية سنة ١٣٣ق.م. وسنة ١٢٠ق.م أصبحت بلاد الغال (فرنسا) مقاطعة رومانية. وبعدما أصبحت روما القوة الأساسية في حوض البحر الأبيض المتوسط تحوَّلت أنظارها نحو الشرق وراحت تثير الأمم الواحدة منها على الأخرى لتفرض وصايتها عليها حين تلزم الحاجة. وهذه الوصاية كانت تتحوَّل إلى احتلال فعلي. **فمقدونيا** أصبحت مقاطعة رومانية سنة ١٤٦ق.م بعد تدخُّل روما لمساندة آتال ملك برغام ضد فيليبس ملك مقودنيا الذي هزم بدوره سنة ١٦٨ق.م. فأصبحت مقدونيا منذ ذلك الحين تحت الوصاية الرومانية، ومن ثم مقاطعة رومانية منذ سنة ١٤٦ق.م

أما اليونان: فقد تبعت مقدونيا سنة ١٤٦ق.م بعدما ثارت عدة مدن يونانية على الوجود الروماني فتدخلت روما وفرضت احتلالها على اليونان. ومملكة **برغام** التي أورثها ملكها آتال إلى روما سنة ١٣٣ق.م. ومملكة بنطس التي قسمت إلى مقاطعتين رومانيتين سنة ٦٣ق.م بعد هزيمة ملكها ميتريدات على يد القائد بومبيوس، وذلك بعد مقاومة دامت ١٥ عاماً. **وسوريا** التي تحوَّل إليها بومبيوس سنة ٦٣ق.م. بعدما هزم متريدات ملك بنطس فضمَّها إلى أراضي الجمهورية الرومانية يدفعه إلى ذلك مركز سوريا الاقتصادي وأهميتها في التجارة العالمية آنذاك. وأخيراً **مصر** التي أصبحت مقاطعة رومانية سنة ٣٠ق.م. بعد هزيمة أنطونيوس على يد أوكتافيوس في معركة أكسيوم التي قضت على حلم كليوباترا ملكة مصر بإنشاء امبراطورية في الشرق عاصمتها الاسكندرية وتنافس الدولة الرومانية.

● الحكم الأمبراطوري:

أوكتافيوس كان أوَّل الأباطرة الرومان. وقد لقِّب بأوغسطس وكان هاجسه الوحيد إعادة النظام وتركَّز حكمه على أسس عادلة وصريحة وعرفت روما في عهده ازدهاراً لا مثيل له.

بعده عرفت الأمبراطورية الرومانية سلالات من الأباطرة هي:

الحضارة الرومانية

السلالة القيصرية: التي حكمت من سنة ١٤م إلى سنة ٦٨م وضمَّت تيباريوس، كاليغولا، كلوديوس ونيرون. وقد تميَّز حكم هؤلاء بالقسوة، خاصة نيرون لدرجة دفعت بعض القادة الرومان بالتفكير جدياً بإعادة الحكم الجمهوري. وكان الأباطرة في خوف دائم من الاغتيال. رغم ذلك كان الحكم قوياً والسِّلم يخيِّم على كافة أنحاء الأمبراطورية.

السلالة الفلافية: وحكمت من سنة ٦٨م إلى سنة ٩٦ وضمَّت فسبزيانوس وولديه تيطوس ودوميسيانوس. في عهدهم استمر السِّلم مخيماً وقاموا بأعمال عمرانية عديدة في روما وضمُّوا جميع الأراضي الواقعة بين نهري الراين والدانوب إلى الامبراطورية تداركاً لهجمات الجرمانيين.

السلالة الأنطونية: وحكمت من سنة ٩٦ م. إلى سنة ١٩٢م. وضمَّت نيرفا، ترايانوس، هادريانوس، أنطونيوس، ماركوس أوريلوس، كومودوس، وكلهم من أصل غير إيطالي. وقد اهتموا بالمقاطعات الرومانية خارج إيطاليا وواجهوا خطر الهجمات الجرمانية من الشمال فتصدُّوا لها وثبَّتوا حدود الأمبراطورية على ثلاثة أنهر: الراين والدانوب والفرات. وبنوا التحصينات على مختلف أنحاء الحدود المتبقية. ويعتبر حكمهم العهد الذهبي للدولة الرومانية التي وصلت إلى أوج مجدها.

الأباطرة العسكريون: وحكموا من سنة ١٩٣م إلى سنة ٣٠٥م. وتتميَّز تلك المرحلة بحالة من الفوضى العسكرية والتنافس الشديد وفترات الحكم القصيرة بسبب تعرضهم للانقلابات المتكرِّرة. كما تضاعف الخطر الجرماني وتعاظم دور العسكريين الطامعين بالحكم. ومن أباطرة هذه المرحلة: سبتيموس ساويروس وابنه كركلاً، أورليانوس وديوكليسيانوس الذي أسَّس حكماً جديداً ضم أمبراطورين، لكل منهما نائب دُعِيَ القيصر. وكان الهدف من ذلك مراقبة الحدود وصد الجرمانيين بسرعة وفعالية. لكن نظامه لم يعمِّر طويلاً.

تحوُّل الدولة الرومانية إلى دولة مسيحية: سنة ٣٠٦م وصل [illegible]

الحضارة الرومانية

الأمبراطور قسطنطين الكبير الذي أقر المساواة بين جميع الأديان في الامبراطورية بموجب براءة ميلانو سنة ٣١٣ واعترفت الدولة بالمسيحية ديناً قائماً بحد ذاته.

وأسس قسطنطين عاصمة جديدة للامبراطورية هي القسطنطينية، أي مدينة بيزنطية الواقعة على شاطىء البوسفور بين آسيا وأوروبا سنة ٣٩٢م. وفي عهد تاودوسي أصبحت المسيحية ديناً للدولة ومُنعت عبادة الأوثان في أنحاء الأمبراطورية الرومانية كافة. وسنة ٣٩٥م قسّم تاودوسيوس الامبراطورية إلى قسمين: غربي وعاصمته روما أعطاه لابنه هونوريوس، وشرقي وعاصمته القسطنطينية أعطاه لابنه أركاديوس. وفي أواخر القرن الرابع، لم تعد الدولة الرومانية قادرة على الصمود بوجه السيل الجرماني الزاحف من الشمال. فراحت الشعوب الجرمانية تجتاز حدود روما وتتمركز داخلها. وسنة ٤٧٦ شن الجرمانيون هجوماً على إيطاليا ودخلوا روما وخلعوا آخر الأباطرة رومولوس أوغوستول، وكان طفلاً.

● الهندسة الرومانية

اشتهر الرومان بالعمران فشقوا الطرق التي وصلت المقاطعات ببعضها البعض وبنوا المتاحف والجسور والمسارح والمعابد. ولأن حضارتهم كانت مدينية فقد احتاجوا إلى السرعة في البناء. وهذا ما دفعهم إلى تطوير هذا الفن. وكان من أبرز مهندسيهم ڤيتروقيوس الذي ترك كتاباً في فن الهندسة ما زال حتى اليوم مرجعاً. وقد استعمل الرومان إلى جانب الحجر المنحوت القرميد، وغايتهم السهولة في الانجاز وضاعفوا من الزخرفة الخارجية فبنوا القناطر والعقد المقببة. ولأنّهم انطلقوا من فكرة خلود امبراطوريتهم، فقد أنجزوا أبنية ضخمة تجسّد انتصار الإنسان الروماني على الطبيعة وتسخيرها لخدمة عظمة دولته. فقد وجدت قرب جسر نهر القنطرة على نهر التاج في اسبانيا كتابة تقول أن المهندس كايوس يوليوس لاسر بنى الجسر ليدوم دوام العالم. كما بنى الرومان السيرك ماكسيم والكوليزيه وعمود تراجان وحمامات كركلاً وپانتيون أغريپا والمعابد وأشهرها بعلبك، وعدداً كبيراً من أقواس النصر التي تشهد حتى اليوم على حضارتهم الخلاقة.

كانت قصور الأغنياء وداراتهم غاية في الروعة والجمال. كانت تتألف من عدد من غرف النوم وقاعات الطعام والاستقبال والمطابخ والحمامات وكانت المياه تجري فيها بالأنابيب. وكان للدار رواق تحيط به الأعمدة الرخامية الجميلة من بعض جوانبه، وتتوسطه فوارة يندفع الماء من ثقوبها عالياً كخيوط المطر. وكان يحيط بالدار والرواق جنائن غناء ترتفع في جنباتها التماثيل الفنية وتنتشر في أرجائها المقاعد والطاولات وكلها من المرمر والرخام.

واعتنى الرومان بمساكنهم وطوّروها. فبعدما كانت البيوت في القرون الأولى من العهد الروماني صغيرة تتألف من غرفة أو غرفتين على الأكثر، وفيها فتحة في وسط السقف ليدخل منها النور ولينزل فيها المطر عن السطح إلى بركة معدة لجمع الماء في أرض الدار، طرأ تحسن كبير على المساكن حين اتسعت الدولة وازدادت مواردها وارتفع دخل أبنائها.

وكان من عادة الثري الروماني أن يتخذ بيتاً ضخماً في المدينة ودارة جميلة في الجبل أو الريف. وكان بيت المدينة هو المسكن الرئيسي الدائم أما الدارة فكانت لقضاء فصل الصيف وللراحة والاستجمام واستقبال الضيوف وتمضية الإجازات القصيرة في بعض فصول السنة. أما متوسطو الحال فكان معظمهم يملكون بيوتاً حيث يقيمون في المدن أو القرى. ومن لا يملك بيتاً منهم كان يستأجر لقاء بدل معتدل عموماً.

المجتمع الروماني مجتمع وثني

كان الرومان الأولون وثنيين كغيرهم من الشعوب القديمة. فقد عبدوا قوى الطبيعة وتوهّموا أن لكل ناحية من نواحي حياتهم إلهاً يسهر عليها ويدبرها فكان لباب البيت إله يحرسه ويمنع الأشرار من دخوله ولمخزن المؤونة إله يرعاه ويباركه وللموقد إله يحفظ ناره مُتَقِدة حامية. وكانت تلك الآلهة أرواحاً مجردة لا تُلمس ولا تُرى.

الحضارة الرومانية

ولكن بعد احتكاك الرومان بالفنيقيين واليونانيين وغيرهم من الشعوب، بعد الغزوات والفتوحات تطورت نظرتهم الدينية وصاروا يعتقدون أن الآلهة كالبشر من حيث الشكل والصفات والعواطف. وأشهر آلهتهم جوبيتر أبو الآلهة وسيّدها وزوجته يونو إلهة السماء وحامية النساء في الولادة والزواج، ومارس إله الحرب والزهرة إلهة الحب وڤستا حامية الحياة العائلية.

وشيّد الرومان الهياكل الفخمة لآلهتهم ونظموا الطقوس والعبادات من أجلها وقدّموا لها الضحايا دفعاً لغضبها وطمعاً برضاها. وتشكل هياكل بعلبك نموذجاً لما كان الرومان يبذلون في سبيل تكريم آلهتهم وعبادتها.

وقد أخذ الرومان عن الشعوب الأخرى اعتقادهم بأن الإنسان يستطيع الوصول إلى معرفة الغيب إذا مارس بعض الطقوس وقام ببعض الشعائر والأعمال الخاصة فاعتقدوا مثلاً أن اتجاه الطير في طيرانه، والسبيل الذي يسلكه الحيوان في سيره والشكل الذي تبدو فيه أمعاء الحيوان الذبيح، تكشف أسرار الغيب لمن يعرف أن يفهمها.

ولم يؤلف كهنة الرومان طبقة مميزة في المجتمع، بل كانوا مواطنين عاديين أو أعضاء في مجلس الشيوخ أو موظفين في الدولة.

ويقي الرومان متمسكين بدينهم مؤمنين بآلهتهم إلى أن جاء الدين المسيحي وأخذ يهدم العقائد الوثنية ويبعد الناس عن عبادة الأصنام ويقربهم إلى معرفة الله. وقد انضم إلى يسوع الناصري الذي ولد في بيت لحم، في اليهودية، من مريم العذراء، الفقراء والمتواضعون والمتروكون. لكن الفريسيين وهم جماعة من اليهود ادّعوا التمسك بالدين وتظاهروا بالصلاح رغم باطنهم الرديء، حاربوا يسوع وقبضوا عليه وحاكموه عند حاكم اليهودية الروماني بيلاطس البنطي.

ولم تكن المسيحية ديانة خاصة بعائلة واحدةٍ أو مدينة أو شعب أو عرق بشري، بل توّجهت إلى جميع الناس، وجاءتهم بسلام الروح في إطار من العدالة والحق. وعرّفتهم إلى الإله الواحد القدير الكامل خالق الكون وأب الجنس البشري الذي خلق الإنسان على صورته ومثاله. وعلّمت المسيحية، أيضاً، البشر مسامحة بعضهم البعض ومبادلة الشر بالخير والخوف من الخطيئة أكثر من الموت والانشغال بالسعادة السماوية لا بملذات الدنيا والسعي إلى ملكوت الله دون الاهتمام بتفاصيل الحياةِ اليومية، وردّت المسيحية للمرأة كرامتها عن طريق جعل الزواج مقدساً، فلم تعد مجرد وسيلة للمتعة واللذة والإنجاب. وساوت بين جميع الناس ووضعت أسساً جديدة لمجتمع يخلو من العبودية.

وانتشرت المسيحية بسرعة رغم مساعي اليهود إلى الحد من انتشارها. فقد رجموا مثلاً القديس اسطفان وقتلوا القديس يعقوب أخا يوحنا. لكن اعتناق بولس للمسيحية بعد ظهور المسيح له على طريق دمشق جعله يجول في أنحاء سوريا وآسيا الصغرى واليونان ويصل إلى روما وإلى إسبانيا مبشراً بالانجيل مؤسساً الكنائس ومنظماً لها. كما نشر القديس توما المسيحية في إيران والقديس برتلماوس في الهند بينما توجه القديس بطرس إلى أنطاكية وآسيا الصغرى واستقر في روما حوالي سنة ٤٢.

كان نيرون (٥٤ـ٦٨) أول امبراطور روماني يضطهد المسيحيين. فقد قطع رأس القديس بولس في روما وصلب القديس بطرس سنة ٦٧م وتفاقمت الاضطهادات بسبب رفض المسيحيين لتعدد الآلهة وعبادة الأوثان والخضوع لسلطة الامبراطور الدينية. هكذا كانت رؤوس المواطنين الرومان المسيحيين تقطع ويذوق مسيحيون آخرون أنواع العذابات ويموتون حرقاً وصلباً أو طعاماً للحيوانات المفترسة شهادة لدينهم وهذا ما جعلهم، خلال فترات طويلة، وحتى بداية القرن الرابع، يمارسون شعائرهم الدينية سراً وتشهد على ذلك ديناميس روما الشهيرة حتى اليوم.

وحين وصل الامبراطور قسطنطين إلى الحكم أصدر سنة ٣١٣ براءة ميلانو وفيها أعلن حرية ممارسة الشعائر الدينية المسيحية. فغدت حياة الكنيسة علنية وبدأت مرحلة تنظيمها. وكان الرسل قد وضعوا أسساً لذلك منذ القرن الأول للميلاد فجعلوا لكل مدينة أسقفاً وأصبح أسقف روما بصفته

الحضارة الرومانية

معبد روماني في جبل حرمون

وريث القديس بطرس على رأس الكنيسة جمعاء، يليه أهمية بطريرك القسطنطينية ثم بطاركة أنطاكية والاسكندرية والقدس. ورغم ذلك ظلت الوثنية سائدة حتى أواخر القرن السادس.

القوانين الرومانية

تعتبر الأعمال التي قام بها الرومان في حقل القانون من أبرز منجزاتهم الحضارية. فقد كرّس عدد من علمائهم ومفكريهم حياتهم للعمل في حقل القانون بحثاً وتشريعاً وقضاء وتأليفاً وتدريساً.

ولم يكن لدى قدماء الرومان قانون مدوّن، بل كان حكامهم وشيوخ قبائلهم وقضاتهم ينظرون في الدعاوى المقدمة إليهم ويصدرون الأحكام بشأنها مستندين على الضمير والوجدان ومعتمدين على العرف والعادة ومسترشدين بالأحكام التي كان قد أصدرها قضاة آخرون في حالات مماثلة. فلم يكن بمقدور أصحاب العلاقة، والحالة هذه، أن يعرفوا بأية شريعة يحاكمون أو يتكهنوا بما قد يكون عليه الحكم. وأسوأ ما كان في الأمر أن التوقيف الكيفي كان ممكناً في ظل ذلك النظام.

ولم تكن الأحكام الصارمة كالسجن المؤبد والإعدام تستند دوماً إلى قوانين صريحة ثابتة. هذه الحالة دامت بعد تأسيس الجمهورية الرومانية الأولى حتى حوالي سنة ٥٠٠ ق.م.

لكن أبناء الطبقة الوسطى شعروا بالحاجة إلى قانون يحميهم من المظالم

الحضارة الرومانية

كنيسة مار يوحنا في جبيل

ويحدد أصول المحاكمات وإجراءاتها بضمان العدالة وصيانة الحقوق. وطالبوا الحكومة بإصرار وإلحاح بوجوب تدوين الشرائع ونشرها لكي يطلعوا عليها ويعرفوا ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات.

هكذا قرّرت الحكومة الرومانية تدوين الشرائع وجمعها في كتاب استجابة لمطالب الناس. ثم رأت أن لا يقتصر عملها على جمع القوانين القديمة فحسب بل أن يصار كذلك إلى وضع تشريعات جديدة اقتضتها التطورات الكثيرة التي دخلت على حياة الرومان وتفكيرهم. فتشكلت لجنة من عشرة أعضاء من الأشراف برئاسة القناصل أنفسهم لتنفيذ هذه المهمة. وأسفرت جهودهم عن وضع مجموعة من القوانين التي تعالج مختلف الشؤون، ونقشت موادها على اثنتي عشرة لوحة نحاسية وعلّقت في مكان عام ليتمكن الجميع من قراءتها والإلمام بمضمونها. عُرفت هذه المجموعة بقانون «الاثنتي عشرة لوحة» وقد صدرت حوالي سنة ٤٥٠ق.م. وضمنت حق المواطن في الحياة والحرية والتملك وحرّمت أي تعدٍّ على هذه الحقوق ونصّت على وجوب حضور المدَّعي والمدَّعى عليه أمام الحاكم عند النظر في دعواهما. وفي حال تهرُّب أحد الفريقين من الحضور نصّت الشريعة على تخويل القاضي إصدار الحكم لمصلحة الفريق الثاني الذي يكون حاضراً. لكن هذه الشريعة أبقت على بعض مساوىء القانون القديم كالسَّمَاح للدائن باسترقاق المدين إذا عجز عن الدفع ومنع الزواج بين أبناء الطبقتين العليا والمتوسطة.

وللقانون الروماني غير المدوَّن مصادر عديدة أقدمها العرف والعادة والتقاليد التي كانت شائعة بين القبائل الرومانية قبل تأسيس الجمهورية. ثم القياس إذا كان القضاة يعتبرون الأحكام الصادرة قبلاً في دعاوى مماثلة سوابق قانونية يصح القياس عليها. ثم الاجتهاد إذ غالباً ما كان تفسير القاضي لقانون ما ينتهي به إلى استخراج قاعدة قانونية جديدة.

وبعد قانون «الاثنتي عشرة لوحة» أدرك المسؤولون الرومان أن التطورات السريعة الطارئة على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في البلاد تستدعي سن قوانين جديدة متطورة تماشي روح العصر فتولت الهيئات الرسمية الثلاث: مجلس الشيوخ ومجلس الشعب والحكام الإداريين إصدار القوانين والأنظمة والمقررات وبعد إعلان الأمبراطورية أصبح الأباطرة يمارسون هذا الحق.

وفي أواسط القرن السادس حكم الأمبراطور البيزنطي جوستينيان وكانت الفوضى قد دبّت في القوانين والأحكام وأصبح بعضها يتعارض مع البعض الآخر أو يناقضه وأدرك جوستينيان هذا الخطر فأسّس سنة ٥٣٠م لجنة من كبار رجال القانون برئاسة المشترع تريبونيان وعهد إليها أمر جمع القوانين الرومانية

الحضارة الرومانية

السابقة ودرسها بواقعية واختيار الصالح منها وتوحيده في مجموعة مصنفة تصنيفاً جيداً يسهل أمر الرجوع إليها على القضاة والمشترعين وطلب إليهم كذلك إضافة بعض القوانين الجديدة التي تستلزمها التطوّرات الكثيرة التي طرأت على أحوال البلاد وسنة ٥٣٤م نشرت اللجنة المذكورة ثمرة جهودها تحت عنوان «مجموعة القانون المدني» وفيها أربعة أقسام: مجموعة القوانين، الموجز، النظم والقوانين الجديدة.

ويعتبر عمل جوستينيان هذا عظيماً ومن أبرز المنجزات الحضارية التي حققها العالم القديم. أما «مجموعة القانون المدني» فأصبحت مرجعاً لعدد كبير من المشترعين في التاريخ الحديث. وأتم جوستينيان عمله الإصلاحي بتطوير مدارس القانون فأمر بإغلاق معظم المدارس وحصر التعليم بالمدارس الكبيرة: مدرسة القسطنطينية، مدرسة بيروت ومدرسة الإسكندرية، أي التي تحافظ على مستوى راقٍ من التعليم.

● الازدهار الاقتصادي في الامبراطورية الرومانية

كان لاتساع الأمبراطورية الرومانية وحسن تنظيمها وضبط إدارتها تأثير كبير على تطورها الاقتصادي؛ خاصة أثناء عهد السلم الطويل الذي دام حوالي القرنين في مطلع التاريخ الميلادي. هذا التأثير تجلى في أربع نواح مهمة هي: ازدهار وارتفاع الإنتاج العالمي وازدهار حركة التبادل في الأسواق وانفتاح أبواب العمل والكسب أمام جميع الناس على نطاق واسع لم يشهد العالم القديم مثيلاً له. كما أصبح الاقتصاد الروماني متكاملاً تقريباً إذ كانت الأقاليم الواسعة الخاضعة للراية الرومانية مختلفة بعضها عن بعض من حيث طبيعتها ومناخها ونباتها وثرواتها المعدنية. هكذا أصبح الإقليم الواحد يصدر منتجاته الخاصة إلى الأقاليم الأخرى ويستورد منها ما هو مفتقر إليه. من ناحية ثانية، ارتكز الاقتصاد الروماني على الزراعة إذ كانت الأرض المنتج الأول والأهم واعتمد على عمل العبيد لأن الآلات لم تكن متوفرة في تلك الأيام وكان العمل يعتمد على الطاقة البشرية بالدرجة الأولى، فكانت الحاجة إلى العبيد كبيرة لأنهم كانوا يؤمنون اليد العاملة في جميع المرافق الاقتصادية الرومانية بأبخس الأثمان.

وكان الإقبال على تعاطي الأعمال الزراعية شديداً لأن تصريف الإنتاج كان سهلاً والأسعار مناسبة وارتفع عدد السكان في مناطق عديدة. الدولة تشجع الزراعة وتساعد المزارعين بعدة وسائل لكي تؤمن الطعام، وخصوصاً القمح للسكان. وسيطرت الأمبراطورية الرومانية على أراض زراعية خصبة تتوزع في جميع أنحائها منها: أحواض الأنهار في إسبانيا والسهول الخصبة في فرنسا وحوض نهر البو في إيطاليا، وحوضا دجلة والفرات ووادي النيل وسهول سوريا وآسيا الصغرى وشمال أفريقيا. كما عمد المزارعون إلى استغلال الأراضي المهملة الجرداء المفتقرة إلى المياه. وساعدتهم الحكومة في ذلك فحفرت الآبار وأنشأت السدود على الأنهار وحفرت الأقنية وبنت القناطر المرتفعة لإيصال المياه إلى أماكن بعيدة. ولا تزال آثار هذه المنشآت العظيمة ماثلة للعيان في عدّة بلدان مثل اسبانيا وفرنسة وسوريا ولبنان.

وكانت الأراضي الزراعية ثلاثة أنواع: **المزارع الصغيرة** ويملكها مواطنون أحرار. **والمزارع الكبيرة** وتخص كبار القواد والأغنياء والاقطاعيين ويعمل فيها العبيد أو الفقراء بالسخرة أو بأجور زهيدة جداً. **والأراضي التي تملكها الدولة في** المستعمرات الرومانية والتي تعرضها للإيجار فلا يستطيع أن يتقدم لاستئجارها سوى الأغنياء الذين يتوفر لديهم المال لدفع بدلات الإيجار.

ولهذا أصبحت معظم الأراضي الزراعية ملكاً للأغنياء الذين كانوا يجنون منها أرباحاً كبيرة. وكانت الطاقة المستعملة في المزارع على نوعين: بشرية وحيوانية. فقد اعتمد المزارعون على العبيد وعلى البقر للحراثة، وعلى البغال لنقل منتجاتهم الزراعية وأحمالهم الثقيلة إلى الأسواق، وعلى الخيل للركوب وعلى الحمير لما هو دون ذلك من أعمال النقل والمواصلات.

وكان الإنتاج الزراعي متنوعاً: فالقمح والحبوب الأخرى كان يعتمد

الحضارة الرومانية

في انتاجها على صقلية ومصر وسوريا وإسبانيا وأفريقيا الشمالية. وزيت الزيتون كان يُنتج في شبه الجزيرة الإيطالية وفي إسبانيا. واشتهرت إيطاليا واليونان وتركيا وسوريا ولبنان وبعض مناطق شمال أفريقيا بالفاكهة والأثمار كالعنب والتين والكرز والخوخ والإجاص والتفاح والدراق والسفرجل واللوز وغيرها. ولم تكن الثروة الحيوانية أقل أهمية في الإنتاج الزراعي فقد كانت قطعان الغنم والماعز والبقر تسرح في جبال إيطاليا وهضاب إسبانيا وآسيا الصغرى وبوادي سوريا وجبال شمال أفريقيا.

وازدهرت الصناعة في الأمبراطورية الرومانية واختصت كل منطقة بنوع أو أكثر من الصناعات. على أن الصناعات كانت كلها بدائية يدوية ومنتشرة في المدن والريف: فالقريون كانوا يقومون بأعمال الغزل والنسيج وغيرها في بيوتهم وأصحاب الحرف الفنية الدقيقة كان لهم، في المدن، دكاكين في الأسواق التجارية يستعملونها كمصانع للإنتاج وحوانيت لعرض البضائع وبيعها إلى الزبائن. وكان معظم أصحاب هذه الصناعات من المواطنين الأحرار. وكان هناك مصانع كبيرة إنتاجها ضخم ويملكها الأغنياء ويقوم بالعمل فيها العبيد.

وكانت التجارة في العهد الروماني نشيطة جداً، ساعدت على ازدهارها وانتشارها عدة عوامل منها: إن ولايات الأمبراطورية الرومانية كانت سوقاً واسعة لها، والطرق المعبّدة الكثيرة التي أنشأها الرومان وربطوا بها أجزاء امبراطوريتهم بعضها ببعض سَهلت انتقال التجار والبضائع من مكان إلى آخر بسرعة وبكلفة أقل من السابق. ثم إن الرومان ضبطوا الأمن ضبطاً محكماً فطاردوا اللصوص وقطاع الطرق في البر وقضوا على القراصنة في البحر. هكذا شعر التجار والملاّحون بطمأنينة لم يشعروا بها من قبل. فكانت المركبات والحيوانات تنقل المنتجات الزراعية والصناعية من بلاد إلى أخرى سالكة الطريق المعبدة التي أنشأها الرومان على طول شاطىء البحر المتوسط لأغراض إدارية وعسكرية في الأصل. وكانت السفن التجارية تنقل قسماً من البضائع بين مرافىء الإسكندرية وبيروت ومرسيليا وأوستيا ونابولي وغيرها. وكان البيع والشراء يجريان بالنقود الذهبية والفضية والنحاسية التي دأب الأباطرة الرومان على سكّها وتحسينها وجعلها أداة فعّالة لتسهيل التبادل التجاري.

أما التجارة الخارجية فكانت تجري مع الهند والصين وبعض البلدان الشرقية الأخرى. فكان الرومان يستوردون المنتجات التي لا تتوفر لبلدان الامبراطورية الرومانية كالأرز والسكر والبهارات وخشب الصندل والحجارة الكريمة من الهند، والحرير من الصين واللؤلؤ من الخليج العربي. وكانت أشهر المواقع التي تمر فيها التجارة الخارجية بيروت وتدمر والبتراء. وكانت صادرات الأمبراطورية أقل من وارداتها بكثير فاضطرت إلى تسديد الفرق بالثمن نقداً بالذهب أو الفضة. وهذا ما أدّى إلى انخفاض كميات الذهب المتداولة في الأمبراطورية الرومانية.

• تصدع الأمبراطورية الرومانية:

في القرن الثالث ابتدأت أول الغارات الخطيرة للقبائل الجرمانية على الامبراطورية الرومانية بعد انحلال قوتها المركزية. ففي سنة ٢٣٦م قطع الفرنجة الحدود على الراين الأدنى وتسلل شعب آخر هو الألاماني إلى الألزاس وهجم الغوط من جنوب الروسيا، عبر السويد وعلى امتداد الطرق المائية حتى البحر الأسود أو بحر قزوين. وما لبثوا أن بدأوا يغيرون على شواطىء بلاد الإغريق. ثم عبروا نهر الدانوب في غزوة برية عظيمة سنة ٢٤٧م وهزموا الامبراطور ديكيوس وقتلوه في ما يسمّى اليوم ببلاد الصرب. واختفت داكيا من التاريخ الروماني لكن كلوديوس هزمهم سنة ٢٧٠م عند مدينة نيش ببلاد الصرب. بعد ذلك حارب الأمبراطور يروبوس الفرنجة والألماني سنة ٢٧٦م وأرجعهم وراء الراين كما عمد أورليان (٢٧٠م - ٢٧٥م) إلى تحصين روما بعدما كانت حتى ذلك الوقت مدينة مفتوحة.

سنة ٣٢١م هبط الغوط من جديد على الدانوب ونهبوا بلاد الصرب وبلغاريا تحذف فدفعهم قسطنطين الأكبر إلى الوراء. وفي منتصف القرن

الحضارة الرومانية

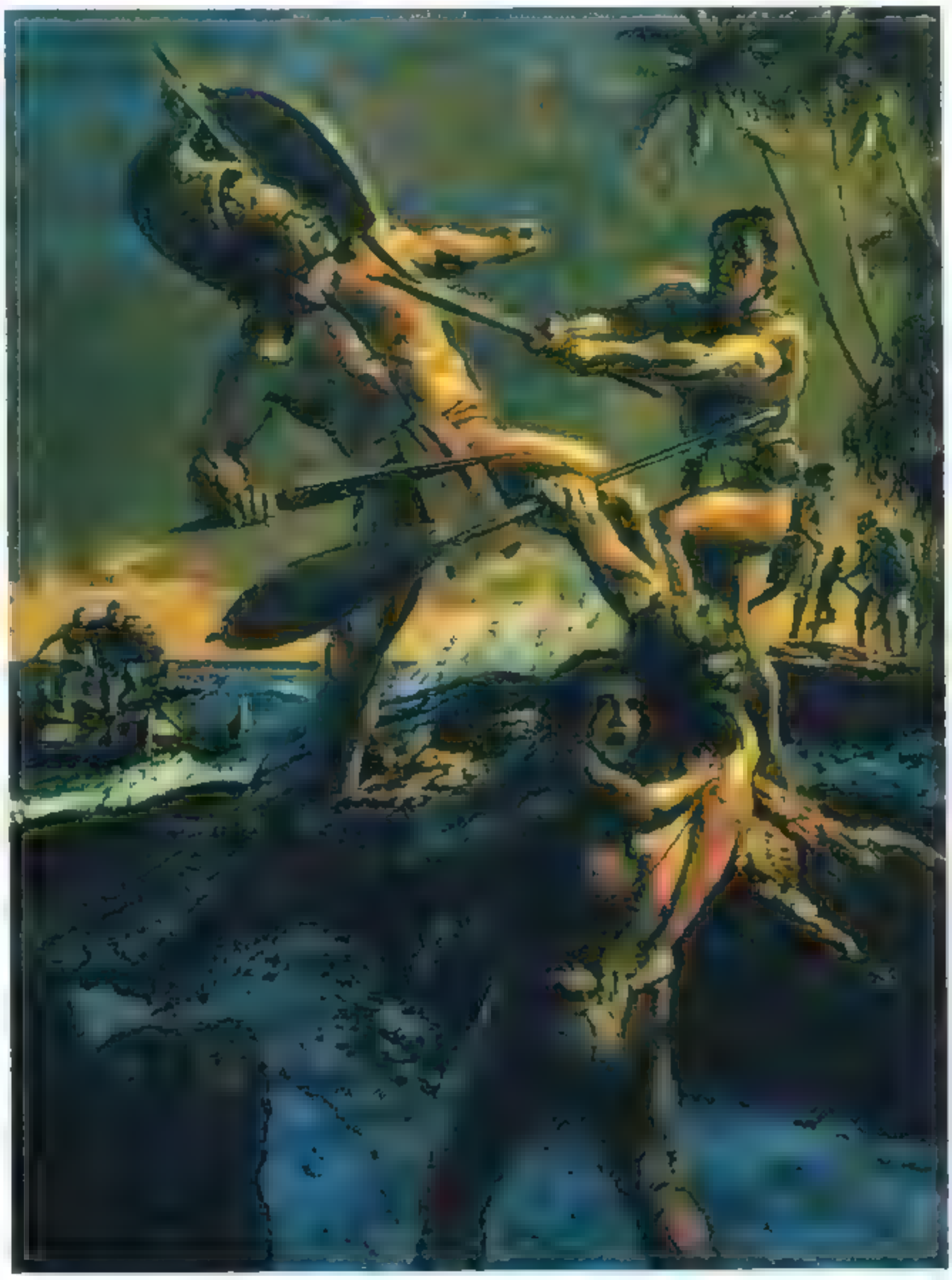

الحروب الرومانية

الرابع عادت الشعوب الهونية في الشرق إلى العدوان وكانوا قد أخضعوا الألماني من زمن بعيد، وها هم يجعلون الغوط الشرقيين من أتباعهم الذين يدفعون الجزية لهم. وحذا الغوط والغربيون حذو الوندال وأعدوا العدّة لعبور الدانوب إلى الأراضي الرومانية ثم دبَّ بين الطرفين شيء من النزاع وثارت ثائرة الغوط الغربيين فعمدوا إلى الهجوم وهزموا الامبراطور ڤالنس عند أدرنة وقتلوه في هذه المعركة واستقروا في بلغاريا وأصبح جيشهم رومانياً بالاسم فقط، إذ احتفظوا برؤسائهم وكان أبرزهم الأريك. وكانت الأمبراطورية الرومانية آخذة في الانقسام حينذاك إلى نصفين: شرقي، ناطق بالإغريقية وغربي ناطق باللاتينية. وخلف تيودسيوس العظيم على العرش إبناه: أركاديوس في القسطنطينية وهونوريوس في راڤنا. فأصبح الأوّل العوبة بيد ألاريك والثاني العوبة بيد زعيم غوطي آخر هو ستيليلو. وسنة ٤١٠م انحدر ألاريك في إيطاليا وفتح روما بعد حصار قصير.

وحوالي سنة ٤٢٥م اخترق الوندال، النازلين من ألمانيا الشرقية ومن جنوب روسيا الشرقي، بلاد الغال وجبال البرانس واندمجوا بعضهم ببعض مع قسم من الألاماني واستقروا في جنوب أسبانيا. وكان الهون يسيطرون على بانونيا وقوط في دالماتيا وهبط إلى أرض بوهيميا ومورافيا شعب صقلبي (سلافي) واستقر هناك هو التشيك. وكان في بلاد البرتغال وفي شمال الوندال في إسبانيا قوط غربيون وسويڤتي. وقُسِمتَ بلاد الغال بين القوط الغربية والفرنجة. وكانت تجتاح بريطانيا قبائل من جرمان السهل المنخفض بألمانيا هم الجوت والأنجلوسكسون وكان البريطاني الكلتي في الجنوب الغربي يفر من أمامهم عبر البحر إلى ما هو اليوم بريتاني بفرنسا. وسنة ٤٢٩م عبر الوندال جنوب إسبانيا، تحت إمرة ملكهم جنسريك وبمؤامرة من اثنين من سياسيي الدولة الرومانية، غزوا روما واستولوا عليها ونهبوها سنة ٤٥٥م ثم عبروا البحر إلى صقلية وأقاموا مملكة في غربها استمرت هناك مئة سنة حتى ٥٣٤م. وكانت مملكة الوندال هذه تضم في أقصى اتساع بلغته (حوالى سنة

الحضارة البيزنطية

٤٧٧م) كورسيكا وسردينيا وجزائر الباليار كما كانت تملك جزءاً كبيراً من شمال إفريقيا.

وسنة ٤٥١م أعلن أتيلا الحرب على الإمبراطورية الغربية، وهو أحد زعماء مملكة الوندال المذكورة، فغزا بلاد الغال ونهب معظم مدن فرنسا حتى أورليان جنوباً. واتحد ضده الفرنجة والغوط الغربيون والقوات الإمبراطورية وحدثت معركة عظيمة في ترويس هُزِمَ فيها ونجت أوروبا من أن يكون سيِّدها مغولياً بربرياً.

فوجه أتيلا، بعد هذه الكارثة، أنظاره جنوباً واجتاح شمال إيطاليا وأحرق أكويليا وبادوا ثم نهب ميلانو. لكنه عاد وتصالح مع أعدائه نزولاً عند رجاء البابا ليو الأوّل. ومات سنة ٤٥٣م.

وسنة ٤٩٣م أصبح تيودوريك، وهو غوطي، ملكاً على روما. وكان قد مضى سبعة عشر عاماً دون أن يكون هناك إمبراطور روماني. هكذا انتهت «السيادة العالمية» العظيمة مالكة الرقيق، سيادة القياصرة الأرباب وأثرياء رجال روما، ولفظت آخر أنفاسها وهي في أقصى حالات الانحلال والانهيار الاجتماعي.

الحضارة البيزنطية

بعد سقوط الدولة الرومانية الغربية تحت ضربات الشعوب الجرمانية سنة ٤٧٦م بقيت الدولة الرومانية الشرقية صامدة وظلت قائمة حوالي الألف سنة بعد سقوط شقيقتها الغربية. والدولة الصامدة عُرفت بالامبراطورية البيزنطية.

هذه الدولة البيزنطية لم تعرف حتى القرن السادس سوى أمبراطورين مهمَّين هما: مرقيانوس ويوستينيانوس. بينما عاش الآخرون حياة ترف في البلاط الأمبراطوري تاركين شؤون الحكم لحفنة من الأزلام والمستفيدين الذين راحوا يتدخلون في الشؤون اللاهوتية. وهذا ما كان له انعكاس على المجتمع البيزنطي الذي تفرَّق إلى جماعات متنافرة.

وتحسنت الأوضاع بوصول يوستينيانوس إلى الحكم سنة ٥٢٧م إذ سعى إلى إعادة أراضي الدولة الغربية إلى سلطة امبراطوريته. لكنه اصطدم في سبيل ذلك بالوندال في أفريقيا وبالقوط في إيطاليا. فتمكَّن من الوندال سنة ٥٣٣م وهزم القوط بعد فترة قليلة. لكن هؤلاء استعادوا إيطاليا بعد موته بثلاث سنوات، وأهم ما تركه هذا الامبراطور هو التشريعات الرومانية التي سبق وتحدثنا عنها. وبنى كنيسة آيا صوفيا في القسطنطنية وأدخل بذور دودة الحرير إلى الشرق وإلى أوروبا.

وفي القرن السابع أعاد الإمبراطور هرقل (بين ٦١٠ و٦٤١م) إلى الدولة البيزنطية عظمتها السابقة، فأحرز انتصارات على الفرس الذين هددوا الدولة من الشرق واستعاد صليب المسيح الذي كان الفرس قد استولوا عليه خلال غزوهم سوريا وفلسطين. لكن العرب تمكنوا، قبل مماته، من سلخ هاتين المنطقتين نهائياً عن الدولة البيزنطية.

وفي القرن الخامس عشر أصبحت

الحضارة العربية والإسلامية

الدولة البيزنطية دون جيش في ٢٩ أيار سنة ١٤٥٣ فطويت بذلك صفحة من تاريخ العالم القديم والشرق.

وبرزت في القرن الخامس بدع في الكنيسة أهمها بدعة نسطوريوس وبدعة أوطيخا: كان الأول بطريركاً على القسطنطينية رفض ألوهة المسيح ودعي إلى مجمع انعقد في مدينة أفسس سنة ٤٣١ وحُرِم فيه. وكان الثاني أرشمندريتا على دير قرب القسطنطينية وقع في الخطأ المعاكس وقال إن للمسيح طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية فانعقد مجمع في خلقيدونيا سنة ٤٥١ حُرم فيه أوطيخا وعقيدته المسَمَّاة مونوفيزية والتي بقيت منتشرة في مصر وسمِّي أتباعها أقباطاً. أما في سوريا فسُمّوا باليعاقبة. ثم برزت في القرن السابع بدعة أخرى هي الموتوتيلية التي نادت بأن للمسيح إرادة واحدة لكن هذه العقيدة حُرِمَت في مجمع القسطنطينية الثاني سنة ٦٨١م.

كما انتشرت، ابتداءً من القرن الخامس، الحياة الرهبانية في الدولة البيزنطية فكان هنالك حوالي خمسون ألف راهب، منهم حوالي ٢٠٠٠ انتشروا بين غزة ومصر واتبعوا سيرة القديس أنطونيوس الكبير الذي عاش في القرن الثالث وسمِّي «بأب الرهبان». وكان هؤلاء الرهبان يعيشون جماعات جماعات من عمل أيديهم وخاصة من الزراعة.

لكن بذور الانشقاق بدأت، في القرن التاسع، في الكنيسة بين الشرق والغرب، فلم يعد أباطرة بيزنطية وبطاركة القسطنطينية يتحملون سلطة الكرسي الرسولي وتمكن فوطيوس سنة ٨٥٧م من اعتلاء عرش بطريركية القسطنطينية فلم يقبل البابا نقولا الأول بهذا الانتخاب وشكّل ذلك أوّل أزمة خطيرة هزّت العلاقات بين الشرق والغرب. ثم أعلن ميخائيل كيرولايوس، بطريرك القسطنطنية، انشقاق الكنيسة لسياسته المناهضة للكرسي الرسولي. هكذا أصبح هناك كنيستان: شرقية أو أورثوذكسية وغربية أو كاثوليكية.

لكن الدولة البيزنطية ظلت لامعة الحضارة بسبب وقوعها بين آسيا وأوروبا، ورغم حالة الانهيار والفوضى التي تفشت في أنحائها، فقد كانت مركز اتصال حضارات القارتين المذكورتين وازدهر فيها النشاط التجاري خاصة في القسطنطينية: فكانت البهارات والحلى والسجاد والحرير والقمح تأتي من الشرق. ونقل البيزنطيون كل الأعمال الأدبية اليونانية والرومانية إلى القسطنطينية. وأمَّ المرسلون البيزنطيون البلدان التي اعتنقت شعوبها الدين المسيحي وتأسّست فيها المدارس والكنائس وبُنيت القصور وأثرت الحضارة البيزنطية كذلك بالغرب خاصة في مدن: روما وراڤينا والبندقية وجزيرة صقلية. كما أثرت في الحضارة العربية. لكن أهم إنجاز للحضارة البيزنطية يبقى حفاظها على التراث الإغريقي ونقله إلى الغرب.

ولا ننس الفن البيزنطي أو الفن المسيحي في الشرق الذي بدأ في القرنين الخامس والسادس في سوريا ومصر وآسيا الصغرى وبقي حتى القرن السادس عشر. وقد نشأ هذا الفن في آسيا الصغرى وخاصة في كيليكيا والأناضول ووضع عصره الذهبي الأوّل أسس الهندسة والزخرفة البيزنطية وتعتبر كنيسة آياصوفيا النموذج الأشهر لهذه الهندسة.

وقد كره البيزنطيون التماثيل الوثنية وتأثروا بالفن الإسلامي فتفننوا بالعاج الذي ارتكز العمل عليه في القسطنطينية وفي الاسكندرية وفي إنطاكيا. كما أعطوا الفسيفساء دوراً رخرفياً شبيهاً بالسجاد. وكانت صناعة الأقمشة الحريريةَ قد وصلت إلى أوجها فاحتكرتها الدولة وأصبحت فناً أكثر منها صناعة. وانتشر الفن البيزنطي في البلقان وروسيا ووصلت تأثيراته إلى إيطاليا وفرنسا وألمانيا والبلاد السكندينافية.

الحضارة العربيَّة والإسلامية

بلاد العرب شبه جزيرة واسعة في الجنوب الغربي من قارة آسيا، تحدّها بادية الشام من الشمال والمحيط الهندي من الجنوب والخليج العربي ونهرا دجلة والفرات من الشرق والبحر الأحمر من الغرب. وهي شديدة

الحضارة العربية والإسلامية

الحرارة قليلة المطر، رغم وجودها بين بحرين كبيرين هما البحر الأحمر والخليج العربي، لأن ضيقهما لم يمكنهما من تعديل المناخ السائد في تلك المساحة الواسعة بينهما. وكان يمكن أن تؤثر مياه المحيط الهندي على جو شبه الجزيرة فتجعله رطباً ماطراً، لكن ريح السموم التي تهب كل عام كانت تحول دون ذلك ولا تترك بعدها إلاّ قليلاً من الرطوبة.

وكانت شبه الجزيرة العربية تتألف من نجود وصحاري مجدبة وقليل من الواحات، ما عدا الزاوية الجنوبية الغربية، أي اليمن، التي تتكوّن من أرض جبليّة يسقط عليها المطر. وتتوسط بلاد العرب بقاع العالم المختلفة وتصل شرقه بغربه وهذا ما جعل وضعها الجغرافي مميزاً خلال مراحل التاريخ: فبلاد العرب منطقة مرور بين شواطىء البحر الأبيض المتوسط وبين الشرق الأقصى وهذا ما نشط تجارة خارجية واسعة بالإضافة إلى السوق الداخلي.

ويطلق القرآن الكريم على الزمن الذي سبق الإسلام اسم «الجاهلية» ويرجّح أن اللفظة مشتقة من الجهل الذي هو ضد الحلم وليس من الجهل الذي هو ضد العلم.

● المجتمع العربي في الجاهلية:

يقصد بالجاهلية الزمن الذي لا يتجاوز أواسط القرن الخامس الميلادي أي ما قبل الإسلام بقرن ونصف تقريباً.

وللمجتمع العربي في هذه الفترة مقومات عدّة أبرزها: اقتناء الإبل أو «عماد البادية». فالجمل هو رفيق البدوي الذي لا يمكن أن تقوم حياته في البادية من دونه. وهو مطية مواصلاته وقوام اقتصاده. فـ «مهر المرأة» وديّة القتيل، وربح الميسر، وثروة الشيخ... كلّها تُحسب بعدد الإبل.

والإبل عنصر لا غنى عنه في طعام البدوي وشرابه ولباسه. فهو يأكل لحمها ويشرب لبنها بدلاً من الماء ويلبس جلدها ويصنع من وبرها بعض خيامه ويتخذ من أقذارها وقوداً. أما الخيل، فلم يكن يقتنيها إلاّ أثرياء البادية وأغنياؤها.

وكانت العشيرة أساس المجتمع البدوي. وهي مجموعة أفراد يسكنون في خيام من الشعر. وكانت القبيلة تتألف من مجموعة العشائر المتقاربة في النسب. ولم يكن الفرد يملك إلاّ الخيمة ومحتوياتها فيما كان الماء والمرعى والأرض الصالحة للزراعة والسكن أملاكاً مشتركة للقبيلة كلها. وكان أفراد القبيلة يخضعون لرجل واحد هو شيخ القبيلة وكانوا يختارونه من بينهم ويولونه الرئاسة عليهم ويطيعون أمره. وكان الشيخ كبير السن في أغلب الأحيان. ولم تكن عاطفة البدوي تتجاوز قبيلته وأبناءها فهو مخلص لها ومتعصب لأفرادها يحارب من أجلها ويذود عنها وليس من طبعه أن يتجاوز ذلك إلى الدفاع عن عقيدة عامة أو وطن كبير. وكان المجتمع الجاهلي ينقسم إلى فئتين: القبيل أو القوم وهم جمهور الناس والملأ وهم أشراف القوم وأصحاب الشأن.

وكانت حياة البدو الاقتصادية والاجتماعية محصورة في بوادٍ قليلة المياه، محدودة المراعي، وهذا ما جعل النزاع ثمرة من ثمراتها. وكان هذا النزاع يتطور أحياناً إلى قتال تشترك فيه القبيلة كلها ضد المعتدين فإذا قتل بدوي شخصاً من قبيلة أخرى، تنادت قبيلة القتيل إلى الأخذ بالثأر بقتل أحد أفراد القبيلة المعتدية، وأقربهم إلى القاتل إذا أمكن. وقد يطول أمد الثأر ويستغرق سنين عديدة يسقط خلالها من الفريقين عدد كبير من القتلى.

ولم يكن الباعث على الحرب دوماً مقتل فرد من أفراد القبيلة، بل كان أحياناً مصرع ناقة. فقد وقعت، مثلاً، حرب البسوس بين قبيلتي بكر وتغلب، لأن كليب وائل قتل ناقة كانت ترعى مع إبله، فعدَّ جسّاس التغلبي ذلك إهانة له فقتل كليباً ونشبت المعارك ودامت أربعين سنة. واختلف رجال من بني عبس وبني ذبيان على سباق خيل فوقعت حرب داحس والغبراء ودامت نحواً من أربعين سنة أيضاً.

لكن هذه الأسباب التافهة لم تكن دوماً الدوافع الحقيقية لنشوب الحروب، بل كانت غالباً تخفي وراءها دوافع عميقة الجذور، سياسيّة أو اقتصادية: فحادثة الناقة في حرب البسوس كانت تخفي وراءها نزاعاً على النفوذ والسيطرة على الأرض بين قبيلتي بكر وتغلب.

ولأن الحروب في البادية هي التي

الحضارة العربية والإسلامية

كانت تقرر مصير القبيلة واستقرارها ومنزلتها بين القبائل الأخرى، كان الرجال القادرون على حمل السلاح هم عماد القبيلة ويرجع الفضل إليهم في قوتها وهيبتها. ولأن القبيلة كانت تقدّر فضلهم في هذا الأمر، كان من تقاليدهم أن توزع الإرث بين المحاربين وكانت الغنائم تقسم بين الذين اشتركوا في المعركة وظلوا أحياء. وكان للفارس حصتان: واحدة له وواحدة لحصانه.

صحيح أن البداوة وحروبها فرضت على البدوي طابعها الخاص، فإذا به خشن قاس شجاع مقدام في المعارك قاهر للعدو وموقع القتلى. لكنه كان يتمتع بأخلاق أخرى نابعة من صميم حياة العرب والبداوة منها: النجدة والكرم والوفاء والعفو والعفة. وقد تردّدت هذه المعاني كثيراً في الشعر الجاهلي وفاخر بها الشعراء وأطلقوها على ممدوحيهم من الأبطال والشيوخ.

وارتباط البدوي بالحروب دفعه إلى الإكثار من الزوجات، لتكون له ذرية من المحاربين يغذي بهم قبيلته ويقوي نفسه. وحين كنَّ ينجبن له البنات كان يضيق بهن ويتذمر ويحاول وأدهن، أي دفنهن وهن أحياء. هذا الأمر لم يمنع المرأة من التمتع بحرية واسعة: إذ كانت تختار زوجها بملء إرادتها وتفترق عنه إن أساء إليها، وكانت كريمة عزيزة محبوبة في الشعر الجاهلي تغنى بها الشعراء وافتتحوا باسمها قصائدهم. فالمرأة والمنزل شعاران متلازمان يعبّران عن الحب والحنين والذكرى ويثيران في نفس الشاعر اللوعة والشوق.

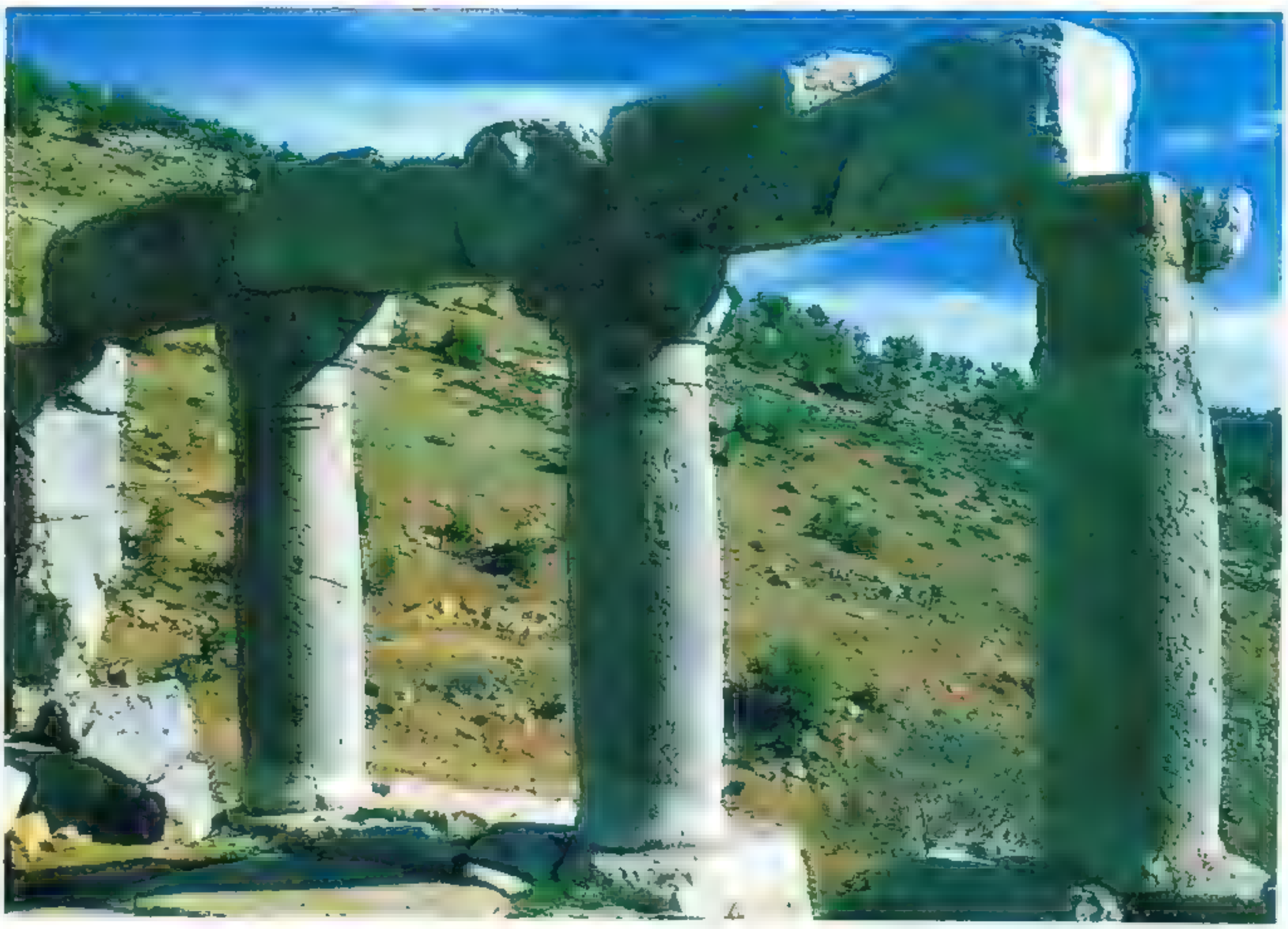

إحدى القلاع الإسلامية في سلطنة عُمان

الحضارة العربية والإسلامية

وعرفت الجاهلية بعض البيئات التي استقر أبناؤها فيها، فكانت الحجاز التي تقع على ساحل البحر الأحمر أكثر البيئات العربية تحضراً. وكانت أشهر مدنها مكة ويثرب والطائف: ففي مكة كانت الكعبة التي يحج إليها العرب من مختلف الأرجاء. ومكة موجودة على طريق القوافل التجارية، وهذا ما جعل أهلها يعيشون في بحبوحة واكتفاء رغم وقوعها في «وادٍ غير ذي زرع». وقد عرفت مكةُ بعض التقاليد السياسية والدينيّة التي جعلت لها شبه حكومة مركزية، فكانت لقريش حجابة الكعبة، أي حفظ مفاتيحها، وسدانتها، أي خدمتها، والرفادة، أي إطعام المحتاجين من الحجاج، وكان لمكة «الندوة» أي تقرير شؤون الحرب وعرض المشكلات الطارئة للمشورة. هكذا قامت قبيلة قريش ببادرة إصلاحية عقدت فيها «حلف الفضول» بينها وبين القبائل المجاورة، وهو اتفاق نصَّ على «أن لا يقرُّوا بمكة ظلماً سواء أكان من أهلها أم من غيرهم».

وتأتي بعد مكة أهمية مدينة **يثرب** التي دُعيت بعد الإسلام «المدينة المنورة». وكانت مدينة كثيرة العيون والآبار، جوُّها معتدل بالنسبة لما حولها من صحاري وتعتمد على الزراعة التي ازدهرت في ضواحيها. وقد أقام أهلها، علاقات تجارية حسنة مع الشام ومصر وبنوا الدور والقصور.

أما **الطائف** فكانت بلداً زراعياً خصباً وكان جوُّها لطيفاً فاتخذها أهل مكة مصيفاً لهم. واتصف أهلها بالقوة والشدة في المعارك: فهم من قبيلة ثقيف التي عُرفت بالشجاعة في تاريخ العرب.

ولا ننسى الأسواق التي كانت تقام ويأتيها القاصدون من أنحاء شبه الجزيرة فيقيمون أياماً يبيعون ويشترون وتتعرف كل قبيلة على ما عند غيرها من سلع أو ماشية. وكان المرء، في هذا الجمع الحاشد، يلقى ما يريد: امرأة يخطبها أو غريماً يقاتله أو سارقاً يمسكه. كما كانت هذه الأسواق فرصة طيبة ينشد الشعراء فيها شعرهم ويلقي الخطباء خطبهم ثم يستمعون إلى آراء نقاد الشعر والأدب في ما قالوا. وأشهر هذه الأسواق سوق «عكاظ» التي كانت تقام قرب مكة.

وقامت، في الحيرة، في العراق، إمارة المناذرة. وهم أسرة عربية حكمت العراق بتشجيع من الفرس، واعتنقت المسيحيَّة على المذهب النسطوري في عهد ملكها النعمان. وكانت تجمع الضرائب من القبائل العربية القريبة منها وتقدمها إلى الفرس، كما كانت تحمي حدود الإمبراطورية من غزوات البدو. وكان بلاط الحيرة مقصداً للشعراء العرب.

أما في الشام، فأنشأت أسرة الغساسنة دويلة عربية في جابية الجولان أول الأمر ثم انتقلت إلى جلّق في حوران ثم إلى بصرى الحرير جنوب دمشق. وقد اعتنق الغساسنة المسيحية على المذهب اليعقوبي السائد في الشام. وكان أشهر ملوكهم الحارث بن جبلة الذي رضي الروم عنه عام ٥٢٩م فعيَّنوه بطريقاً.

كما عرفت بلاد العرب قبل الإسلام اليهودية والمسيحيَّة والوثنية فانتشرت اليهودية في يثرب وفدك وخيبر وفي بعض قبائل اليمن. وانتشرت المسيحية في نجران وعلى تخوم شبه الجزيرة بين الغساسنة والمناذرة. وكان الجاهليون، على الفطرة، يعتقدون أن الله قادر على كل شيء، من غير أن يكون لهم نظام خاص بالعبادة، إلاَّ في ما يتعلق بالحج، وعبد عدد كبير من القبائل الأصنام والأوثان. واتخذت بعض القبائل آلهة قبلية كاللات ومناة والعزّى والشمس والقمر.

وكان الشعر أبرز نتاج الفكر العربي في الجاهلية: فقد جاء معبراً عن الحياة القبلية بمختلف مظاهرها وكان للشاعر منزلة كبيرة عند قبيلته لأنه الناطق باسمها فهو يرفع من شأنها ويحارب أعداءها ويكتب تاريخها في شعره. ولشدَّة اهتمام العرب بالشعر أقاموا المباريات الشعرية في الأسواق، مثل سوق عكاظ. ومن أشهر قصائد الجاهلية ما عُرف «بالمعلقات» ومن أشهر الشعراء: أمرؤ القيس، عنترة بن شدَّاد، زهير بن أبي سلمى، النابغة الذبياني وعمرو بن كلثوم وغيرهم.

أما النثر الأدبي فكان قليلاً وكان بمعظمه من الحكم والأمثال وبعض الخطب. وفي العلوم، ألمَّ الجاهليون بما هو ضروري لحياتهم اليومية مثل معالجة أمراض الخيل والإبل ومعرفة فوائد بعض الأعشاب الطبية واستعمال

نشأة الإسلام

الكبي. كما أجادوا في علم القيافة، أي اقتفاء الآثار، وعلم الفراسة والريافة، أي معرفة مواطن الماء، وعلم الكهانة والمعرفة.

نشأة الإسلام

في بيئة عربية الحياة فيها محصورة بمعاملات تجارية محدودة ومعارك بين القبائل تعود أغلب الأحيان إلى أسباب تافهة، وفي ظل طبيعة قاسية وعلى أرض شبه قاحلة جدباء استطاع رجل من قريش أن ينادي بديانة جديدة وأن ينقل العرب إلى آفاق واسعة وأن يوجّه نفوسهم نحو الروح إلى جانب المادة ويغيّر حياتهم من التفكك والقناعة إلى النشاط والطموح ويصرفهم عن مقاتلة بعضهم بعضاً إلى الجهاد من أجل فكرة دينية. هذا الرجل هو النبي محمّد رسول الله ﷺ وهذه الفكرة الدينية هي الإسلام.

● محمّد الرسول العربي ورسالته:

ولد محمّد بن عبد الله، بطل هذا الانقلاب في حوالي سنة ٥٧٠م. ولم يلبث أن مات جده ثم ماتت أمه، فكفله عمه أبو طالب والد الإمام علي.

شبّ محمّد وعمل في تجارة لخديجة بنت خويلد، وهي من أكثر أهل مكة غنىً وجاها، ولم تلبث أن عرضت عليه الزواج فقبل. وتابع بعد زواجه القيام بأعمال زوجته التجارية مرافقاً تجارتها بين الشام والحجاز بحماسة وعزم.

ودعته حال قومه العرب وما هم عليه من فتن واضطراب في حياتهم الاجتماعية ومن عبادة لأصنام لا تنفع ولا تضر، دعاه كل ذلك إلى التفكير بإصلاحهم، فانصرف إلى مكان بعيد عن الناس في ضواحي مكة، يدعى غار حرّاء، وهناك كان يمكث الساعات الطوال متأملاً في الكون وخالقه مفكراً بحال قومه وأوضاعهم الدينية والاجتماعية.

ولما بلغ الأربعين، أعلن رسالته، ودعا قومه إلى ترك عبادة الأصنام ليعبدوا إلهاً واحداً لا شريك له، هو خالق كل شيء، وليؤمنوا بالآخرة. فمن آمن بدعوته وعمل عملاً صالحاً فله جنات النعيم ومن كفر فله عذاب جهنم فوجدت قريش في هذه الدعوة تهديداً لمصالحها ولمكاسبها المادية التي تحققها لها الديانة الوثنية، فقررت محاربته. وخوفاً على أتباعه طلب منهم الهجرة إلى الحبشة وبقي هو في مكة لمواجهة القريشيين. وزاد في حرج موقف الرسول وأتباعه في مكة وفاة عمه أبي طالب ووفاة زوجته خديجة إذ خسر بفقدهما مساعدين قويين. واشتد اضطهاد قريش للمسلمين من أتباع النبي الذين كانوا يتحملون الاضطهاد صابرين. عندئذ لم يجد الرسول بداً من أن يأمر المسلمين بالهجرة سراً من مكة إلى يثرب، وكان نحو من سبعين رجلاً من أهلها قد آمنوا برسالته في إحدى زياراتهم لمكة.

وشعر أهل مكة بالخطر الذي يهدد عقائدهم القديمة بسبب انتشار الإسلام في يثرب، فعزموا على قتل الرسول. لكنه أدرك ما يبيّتون له فترك مكة خفية ولحق بالمهاجرين الذين سبقوه إلى يثرب فاستقبله أهلها بالترحيب وغيّروا اسم مدينتهم وأطلقوا عليها اسم «مدينة الرسول» ثم دُعِيَتْ، في ما بعد، «المدينة المنورة».

وفي يثرب بدأ بتنظيم شؤون المسلمين فأنشأ وحدة دينية ووضع القوانين معتمداً على القرآن. وأخذ عدد المسلمين يتكاثر شيئاً فشيئاً إلى أن استطاعوا أن يواجهوا أهل مكة في ساحات المعارك، فكانت غزوة «بدر» أول معركة انتصر فيها المسلمون على قريش. لكن الهزيمة أثارت أهل مكة فجمعوا جموعهم في العام التالي والتقوا بالمسلمين عند جبل «أحد» وكرّوا عليهم وهزموهم فاضطر المسلمون للتراجع بغية تنظيم قواهم من جديد.

وبعد مضي ثماني سنوات على هجرة الرسول من مكة استطاع أن يعود إليها فاتحاً فسارع أهلها إلى الانضواء تحت لوائه بعدما رأوا من التفاف القبائل حوله ودخول العرب في دينه.

بعد فتح مكة انتشر الإسلام، في شبه الجزيرة، انتشاراً سريعاً بين القبائل حتى بلغ أقصى اليمن. وبعد فتح مكة سنة ٦٣٠م عاش الرسول سنتين ثم توفي سنة ٦٣٢م.

نشأة الإسلام

● الدعوة الإسلامية

تنقسم الدعوة الإسلامية التي أبلغها الرسول إلى الناس إلى قسمين: العقائد والشعائر:

العقائد: ويمكن تلخيصها كالآتي:

١ ـ الإيمان بالله رب العالمين. فهو ليس إله قبيلة، أو إله أمة العرب وحدهم وليس هو إله الناس فقط بل إله كل شيء. وهو عالم بكل شيء، قادر على كل شيء، وخالق الوجود. وهو إله واحد، لا يشارك في ألوهيته أحد.

٢ ـ الإيمان بأن محمداً رسول الله إلى الناس كلهم وخاتم النبيين الذين تتابعوا منذ أقدم الأزمنة. ومحمد بشرٌ كسائر الناس، معجزته القرآن الكريم. وهو جاء لينفذ أوامر الله ويحكم بين الناس بالحق. على أن يكون القرآن الكريم، بعد مماته، مرجعاً للمسلمين في عقائدهم وشؤون حياتهم.

٣ ـ الإيمان بملائكة الله وهم أرواح خيِّرة تطيع الله وتجذب نفوس الناس إلى الخير.

٤ ـ الإيمان بالرسل الذين أرسلهم الله لهداية البشر كعيسى وموسى وداود.

٥ ـ الإيمان باليوم الآخر لأنه خير من الحياة الدنيا وفيه يبدأ الحساب فيثاب المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء على إساءته، ويساق الذين اتقوا ربهم إلى جنات تجري من تحتها الأنهار وتحيط بها الأشجار كما يساق الذين كفروا بربهم إلى نار جهنم.

٦ ـ الإيمان بالكتب المقدَّسة مثل الإنجيل والتوراة.

الشعائر: إلى جانب هذه العقائد التي يجب على المسلم أن يؤمن بها يوجد قسم آخر هو الشعائر أو الأعمال المفروضة على كل مسلم وهي:

١ ـ الصلاة خمس مرَّات في اليوم.

٢ ـ الصوم أي الامتناع عن الطعام والشراب من الفجر حتى غروب الشمس طوال شهر رمضان كل عام.

٣ ـ الزكاة أي بذل مقدار معيَّن من المال سنوياً، يدفعه الأغنياء إلى الفقراء والزكاة ليست صدقة أو تبرعاً بل حق للمحتاجين في أموال الأغنياء.

٤ ـ الحج إلى مكة في شهر ذي الحجة مرَّة في العمر على الأقل، حيث تؤدَّى شعائر خاصة.

كما حث الإسلام على الفضائل كالإحسان وإكرام اليتيم ومساعدة الضعيف، والبر بالوالدين والوفاء بالوعد والعدل مَعْ من تحب أو تكره والعفو عند المقدرة. وحرَّم شرب الخمر وأكل جوارح الوحوش والميسر والربا وفعل المنكرات.

وكان للدعوة الإسلامية أثر بالغ في العرب: فقد أصبحوا إخواناً في العقيدة يجمعهم حب الله والخضوع لرسوله على ضوء القرآن الكريم بعدما كانت قبائلهم تختلف وتتقاتل في الجاهلية. وانتقل العرب من حياة وثنية اللذائذ فيها مباحة والحرية مطلقة، إلى حياة مؤمنة تداس فيها الأصنام وتُحَطَّم وتُقدَّد فيها اللذائذ وتُدفع الضرائب لينفق منها على الفقراء وعلى الصالح العام وتُقيَّد فيها الحريَّة بقيود العبادة في أوقات خاصة وقيود احترام حقوق الغَير وملكته. وبعدما كان الإنتقام والأخذ بالثأر خير الخصال الجاهليَّة أصبحا من الرذائل التي نهى الإسلام عنها.

وفي المدينة المنورة تمَّت أول محاولة في تاريخ العرب لتنظيم الجماعة العربية على أساس الدين وليس على أساس القرابة والقبيلة. هذا النظام ارتبط بالله الواحد وكان النواة الأولى للحكومة الإسلامية التي تأسَّست على الشورى وأصبحت على استعداد لنشر سلطانها خارج شبه الجزيرة.

● اتساع الدولة الإسلامية ونموها:

أوَّل معركة وقعت بين العرب والروم البيزنطيين كانت، في زمن الرسول، في مؤتة شرق البحر الميت، ولم يصب العرب فيها نجاحاً، لكنها كانت أول محاولة للتوسع العربي خارج شبه الجزيرة العربية وكانت دليلاً على أن الرسول كان يرسم للدولة العربية الجديدة عدم توقف حدودها عند الجزيرة.

هكذا، ما كاد أبو بكر، بعد وفاة الرسول يفرغ من قتال المرتدين الذين خرجوا على الإسلام حتى وجَّه جيوشه لفتح البلاد الواقعة خارج الجزيرة العربية. فسيَّر عدة جيوش إلى الشام وولَّى عليها كلها أبا عبيدة بن الجراح. وكان أول اصطدام ذاك الذي وقع في

نشأة الإسلام

وادي عربة جنوب البحر الميت، وفيه انتصرت الحملة التي يقودها يزيد بن أبي سفيان على قوات الروم التي تراجعت نحو غزة.

ولما بلغت هرقل، امبراطور الروم، أنباء المعارك الأولى التي خاضتها القوات العربية في الشام، أسرع إلى الجنوب حيث نظم خطة دفاع وولّى أخاه تيودورس قائداً على جيش الروم، فأرسل الخليفة أبو بكر إلى خالد بن الوليد الذي كان يقاتل الفرس في العراق يطلب إليه أن يسرع إلى نجدة القوات العربية في الشام، فلبى خالد طلبه بعد استسلام الحيرة له. وما كاد يبلغ «بصرى» حتى اجتمع قواد القوات العربية وأمّروه عليهم، فرتّب الجيش ترتيباً جديداً وبدأت الغارات المنظمة على مدن الشام. فسقطت بصرى وتبعتها فِحْل على ضفة الأردن الشرقية. وبعد حصار دام ستة أشهر استسلمت دمشق سنة ٦٣٥م بعدما غادرتها حاميتها البيزنطية. وأعطى خالد أهل دمشق أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وبيوتهم ما داموا يؤدون الجزية.

ودخلت القوى العربية حمص وحماه. لكن أنباء الحشد الكبير الذي أعده هرقل بقيادة أخيه تيودورس في فلسطين، جعلت خالداً يتخلّى عن بعض المدن الشمالية ليواجه جيش الروم في موقعة حاسمة. فانحدر إلى وادي اليرموك الذي يصب نهره في الأردن وجمع جيوشه كلها وعسكر بها على مرتفع جنوب النهر. فكان النهر فاصلاً بين جيوشه وبين الروم فإذا هاجمها العدو استطاعت أن تنجو بنفسها إلى الصحراء الممتدة وراءها فيتعذر على الروم اللحاق بها. لكن غبار المعركة انجلى عن هزيمة البيزنطيين وفرار عدد من كتائب جيوشهم وكثرة جرحاهم وقتلاهم. وكان بين القتلى تيودورس نفسه.

معركة اليرموك هذه كانت حاسمة في تاريخ العرب إذ رجحت قوتهم وعجّلت من انطلاقهم. فانفتحت أبواب المدن السورية تستقبلهم بعد انسحاب الحاميات البيزنطية منها وسقطت انطاكية وحلب وقنّسرين وتوجّهت قوّة عربية بقيادة أبي عبيدة بن الجرّاح إلى سهل البقاع ورابطت خارج أسوار بعلبك التي تحصن في قلعتها جند من الروم. وبعد تبادل الفريقين رمي النبال والحجارة من بعيد خرج الروم وقاتلوا العرب

نشأة الإسلام

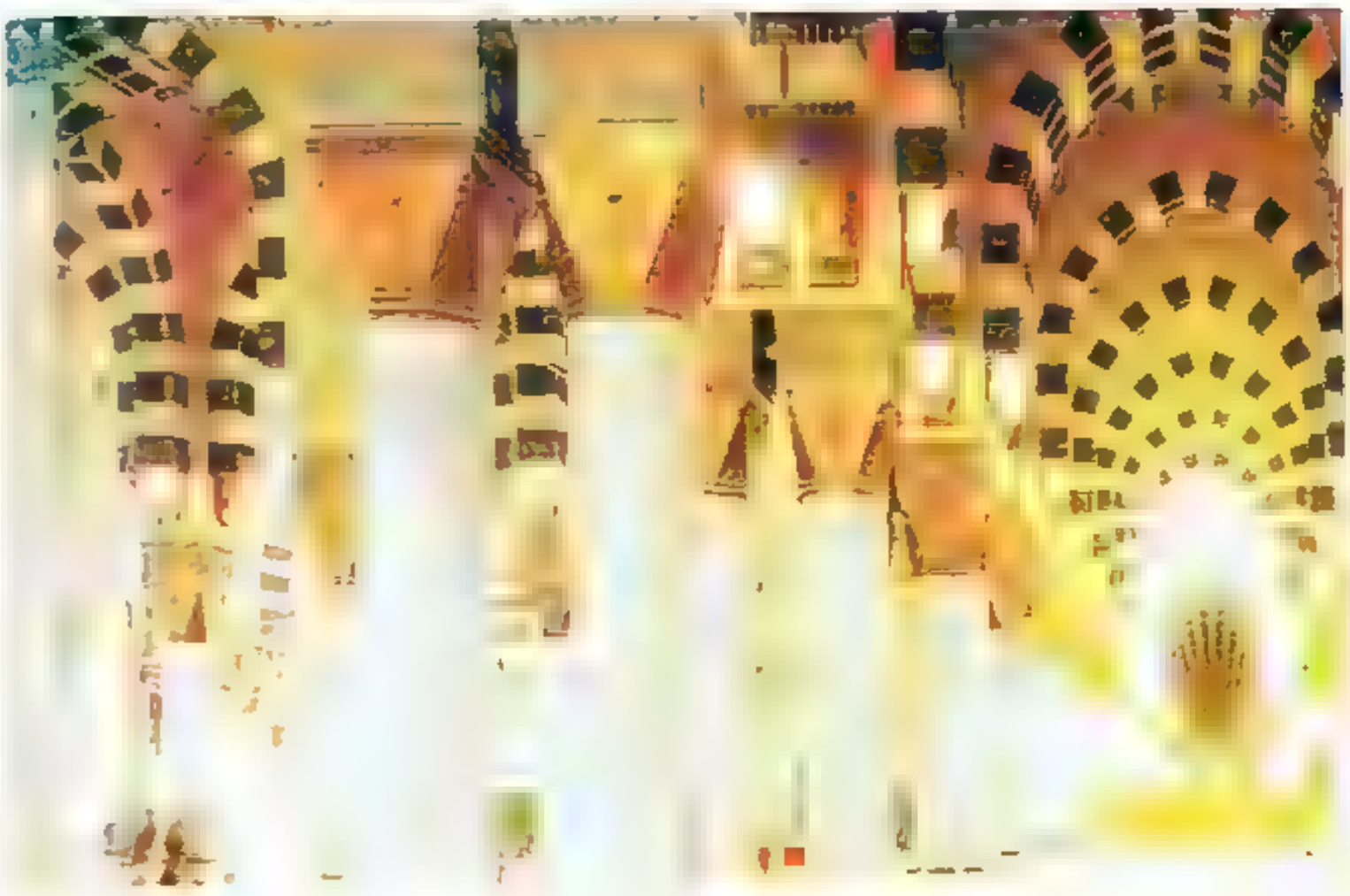

الحرم النبوي من الداخل

بالسيوف والرماح والحراب ولم تلبث الحامية أن سقطت واستسلمت.

وتوجّهت قوة عربية أخرى بقيادة يزيد بن أبي سفيان إلى سواحل لبنان فتم الاستيلاء على صور وصيدا وبيروت وجبيل وعرقه. أما جبال لبنان فكان كثير منها خالياً من السكان والعدد القليل الذي يقطنه يتحصن بسفوحه وقممه.

أما الحملة العربية في العراق، فكانت بقيادة سعد بن أبي وقاص. وقد تنازل مع جيش الفرس بقيادة رستم في معركة القادسية قرب الحيرة. وكانت النتيجة أن قتل رستم وتشتت الجيش الفارسي، ومضى سعد بجيشه إلى المدائن عاصمة الفرس ودخلها بعدما فرَّ منها يزدجرد الثالث آخر الأكاسرة الساسانيين مع فلول من الجيش. لكن سعد طاردهم من مدينة إلى مدينة حتى اشتبك معهم في آخر وقعة كبيرة هي معركة نهاوند. على أنه لم يتم فتح فارس إلاّ عام ٦٤٠م لأن مقاومة الفرس كانت أشد من مقاومة الروم في الشام والمعارك والضحايا كانت أكثر. لكن العرب كانوا قد اتخذوا الكوفة معسكراً يوجهون منه القوات لإخضاع الفرس الذين كانت تتجدَّد مقاومتهم إلى أن تم لهم اخضاع الأقاليم الشرقية مثل خراسان التي تقدَّموا منها إلى ما وراء النهر.

أما عمرو بن العاص فانطلق من القدس إلى مصر سالكاً الطريق التي سلكها من قبله قمبيز والإسكندر واصطدمت القوة العربية بالروم في مدينة الفرماء، مدخل مصر الشرقية، فسقطت المدينة في يد عمرو. ثم تبعتها بلبيس (شمال شرقي القاهرة). وكان المقوقس عامل الروم على مصر قد تحصَّن في حصن إزاء جزيرة الروضة على النيل، ورابط عمرو في عين شمس. وحين وصلت الامدادات من الخليفة عمر تقاتل الفريقان في منتصف الطريق بين المعسكرين فانهزم المقوقس واحتمى بالحصن ولمَّا ضيَّق عمرو عليه الحصارَ اضطر إلى القبول بدفع الجزية. لكن هرقل رفض شروط العرب وغضب على المقوقس واتهمه بالخيانة.

• العصر الأموي

بعد مقتل الإمام علي بن أبي طالب أعلن معاوية، وكان والياً على الشام، نفسه خليفة وجعل العاصمة دمشق. فبدأت الخلافة الأموية التي دامت نحواً من تسعين سنة (من ٦٦١م إلى ٧٥٠م). وقد توالى على الخلافة أربعة عشر خليفة. ثلاثة من الفرع السفياني هم معاوية، يزيد ومعاوية الثاني، والباقون من الفرع المرواني وهم: مروان بن الحكم، محمَّد، عبد الملك، عبد العزيز، الوليد، سليمان، يزيد، هشام، عمر، يزيد بن الوليد، إبراهيم بن الوليد، الوليد بن يزيد ومروان بن محمَّد. ويعتبر معاوية مؤسس الدولة الأموية الأوَّل وعبد الملك مؤسِّسها الثاني. ومن ألمع خلفاء العصر الأموي الوليد وهشام أبناء عبد الملك وعمر بن عبد العزيز.

وقد بلغت جيوش الأمويين أسوار القسطنطينية منذ عهد معاوية الأوَّل ولم يردَّها عنها إلاَّ النار الإغريقية التي سلطها البيزنطيون على العرب. كما بلغت الدولة أقصى اتساعها في عهد هشام بن عبد الملك: ففي الشرق

نشأة الإسلام

كانت ألويتها ترفرف في السند وكاشغر وطشقند، وفي الغرب كان شمال أفريقيا حتى المحيط الأطلسي عربياً. كما كانت الأندلس ولاية عربية. وفي الشمال ثبت العرب أقدامهم في أرمينيا وسفوح جبال القوقاز الجنوبية. وفي الجنوب كان بحر الهند حائلاً طبيعياً منع العرب من تجاوز سواحله.

واتهمك بعض الخلفاء الأمويين بملذاتهم وانصرفوا عن شؤون الدولة إلى نزاعهم مع بعض أفراد البيت الأموي. وصادف ذلك إعلان الدعوة العباسية الداعية لبني العباس. وأدى ضعف الخلفاء وانشغالهم بأمورهم الخاصة ونقمة الناس إلى نجاح الدعوة العباسية وانتشارها بين الرعية وخاصة الفرس الذين أبعدهم الأمويون عن مناصب الدولة.

وانجلت معركة «الزاب» أحد روافد دجلة عن هزيمة جيش مروان بن محمد آخر خليفة أموي أمام قوات الثائرين من أنصار العباسيين فزالت الدولة الأموية وقامت على أنقاضها الدولة العباسية سنة ٧٥٠م.

● العصر العباسي

كان أبو العباس السفّاح أول خليفة بويع الخلافة في الكوفة، ثم خلفه أخوه أبو جعفر المنصور ويعتبر المؤسّس الحقيقي للدولة العباسية. ويبلغ عدد الخلفاء العباسيين خمسة وثلاثين من ذرية أبو جعفر أضف إليهم السفاح والمنصور.

بلغت الدولة العباسية ذروة مجدها ومدى اتساعها خلال القرن الأول من حكمها فامتدت من شبه الجزيرة العربية إلى الهند والتركستان وإيران وأرمينيا وآسيا الصغرى وسوريا ومصر وأفريقيا الشمالية. واشتهر العباسيون بتشجيعهم للعلم والأدب فنقلوا إلى اللغة العربية تراث الإغريق خصوصاً.

ويبلغ العصر الذهبي أوج عزه ومجده، أيام هارون الرشيد والمأمون. ويُعد المؤرخون عهدهما أزهى عصور التاريخ العربي على الإطلاق.

ومنذ عهد المتوكل، شهد التاريخ العباسي، عصر الاستبداد العسكري التركي الذي دام مئة سنة بعدما كان النفوذ الفارسي هو السائد. وقد انتهز ولاة الأقاليم فرصة ضعف الخلافة في العراق فأعلنوا استقلالهم عنها وأنشأوا دويلات لا صلة لها بالحكم العباسي. وتلا هذا العصر، عصر آخر هو عصر بني بويه وهم من الفرس الذين تغلبوا على النفوذ التركي واستمر عصرهم من ٩٤٦ إلى ١٠٥٥م. ولم يلبث أن ظهر عنصر جديد من الأتراك هم الأتراك السلاجقة وامتد عهدهم نحواً من مئتي سنة (من ١٠٥٥ إلى ١٢٥٨م) أي إلى السنة التي زالت فيها الخلافة العباسية بمقتل آخر خلفاء العباسيين المستعصم على يد هولاكو في غارة المغول على بغداد.

واستقلت عن الدولة العباسية دويلات كثيرة: أوّلها الأندلس التي أقام فيها عبد الرحمن دولة بني أمية سنة ٧٥٦م. ثم قامت دولة الأدارسة في مراكش والأغالبة في تونس. وإثر ضعف الخلفاء العباسيين في بغداد واستبداد الأتراك بالحكم اشتدت حركة الانفصال عن الدولة العباسية، فانفرد الطولونيون بمصر (٨٦٨م ـ ٩٠٥م) وخلفهم الأخشيديون بعد ثلاثين سنة من زوال حكمهم (٩٣٥ ـ ٩٦٩م) وظلوا في مصر إلى أن استولى الفاطميون سنة ٩٦٩ عليها بعدما أقاموا دولة لهم في تونس. وفي عصر بني بويه انتزع سيف الدولة الحمداني حلب من أيدي الأخشيديين وأنشأ فيها دولة سنة ٩٤٥ وضم إليها سوريا الشمالية.

وكان الرسول محمد ﷺ في حياته رأساً لهذه الدولة وحاكمها ومنظمها دينياً ومدنياً. ولكن برزت الحاجة بعد موته لاختيار من يرئس هذه الدولة خاصة وأنه لم يعيّن أحداً لخلافته فتم الإتفاق بين الصحابة على اختيار أبي بكر الصديق لرئاسة الدولة وعُرف بالخليفة ولقّب «بأمير المؤمنين». ودرجت العادة على تسمية رئيس الدولة العربية خليفة. وتحدّدت مسؤولياته بأنه رئيس عام في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي. ويجمع بين السلطتين الدينية والمدنية. لكن اختيار الخليفة وطريقة تعيينه اختلفت حسب العهود:

● ففي عهد الخلفاء الراشدين كان الصحابة يتفقون على تسمية شخص ومن ثم مبايعته من قبل المسلمين. وعاش الخلفاء الراشدون رغم اتساع سلطتهم حياة بسيطة بعيدة عن الترف

نشأة الإسلام

ومظاهر العظمة.

● وفي العهد الأموي تحوَّلت الخلافة إلى ملك وراثي استبدادي. فقد جعل معاوية الخلافة مملكة ترتكز على أمور عدَّة مثل الجلوس على العرش والصلاة في مقصورة خاصة في المسجد وإحاطة نفسه بالحرس كما جعل الخلافة وراثية. وقد تأثر بذلك بشكل الحكم البيزنطي الذي كان سائداً في دمشق.

● وفي العهد العباسي مارس الخليفة مفاهيم جديدة في الحكم إذ احتجب عن الشعب وعمد إلى ارتداء بردة النبي في الحفلات، . واعتمد مبدأ الحق الإلهي في الحكم وكان يورث الحكم لمن يشاء.

لكن الخليفة استعان بعدد من المساعدين الذين اختلفت أدوارهم حسب العهود: ففي عهد الخلفاء الراشدين كان يستعين بالصحابة ويستشيرهم وفي العهد الأموي لم يطلق على أصحاب الرأي والمشورة أية تسمية أما في العهد العباسي، فقد تطورت وظيفة الاستشارة، إسوة بالتنظيم الفارسي، بحيث اقتبست وظيفة الوزارة وأصبح مساعد الملك يدعى الوزير وكانت الوزارة بشكل عام مع الفرس. ولكن صلاحيات الوزير توسَّعت فقسِمت إلى قسمين: وزارة تنفيذ ينفذ فيها الوزير أوامر الخليفة فقط، ووزارة تفويض يفوَّض فيها الخليفة إلى الوزير تدبير أمور الدولة دون الرجوع إليه.

وإلى جانب الوزير كان الكاتب من أكبر مساعدي الخليفة فهو محرِّر الرسائل من الخليفة إلى الحكام والملوك وهو يتلقى هذه الرسائل. وقد تشعَّبت وظائف الدولة في العهد العباسي فأصبح لدى الخليفة أكثر من كاتب: كاتب الرسائل، كاتب الخراج، كاتب الجند وكاتب القضاء. وارتفعت منزلة الكاتب في العهد العباسي لدرجة أصبح يوقَّع معها عن الخليفة.

نذكر أخيراً وظيفة الحاجب التي استحدثها معاوية. وهو كان يقوم بدور مدير التشريفات اليوم. وتمتَّع الحاجب في الأندلس بسلطات رئيس الوزارة. وفي العهد العباسي كَثُر الحجَّاب وعلت مرتبتهم لدرجة أن بعضهم استطاع أن يضعف شأن الوزراء لشدة تقرُّبهم من الخليفة.

وبعد اتساع حدود الدولة العربية في عهد الخلفاء الراشدين، إزدادت الحاجة إلى تنظيم هذه الدولة بشكل يتفق مع مبادىء القرآن. فكان عمر الخطاب أوَّل من جعل بلاد فارس ثلاثة أقسام أو ولايات وبلاد الشام ولايتين وشمال أفريقيا ثلاث ولايات وعيَّن على كل ولاية حاكماً يدعى الوالي أو العامل.

كان يتم اختيار الوالي، أيام الخلفاء الراشدين ممَّن عرفوا بالتقوى والسَّير على نهج الرسول. وكانت وظيفته تنفيذ أوامر الخليفة ورئاسة الولاية. وفي العهد الأموي تم تقسيم الدولة، رغم اتساعها، إلى خمس ولايات عَيَّن على كل منها والٍ ينتمي إلى الأسرة الحاكمة. أما في العهد العباسي، وخاصة في أواخره، فقد عمد بعض الولاة إلى الاستقلال بولايتهم وانشاء دويلات مستقلة.

واقتبس معاوية البريد عن البيزنطيين وأمر بوضع الخيل المضمَّرة في محطات بين المدن الكبرى حيث إذا وصل صاحب الخبر إلى محطة وقد تعب حصانه امتطى حصاناً آخر نشيطاً. وهكذا يتنقل من حصان إلى آخر حتى يبلغ المكان المقصود. وأكمل عبد الملك عمل معاوية فوسَّع نطاق البريد وأتم تنظيمه وعني به عناية خاصة حتى أنه أوصَى رجاله بحمل البريد إليه ساعة وصولَه في الليل أو في النهار، «لأن حبس البريد ساعة ربما أفسد على القوم سنة كاملة».

وأضيفت، في العصر العباسي، مهمَّة جديدة ومهمة إلى صاحب البريد: فقد عُهِد إليه بأن يراقب كبار الموظفين وصغارهم ويتجسَّس على الأعداء. فأصبح ديوان البريد أشبه بالمباحث أو المخابرات في وزارة الدفاع. وكان صاحب البريد يكتب إلى الخليفة عن معاملة الوالي للرعية ورأي الناس في الحكام ويشرف بنفسه على طرق البريد ومحطاته ويجمع الرسائل وينظمها ثم يقدِّمها إلى الخليفة أو الوزير أو إلى غيرهم ممن أرسِلتْ إليهم.

وأوَّل من أدخل نظام حرَّاس الليل، كان عمر بن الخطاب. ثم اتسع هذا النظام في عهد الإمام علي وسُمِّي رئيسه «صاحب الشرطة» الذي

نشأة الإسلام

أصبحت له مكانة رفيعة في العصر الأموي، فالخلفاء كانوا يختارونه ممن يأنسون في مواهبه استعداداً لتبوّؤ منصب الولاية أو الحجابة أو الوزارة. أما في العهد العباسي فقد كان صاحب الشرطة يوازي الوالي.

كما أخذ عمر بن الخطاب عن الفرس نظام الدواوين ونسقه حسب حاجات الدولة العربية الفتية. والديوان بالفارسية يعني السجل.

وأنشأ عمر بن الخطاب ديوان الجند الذي يحوي سجلاتهم ورواتبهم، وديوان الخراج الذي ينظم جباية الأموال وموارد الدولة، وديوان الرسائل. كل هذه الدواوين كانت في المدينة المنورة وكانت تدوّن بالعربيّة. بينما ظلت الدواوين، التي وجدها العرب في البلاد المفتوحة، تكتب باللغة التي كانت عليها قبل الفتح وكان يتولى شؤونها موظفون من أبناء البلاد نفسها. فكانت تكتب في الشام بالرومية وفي مصر بالقبطية وفي العراق بالفارسية.

لكن عبد الملك بن مروان وجد أن كتابة الدواوين باللغات الأجنبية تحول بين الحكام العرب وبين فهمها ومراقبتها فأمر بتعريب الدواوين. فقام الحجاج بن يوسف بتعريب دواوين العراق وعرّبت دواوين مصر أيام خلافة الوليد بن عبد الملك ودواوين خراسان في ولاية هشام بن عبد الملك. فأصبحت العربية لغة السياسة والإدارة بعدما نُقِلَت إليها المصطلحات الفنية في الإدارة والحساب.

وتبع تعريب الدواوين تعريب النقود. فبعدما كان الناس حتى أيام عبد الملك يستعملون النقود البيزنطية أو الفارسية، ضُربت الدراهم من الفضة والدنانير من الذهب وزينت بكلمات من القرآن الكريم بدلاً من صور الأشخاص التي كانت على النقود البيزنطية والفارسية.

في مجال القضاء، كان الرسول محمّد ﷺ هو الحكم الفصل بين سكان المدينة الأصليين والمهاجرين. فإليه وحده يرجع كل نزاع وهو القاضي الوحيد. وتولّى عمر بن الخطاب القضاء في عهد الخلفاء الراشدين وقيل إنه استمر في قضائه سنتين دون أن يحضر إليه متخاصمان بسبب شدة حزمه. وتوسّعت مهمّات الخليفة في عهد عمر بن الخطاب وهذا ما أوجب وضع نظام تشريعي لحل المشكلات بين السكان. هذا النظام قضى بتعيين قضاة مستقلين يعينهم الخليفة ممّن يتمتعون بالعلم والتقوى والعدل. وكانت دار القاضي هي مركز القضاء. ولم يُعرف السجن رسمياً إلاّ في عهد علي بن أبي طالب.

واستقل القضاة في أحكامهم، في العهد الأموي، فكانت نافذة على الولاة وعمّال الخراج. وكان القضاة يحكمون وفق ما يوحيه الاجتهاد ويستندون إلى الكتاب والسنّة للفصل في الخصومات.

وحافظ القضاء على استقلاليته حتى العصر العباسي بحيث أصبح العلماء يمتنعون عن استلام منصب القضاء لئلا يغضبوا اللّه برضى الخلفاء. واستحدث العباسيون منصب «قاضي القضاة» وهو بمثابة وزير العدل اليوم، وكان يقيم في العاصمة ويعيّن من ينوب عنه في الأقاليم. نذكر في باب القضاء أيضاً «ديوان المظالم» الذي يشبه مجلس الشورى اليوم أو محاكم الاستئناف والتمييز وكان له سلطة واسعة للنظر في تعديات الولاة على الرعية ومراقبة جباية الضرائب وكتّاب الدواوين وقد أنشأ هذا الديوان عبد الملك بن مروان وبنى له المهتدى قبة لها أربعة أبواب سمّاها «قبة المظالم».

نذكر أيضاً في باب القضاء، الحسبة وهي صورة من صور القضاء في الإسلام. ومن أبرز مهمّات المحتسب: الأمر بأداء الصلاة في أوقاتها ومعاقبة المتخلّي عنها بالضرب أو الحبس، العمل على إتلاف المغشوش من الطعام، التدخل لمراقبة الأسعار، منع التجار من الاستغلال والتدخل لحماية حقوق المستأجر. بالمختصر كان المحتسب يعمل على حفظ حقوق الناس والحفاظ عليهم من المضايقات.

وكان يُعتمد على الشرطة في استتباب الأمن وتطبيق القانون وكانت الشرطة تابعة للقضاء تهدف إلى تنفيذ الأحكام الصادرة عنه. لكنها انفصلت عنه في ما بعد وأصبحت جهازاً مستقلاً.

سلسلة المعارف الشاملة .ط 14

الأدب

عالم الفنون

الأسرة السعيدة

جمالك سيدتي

الأرض والكون

النبات والحيوان

الديانات والفلسفة

الكمبيوتر والانترنيت

حضارات الشعوب الوسطى

حضارات الشعوب القديمة

تاريخ حديث وفنون عسكرية

الطبخ والحلويات حول العالم

الطاقة والتكنولوجيا الحديثة

الفضاء - الأقمار الصناعية - الاتصالات

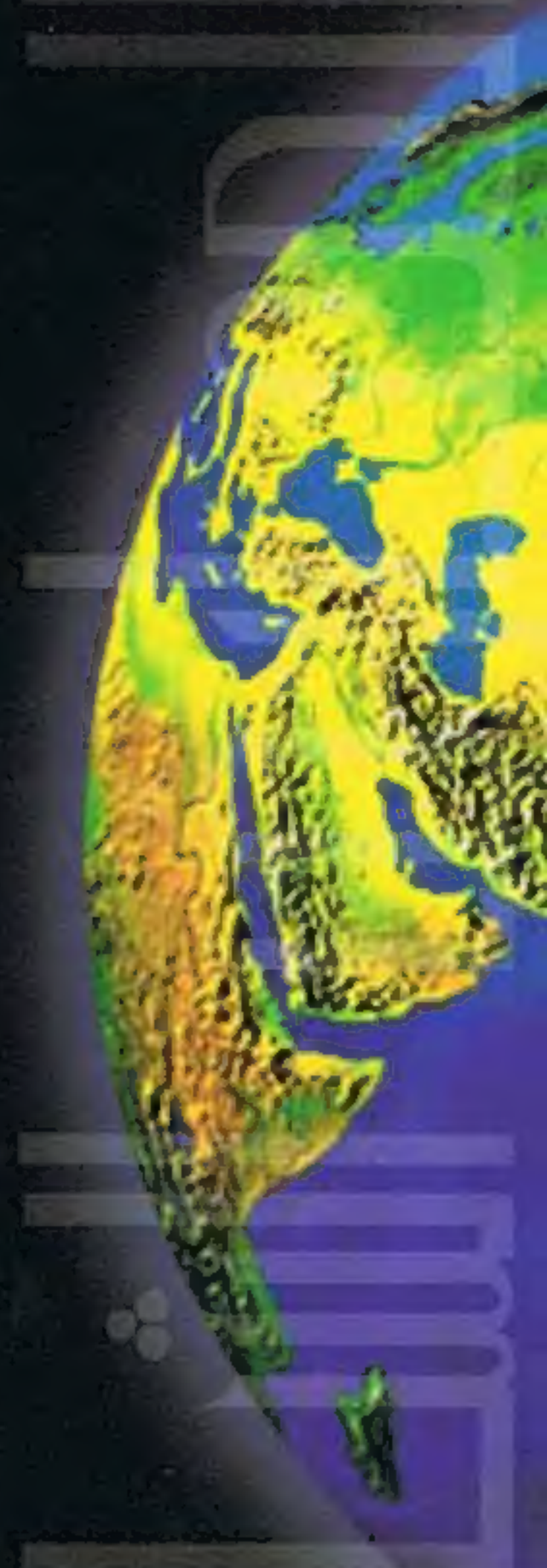

Edito Creps®
CONNAISSANCE GENERALE
TEL.:(00 961) 1 779777 - FAX:(00 961) 1 564391

Millennium

بإمكان زبائن سلسلة المعارف الشاملة ان يجدوا في كافة دول العالم الكتالوج الجديد لـ Edito Creps® عبر الانترنت www.editocreps.com.lb